

العتبة العلوية المقدسة

مكتبة الروضة الحيدرية

الرسائل الجامعية - ٣٨

الأدب مر علي عليه السلام

في كتابات المستشرقين الغربيين

د. لاسية نارنجية تحليلة

حفظه الله

النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية ٢٠١٢م

الإمام علي عليه السلام في كتابات المستشرقين الغربيين

■ الناشر: العتبة العلوية المقدسة

■ إعداد: مكتبة الروضة الحيدرية

■ المؤلف: حاتم كريم چياد

■ الإخراج الفني: محمد حمدان

■ عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

■ الطبعة: الأولى ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

العتبة العلوية المقدسة، العراق. النجف الأشرف

هاتف المكتبة: ٧٨٠٢٣٣٧٢٧٧ (٠٠٩٦٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تتبنى «مكتبة الروضة الحيدرية»
بالتعاون مع لجنة إعمار العتبات
إصدار سلسلة الرسائل الجامعية
استعداداً للنجف عاصمة الثقافة الإسلامية عام ٢٠١٢ م
وتقديرًا ودعمًا لجهود الباحثين، والمكتبة إذ تنشر هذه السلسلة
لا تتبنى الآراء المطروحة فيها بالضرورة

الإمام علي عليه السلام
في كتابات المستشرقين الغربيين

الإمام علي عليه السلام
في كتابات المستشرقين الغربيين

دراسة تاريخية تحليلية

إعداد

حاتم كريم چياد

المقدمة ونطاق البحث

اهتم المستشرقون بدراسة التأريخ العربي الإسلامي عبر العصور الماضية دفعهم في ذلك عوامل عدة من بينها ما هو ديني أو اقتصادي أو سياسي أو علمي، وانصب اهتمامهم على الإسلام ونبي الإسلام محمد ﷺ وبعض الشخصيات الإسلامية، إلى جانب علوم وآداب اللغة العربية في العصر القديم وعصر ما قبل الإسلام والعصر الإسلامي.

وقد اختلف الباحثون المسلمون في تقييمهم لآثار المستشرقين بين معترف بجهودهم في إثراء المكتبات الأوروبية والعربية بكل ما من شأنه إحياء التراث العربي الإسلامي بدراسة الكثير من مخطوطات أسلافنا النفيسة في الاختصاصات المختلفة، كالتأريخ والجغرافية والفلسفة والأدب واللغة، وبين آخر يقلل من شأن المستشرقين ويتهمهم بالدس ومحاوله تشويه التأريخ الإسلامي. والأمر الذي لا يختلف فيه اثنان أن المستشرقين ليسوا على مستوى واحد من الثقافة والكفاءة العلمية، وإن الدوافع لدراساتهم التأريخ الإسلامي تختلف بين شخص وآخر، فمنهم من عمل لحساب مؤسسات علمية والبعض الآخر قد جندته جمعيات تبشيرية أو استعمارية، فمن الطبيعي تتباين أحكامهم بشأن الموضوع الذي يهتمون به، ومن الخطأ الحكم على كل المستشرقين بأنهم قد أضروا بالإسلام أو جميعهم قد أسدوا خدمة إليه، وإنما الحكم يكون على وفق استخدام معايير البحث العلمي وتطبيقه على دراستهم.

في ضوء ما تقدم ذكره؛ وانطلاقاً من رغبة الباحث في أن تكون

دراسته الأكاديمية في المرحلة العالية تتمحور حول سيرة النبي الكريم ﷺ وآل بيته الأطهار ﷺ.

فضلاً عن الغاية السامية في مشوار البحث العلمي يسّر الله تعالى للباحث اختيار موضوع هذه الأطروحة الموسومة (الإمام علي ﷺ في كتابات المستشرقين دراسة تاريخية تحليلية). فالحمد لله أولاً وآخرأ.

تضم هذه الأطروحة أربعة فصول متفاوتة في عدد صفحاتها لضرورات تطلبها البحث ولطبيعة هذا الموضوع، الفصل الأول: الذي يُعد فصلاً تمهيدياً تحت عنوان (المستشرقون ودراسة سير الرجال - الرسول محمد ﷺ أنموذجاً)، ويشمل مبحثين، أحدهما: يتناول الدراسات الغير موضوعية تجاه الرسول محمد ﷺ وآل بيته الاطهار ﷺ، والثاني: يتناول الدراسات الموضوعية.

كانت الغاية من هذا الفصل هي إلقاء نظرة سريعة على رؤية المستشرقين للشخصية الإسلامية، وأول شخصية أولها المستشرقون بحثاً هو الرسول الكريم محمد ﷺ، فضلاً عن معرفة المنهج الذي استعمله المستشرقون في تقويمهم لبعض هذه الشخصيات، وهل أنهم استعملوا المعايير نفسها مع الكلّ أو أنهم حاولوا التمييز بين واحد وآخر.

أما الفصل الثاني: فيحمل عنواناً هو: «مناهج المستشرقين في دراسة شخصية الإمام علي ﷺ»، ويقسم إلى خمسة مباحث تمحورت حول أسبقية الإمام علي في الإسلام، وزواجه من السيدة فاطمة الزهراء ﷺ، وأثره في جمع القرآن، وصفاته الشخصية، فضلاً عن شجاعته وفروسيته. والغاية من هذا الفصل هي معرفة انطباعات المستشرقين عن شخصية الإمام علي ﷺ وتقويمهم لكل ما يتعلق بسيرته وشخصيته.

وفيما يتعلق بالفصل الثالث: فقد تناول موضوع (موقف المستشرقين من موضوع الخلافة)، وعرض الإشكالية التي رافقت هذا الموضوع عبر

كتابات المستشرقين، والمتمثلة بأن الرسول الكريم محمد ﷺ لم يعين خليفة من بعده، وكذلك ما ورد من روايات تناقض هذا الرأي توضح أنه قد استخلف، وقد استعرض الباحث وجهات نظر بعض المستشرقين بشأن هذه المسألة وما ورد على لسان بعض مؤرخينا أو ما اجتهد الباحث به للرد عليها على وفق ثلاثة مباحث.

وختام الفصول كان الفصل الرابع: الذي أطره عنواناً هو (الحروب التي خاضها الإمام علي عليه السلام ضد الناكثين والقاسطين والمارقين) إبان تسلمه الخلافة، وقد أماط هذا الفصل اللثام عن ما أفرزته بعض الدراسات الاستشراقية حول أسباب وأحداث ونتائج معارك الجمل وصفين والنهروان على وفق ثلاثة مباحث، وعالج هذا الفصل مدى تقييم المستشرقين لهذه الحروب من حيث كونها قد خاضها الإمام علي عليه السلام من أجل الاحتفاظ بالخلافة أم لأن أعداءه قد حاولوا شق صف المسلمين والضرر بالإسلام؟

لقد اعتمد في إعداد هذه الأطروحة مصادر ومراجع عربية وأجنبية ومترجمة وكانت عماد البحث إلى جانب ما لم يتم ذكره في هذه المقدمة، كان من بينها مسند أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م) وصحيح البخاري (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م) وصحيح مسلم (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م)، وسنن ابن ماجه (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)، وصحيح الترمذي (ت ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م)، والمستدرك على الصحيحين للنيسابوري (ت ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م).

وتمثلت الفائدة من هذه الكتب بتخريج الأحاديث النبوية الشريفة التي وردت في بحوث بعض المستشرقين، أو اللجوء إليها عند ذكر مناقب الإمام علي عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام.

ومن المصادر الأخرى التي أعانت الباحث في تتبع بعض الروايات التاريخية التي وردت في كتابات المستشرقين أو الاستعانة بها في الرد على الإشكالات التي عرضوها، كتاب المغازي لابن إسحاق (ت ١٥١هـ/

٧٦٨م)، وكتاب السيرة النبوية لابن هشام (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م)، وكتاب أنساب الأشراف للبلاذري (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، يضاف لهذه المصادر كتاب تأريخ الرسل والملوك للطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، الذي يُعد من الكتب الغنية عن التعريف لأي باحث في التأريخ الإسلامي، فهو يتميز بسعة المعلومات التي أوردها فيه وبطرق إسناد متعددة، وكان مؤلفه حريصاً على الشمولية في نقل النصوص والتفصيل في ذكر الأحداث المتعلقة بخلافة الإمام علي عليه السلام وما رافقها من عقبات.

ومما أعان الباحث في تعقب بعض الروايات أيضاً، مؤلف (مروج الذهب ومعادن الجوهر) للمسعودي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، ومن المصادر المهمة الأخرى التي اعتمد الباحث عليها في ترجمة بعض الشخصيات التي وردت في الأطروحة، كتاباً (الإصابة في تمييز الصحابة) و(تهذيب التهذيب) لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م).

وعلى الرغم من كون كتاب (الأعلام) للزركلي (ت ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م) يُعد من المراجع فقد اعتمد الباحث عليه في ترجمة بعض الشخصيات لما تميز به من السعة إذ إنه يحمل تراجم لشخصيات تنتمي إلى حقبة تاريخية متأخرة فضلاً عن ترجمته لعدد من المستشرقين.

ومن المراجع العربية الذي تكرر ذكره في أكثر من موضع في الأطروحة كتاب (الإمام علي في رؤية النهج ورواية التأريخ) للمؤرخ إبراهيم بيضون، ويُعد من الكتب التي سلك فيه مؤلفه منهجاً تحليلياً بعيداً عن السرد التاريخي، فضلاً عن كتاب (الإسلام والغرب) لمؤلفه راجي أنور هيفا الذي وقف فيه على آراء بعض المستشرقين بشأن الإسلام وناقشها في ضوء الحقائق المعلنة في كتب التأريخ إلى جانب اجتهاده في تقديم الرؤى المتعلقة ببعض الإشكالات التي عرضها المستشرقون.

أما المراجع الأجنبية المترجمة إلى اللغة العربية فكانت ذات فائدة جلية للأطروحة، وكان من بينها كتاب (عقيدة الشيعة) للمستشرق

الإنكليزي دونالدسن (Donaldson)، ولا يمكن لأي باحث يحاول دراسة سيرة الأئمة أو معتقدات الشيعة الاستغناء عن هذا الكتاب، إذ حاول (دونلدسن) فيه الاعتماد على مصادر ومراجع مؤرخي الشيعة إلى جانب مصادر ومراجع مؤرخي السُّنة، واستعمال آليات البحث التاريخي من تحليل وربط ونقد ومقارنة واستنتاج، وأسهب في وصف الأحداث التاريخية المتعلقة بخلافة الإمام علي عليه السلام والحروب التي دارت في عهده إلى جانب دراسته موضوع الإمامة الذي يُعد في صميم العقيدة الشيعية.

لقد قسّم دونالدسن كتابه آنف الذكر إلى اثنين وثلاثين باباً، أفرد الباب الأول منها لدراسة حدث تاريخي مهم، هو الخلافة، متخذاً من حديث غدير خمّ أساساً انطلق منه لتوضيح ملاسبات هذا الموضوع وما جرى في السقيفة من خلاف بشأن اختيار خليفة رسول الله ﷺ، وفي الباب الثاني يتحدث عن مجريات الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين حتى نهاية خلافة عثمان بن عفان، فيما خصص الباب الثالث لدراسة خلافة الإمام علي عليه السلام وما صاحبها من أحداث حتى يصل إلى استشهاد، بعد ذلك يحاول (دونلدسن) دراسة سيرة الأئمة الاثني عشر على وفق أبواب، فخصص لكل إمام باباً، ولكل مرقد مقدس باباً أيضاً يعرض فيه بناء المرقد والتطورات العمرانية التي طرأت عليه، ودرس (دونلدسن) خلال المباحث الخمسة الأخيرة موضوع الإمامة وعصمة الأئمة والأنبياء وشفاعتهم.

وكان للمستشرق الفرنسي آميل درمنغهم (Dermenghem,E) كتاباً عنوانه (حياة محمد) تمكن الباحث من خلاله الحصول على معلومات تاريخية تتعلق بجوانب مهمة من شخصية الإمام علي عليه السلام وموضوع الخلافة بعد الرسول الكريم محمد ﷺ.

ومن الكتب المترجمة الأخرى كتاب (الخوارج والشيعة) للمستشرق الألماني يوليوس فلهوزن (Julius well Hausen)، ويُعد من الكتب التي

كانت ذات قيمة ملموسة في الأطروحة، إذ يقف فيه على أحداث ما بعد مقتل الخليفة عثمان وذَكَرَ معركتي الجمل وصفين باختصار شديد ليناقدش بعد ذلك نشأة الخوارج وظهورهم على مسرح الأحداث لأول مرة والصراع الذي دار بينهم وبين الإمام علي عليه السلام في معركة النهروان.

وللمستشرق فلهوزن أيضاً كتاب آخر عنوانه (تأريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية)، وقد قسمه إلى تسعة فصول، خص الفصل الأول لدراسة عصر الرسالة الإسلامية والخلفاء الراشدين حتى نهاية عهد الخليفة عثمان، أما الفصل الثاني فقد تناول فيه الحروب التي حدثت في عهد الإمام علي عليه السلام، وقد تمّ الاستفادة من هذا الفصل بوضوح لعلاقته المباشرة بالبحث، أما باقي الفصول فقد استعرض فيها أحداث الدولة العربية الإسلامية حتى نهاية العصر الأموي. ومما يلاحظ على المنهج الذي استعمله فلهوزن في هذا الكتاب لجوؤه إلى الاختصار الشديد لكنه لا يخلو من الفائدة.

وهناك كتاب مُترجم للمستشرق الألماني (جرهارد كونسلمان) تحت عنوان (سطوع نجم الشيعة)، ويتضمن هذا الكتاب معلومات مهمة عن الشيعة في التأريخ الإسلامي والتأريخ الحديث، مبتدئاً بذكر أحداث الهجرة النبوية إلى يثرب ودور الإمام علي عليه السلام في المبيت في فراش النبي محمد صلى الله عليه وآله، وحاول كونسلمان الوقوف على الأحداث التاريخية البارزة التي حظيت باهتمام الشيعة ومن بينها خلافة الإمام علي والحروب التي دارت خلالها وكذلك خلافة الإمام الحسن واستشهاد الإمام الحسين عليه السلام وتولي الإمام علي بن الحسين زين العابدين الإمامة، ومن ثم يذكر تفصيلات عن الإمامة في نظر الشيعة وغيرها من الأحداث التاريخية، وينتقل بعد ذلك إلى حقبة تاريخية متأخرة تمثلت بالثورة الإيرانية عام (١٩٧٩م) ويصل بالأحداث حتى عام ١٩٨٩م.

وكان لكتاب (محمد وخلفاؤه) للمستشرق الأمريكي واشنطن إيرفنج

(W. Irving) فائدة في هذه الأطروحة، وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يُعد من الكتب التي تناولت سيرة النبي محمد ﷺ إلا أنه قد تمت الاستفادة منه من خلال الوقوف على أحداث تاريخية خصت الإمام علي عليه السلام.

أما كتاب المستشرق الإنكليزي بودلي (Bodley, R. V.) الذي يحمل عنوان (حياة محمد) فهو الآخر من الكتب التي عُنت بالسيرة النبوية أيضاً ولكن تخلفته أحداث تاريخية تتعلق بالإمام علي عليه السلام وتم توظيف هذه المعلومات بالاتجاه الذي يصب في فائدة البحث.

ومن الكتب المترجمة الأخرى ذات الصلة المباشرة بالموضوع كتاب المستشرق الدانماركي بترسن (Patterson) المعنون (علي ومعاوية في الرواية المبكرة) الذي ترجمه الأستاذ الدكتور عبد الجبار ناجي، وهو مؤلف قيم استخدم فيه مؤلفه مصادر ومراجع مختلفة واستعان بالقصائد الشعرية التي أطلق عليها مصطلح الرواية الشعرية. لقد كان بترسن في هذا الكتاب مؤرخاً تعامل مع الأحداث التاريخية بشكل ملفت للنظر، فهو يسعى للوصول إلى الحقائق بإيراد الروايات المتعلقة بالحدث التاريخي المراد التحقق من صحته على اختلافها ثم يلجأ في النهاية إلى ترجيح واحدة على أخريات.

وكان للمراجع الأجنبية أهمية لا تقل إن لم نقل أنها أكثر من المراجع المترجمة في إغناء الأطروحة بالآراء الاستشراقية وخاصة في الفصلين الثالث والرابع، وكان من بينها كتاب المستشرق الإنكليزي ميور (Muir) الذي يحمل عنوان: (The caliphate its Rise Decline and Fall) (الخلافة - انحدارها - سقوطها)، وكان ذا أهمية لصلته المباشرة بموضوع الأطروحة، إذ يتناول ملابسات موضوع الخلافة وإحداث خلافة الإمام علي عليه السلام بشيء من التفصيل.

وكتب باللغة الألمانية المستشرق الألماني (شبولر Spuler) كتابه

الموسوم (Geschichte Der Islamischen Lander) وقد عالج شبولر في كتابه الحروب التي خاضها الإمام علي عليه السلام ضد الناكثين والخوارج في معركتي الجمل والنهروان.

ومن الكتب الأخرى كتاب المستشرق الانكليزي (ترتون Tritton) الذي كان بعنوان (Islam Belief and Practices) - الإسلام الممارسة والتطبيق - ويمكن تلمس الفائدة منه من خلال متابعة واطلاع القارئ على صفحات الأطروحة.

وكان للموسوعات باللغتين الإنكليزية والعربية فائدة جمّة في هذا العمل وتمثلت بكونها تضم بحوثاً قيمة - وبخاصة الإنكليزية - لعدد من المستشرقين تناولوا فيها مواضيع تتعلق بالفكر الشيعي وأحداث خلافة الإمام علي عليه السلام.

وأهم هذه الموسوعات هي (Encyclopeadia of Islam, New Edition) و(Encyclopeadia of Religion and Ethics) موسوعة الأديان والأخلاق.

أما الموسوعات العربية فكانت موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بدوي ذات أهمية كبيرة، إذ تضمنت ترجمة لنخبة من المستشرقين ومؤلفاتهم مع تحليل لبعض هذه المؤلفات وما تحويه من مفردات مع استخدام النقد وتحديد ميول أصحابها.

إن لدائرة المعارف الإسلامية المترجمة عن اللغة الانكليزية إسهاماً في ظهور الأطروحة على ما هي عليه، فقد ضمت مواضيع مختلفة كمواقع مدن ومصطلحات تاريخية ولغوية وترجمة شخصيات وذكر معارك مما ساعد في الاستفادة منها في مجال معرفة انطباع المستشرقين عن بعض الشخصيات الإسلامية كحمزة بن عبد المطلب عم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وفيما يخص المشاكل التي واجهت الباحث فلا يخفى على أكاديمي

منصف ما يعانیه الباحثون من ظروف ولا سيما الذين يكتبون في مواضيع
مصادرها الأساسية باللغات الأجنبية، فقد اقتصر وجودها في مركز
العاصمة بغداد وفي مرحلة حرجة تمثلت بالأعمال الإرهابية، وأقل ما
يمكن وصف هذه الظروف أنها استثنائية.

الفصل الأول

المستشرقون ودراسة سير الرجال
الرسول محمد ﷺ أنموذجاً

مدخل

تعمق فريق من المستشرقين في دراسة الإسلام عامة وسيرة الرسول محمد ﷺ خاصة من خلال تناول جوانب متعددة، منها ما هو فكري ومنها ما هو اجتماعي أو اقتصادي. والملاحظ على أغلب هذه الدراسات صفة التباين في أحكامها تبعاً للخلفيات الثقافية التي يحملها مؤلفوها، أو نتيجة للتأثر بميول واتجاهات أصحاب الموارد التي استسقى المستشرقون منها معلوماتهم، أو لطبيعة الظروف السياسية التي كان لها فعلها في التأثير على مجريات أحداث التاريخ عبر مختلف العصور.

وأرجع أحد الباحثين مواقف بعض المستشرقين عندما ينكبون على تشريح مفاهيم الإسلام وأحكامه وسائر قضاياها، إلى الجدل وحده، وإن هم أضفوا عليه صفة العلمية كما يزعمون، وتمثل هذه الظاهرة اتجاهاً خطيراً في تقويض دعائم العلم والخُلق معاً^(١). في حين أن الجدل يرمي الاقناع والسعي عن قصد واضح إلى التأثير أو الضغط على الطرف الآخر من أجل تنازله عن أفكاره إن كانت من دون أدلة، أو كسب تأييده.

ولسنا في هذه الدراسة المتواضعة بصدد تبيان تلك المؤثرات على اختلافها بقدر ما يكون من واجبنا والمفيد بمكان أن نسلط الضوء على

(١) انظر، مغلي، محمد البشير، مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، (الرياض - ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م)، ص ٢٨٦.

بعضها من خلال التطرق إلى أبرز الجوانب التي ركز المستشرقون عليها في أبحاثهم ولا سيما فيما يتعلق في سير الرجال ويأتي في مقدمتهم سيرة الرسول الكريم محمد ﷺ وبعض الصحابة الكرام، لنتمكن من معرفة حقيقة مهمة هي، هل أن انطباعهم عن شخصية الإمام علي عليه السلام هي امتداد لانطباعاتهم عن الرسول محمد ﷺ وأصحابه أم أنها أخذت منحى آخر، والأمر الذي لا يختلف عليه اثنان، إن استقراء ما كتبه المستشرقون حول الإسلام والشخصيات الإسلامية بدقة في غاية الصعوبة نظراً لتباين الأبحاث الاستشراقية التي تناولت هذا الموضوع.

فمن الجوانب المهمة التي احتلت المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم في أبحاث المستشرقين، هو موضوع الرسول محمد ﷺ، ولم يختلف المستشرقون في أمر مثل اختلافهم في شخصيته ﷺ وفي الدين الإسلامي، فقد أوضح بعضهم سمو مبادئه، وتعصب ضده آخرون وحاولوا التقليل من شأنه، بل نعتوه بكلمات نابية لا تنم إلا عن حقد متأصل، ودليل على أن بعض المستشرقين يحملون عن الرسول محمد ﷺ أفكاراً مسبقة، وبذلك هم يجردون أنفسهم من الموضوعية التي يجب على كل باحث أكاديمي أن يلتزم بها في دراسته المعمقة وأحد مبادئ هذه المهنية هو أن لا يحمل الباحث أية فكرة مسبقة عن الموضوع الذي يحاول الكتابة فيه.

لقد اهتم أغلب المستشرقين بكل ما يتصل بالإسلام وبشخصية الرسول محمد ﷺ، حياته، أصحابه، زوجاته، دعوته للإسلام وغيرها من الجوانب التي يمكن أن تشكل مجموعها مجمل تاريخ الإسلام، لذلك سنجتزئ بعضاً منها من خلال البحث في بعض الآراء التي تصدت لهذه الجوانب، على وفق مبحثين مهمين الأول: يتناول الدراسات المتحاملة التي سميناهم الدراسات غير الموضوعية، أما الثاني: فيحمل عنوان الدراسات الموضوعية.

المبحث الأول

الدراسات غير الموضوعية

اتّخذت أغلب الدراسات الاستشراقية التي تناولت السيرة النبوية الشريفة طابع التحامل المبني على أسس مخطوءة، بعضها مستمد من الخلفيات الفكرية لأصحابها فتكون أحكامها متعمدة وقاسية والبعض الآخر تكون ناتجة عن جهل بالحقائق التاريخية لاعتمادها على بعض المصادر الإسلامية التي تجانب الحقيقة، وبذلك تكون أحكامها غير منصفة ومتحاملة.

ويرجع اهتمام الأوروبيين في الإسلام والسيرة النبوية الشريفة إلى العصور الوسطى الأوروبية، وقد اتّسمت معظم تلك الدراسات بطابع العدوانية وإلصاق التهم، والأسباب الكامنة وراء هذه النزعة واضحة لكل باحث أكاديمي وتتمثل بالأسباب الدينية والسياسية التي تأتي في المقام الأول، وتتبعها عوامل أخرى قد تكون باعتقادنا أقل شأنًا.

لقد اعتمد المستشرقون على بعضهم في الحصول على المعلومات المتعلقة بالإسلام أو الاعتماد على القصص والأساطير الخيالية التي زينت بعض الكتب الأوروبية، التي تُعد من المآثر التي يشار لها بالبنان في نظر الكثيرين من الأدباء في العصور الوسطى أو في عصرنا الحالي.

من بين تلك القصص والملاحم، (الكوميديا الإلهية) لمؤلفها دانتي

[Dant Alagherii] (١٢٦٥ - ١٣٢١م)، وهي ملحمة من نسج رؤاه الخاصة، يصور من خلالها الآخرة على أنها رحلة ذات عوالم ثلاث، (الجحيم، المطهر، الفردوس)، وقبل الجحيم هناك مكان يدعى (الشفاء)، مخصص لأرواح الأطفال الذين يتوفاهم الله قبل أن يعمّروا، وأرواح «الوثنيين الفاضلين» ويقصد دانتى بهم أولئك الذين عاشوا قبل ظهور المسيحية^(١).

ما يهمنا هنا هو النظر في رؤى دانتى التي عرضها في ملحمة عن الإسلام؛ وكذلك ما تناوله من أفكار حول بعض الشخصيات الإسلامية الموجودة في ملحمة.

وضع (دانتى) النبي محمد ﷺ في المنطقة الثامنة من مناطق «الجحيم» وهي المنطقة المقسّمة إلى عشرة جيوب للشر، وقد وصفها دانتى على أنها جيوب كالحة مظلمة تحيط بمعقل إبليس في الجحيم^(٢).

أما الصورة التي تخيلها دانتى في «العذاب» المزعوم للنبي محمد ﷺ، فقد ظهرت على نحو مثير للتعجب، وملخصها أن النبي ﷺ «يُشق» إلى نصفين ابتداءً من الذقن باتجاه أسفل الجسم، ثم يتناول دانتى بالبحث المستفيض أحشاء النبي محمد ﷺ^(٣) وما يحدث لها من جراء العذاب المزعوم.

وذكر دانتى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فوضعه في الدرجة نفسها التي وضع فيها ابن عمه النبي محمد ﷺ، ووصف الطريقة التي «يعذب» فيها الإمام علي عليه السلام، بأن يقوم الشيطان المكلف «بشقه» إلى شطرين ابتداءً من الذقن صعوداً حتى فروة الرأس، وقد اراد دانتى بهذا

(١) انظر، دانتى، الجيري، الكوميديا الإلهية، ترجمة حسن عثمان، دار المعارف (مصر - ١٩٥٥)، الصفحات ٦١ - ٦٨.

(٢) انظر، الصباح، رشا حمود، التصورات الأوروبية للإسلام في العصور الوسطى وتأثيرها في الكوميديا الإلهية، مجلة عالم الفكر، مجلد/١١، ع/٣، ١٩٨٠، ص٩٤.

(٣) انظر، الصباح، التصورات الأوروبية للإسلام، ص٩٥.

الوصف أن يجعل عقاب الإمام علي عليه السلام بشقه من الذقن إلى الجبهة مكماً للعقاب الذي أنزل بآبن عمه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

إن طريقة العقاب التي صورها دانتي بحق النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإمام علي عليه السلام، هي التصوير الرمزي في نظره نتيجة «للشقاق» الذي بذراه هما واتباعهما في جسد الكنيسة التي تُعد بمثابة جسد المسيح نفسه صلى الله عليه وآله وسلم ^(١).

ويبدو لنا من خلال وصف دانتي الخيالي للرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم وللإمام علي عليه السلام، مدى الكره الذي يكنه للإسلام لما أحدثه من تغييرات جوهرية في خارطة العالم نتيجة لقوته التي كانت تزداد يوماً بعد يوم، لتوقف زحف المبشرين النصارى.

وقد برزت قصص وأساطير أخرى كان القاسم المشترك في طبيعة تناولها لسيرة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتمثل بأنه كان مسيحياً وانشق عن الكنيسة أو كان متأثراً بها.

ويُعد المتشرق البريطاني جورج سيل (George Sale ١٦٩٧ - ١٧٣٦) الذي وُصف بأنه نصف مسلم لشدة اهتمامه بالإسلام ^(٢)، والمترجم للقرآن الكريم والذي مهد لترجمته بملاحظات متزنة، تُعد بحق تاريخية وموضوعية على رأي لأحد الباحثين ^(٣)، من المؤيدين لفكرة أن يكون للديانة المسيحية تأثيرها الفاعل في ظهور الدين الإسلامي وبلورته إلى حيز الوجود.

ففي أثناء تعليق (سيل) على قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيْحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ ^(٤).

(١) انظر، الصباح، التصورات الأوروبية للإسلام، ص ٩٥.

(٢) انظر، عقيقي، نجيب، المستشرقون، دار المعارف، ط ٣ (مصر - ١٩٦٥)، ٤٧١/٢.

(٣) انظر، مغلي، مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، ص ٣٩٦.

(٤) سورة آل عمران، الآيتان: ٤٥ - ٤٦.

قال سيل: «يبدو أن هذه الحكايات مأخوذة من بعض التراثيات الخرافية للمسيحيين الشرقيين»، وحاول (سيل) في مواضع أخرى من كتابه الذي ترجم فيه (القرآن) النيل من الرسول محمد ﷺ خلال تعليقاته على بعض الآيات القرآنية التي خصت موضوع الزواج، فقد ذهب إلى أن الرسول محمد ﷺ قد ميز نفسه عن باقي المسلمين في قضية الزواج وأنه كان يفضل ما يحلو له في عدد الزوجات وطبيعة تعامله معهن، في حين يراه قيّد غيره من المسلمين في عدد الزوجات وكيفية التعامل معهن^(١).

إن المستشرق جورج سيل وعلى الرغم من تصريحاته بالتزام الموضوعية في مقدمة ترجمته القرآن الكريم، إلا أنه قد تأثر بالآراء الاستشرقية التي كانت سائدة في عصره والمتعلقة بالسيرة^(٢)، ومنها ما يتعلق بتعدد زوجات الرسول الكريم ﷺ.

فالرسول الكريم ﷺ لم يكن كما يصوره بعض المستشرقين من إنه رجل يتلاعب بعقله الهوى فيجعله يسعى وراء الشهوة أو الغرام، وإذا كان بعض الكتاب المسلمين في بعض العصور قد أباحوا لأنفسهم أن يقولوا هذا القول، وأن يقدموا لخصوم الإسلام عن حسن نية هذه الحجة، فالسبب يعود إلى إيمان هؤلاء وأولئك بالمادية، فأرادوا أن يصوروا محمداً ﷺ عظيماً في كل شيء، عظيماً حتى في شهوات الدنيا، وهذا التصور خاطئ ينكره تأريخ الرسول محمد ﷺ أشد إنكار وتأبى حياته كلها أن تقره^(٣).

(١) انظر، بشير، مشتاق، تطور الاستشراق البريطاني في كتابة السيرة النبوية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية ابن رشد، (جامعة بغداد - ٢٠٠١م)، ص ٧٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر، هيكل، محمد حسنين، حياة محمد، مكتبة النهضة، ط ٥ (مصر - ١٩٥٢)، ص ٣١٧.

ويمكننا أن نذكر دليلاً آخرًا على أن الرسول محمد ﷺ لم يقصد المتعة من وراء تعدد الزوجات، إذ كان عمره بعد وفاة خديجة ﷺ قد تجاوز الخمسين ومن المتعارف عليه أن نشاط الإنسان الجنسي في هذه المرحلة وبعدها يتراجع إلى الحد الذي لا يستطيع الزواج بأكثر من امرأة أو على أكثر تقدير من امرأتين، إذ لا بد من أسباب أخرى دفعته لذلك. وقد أشارت إليها بعض الدراسات^(١).

ومن الدراسات الأخرى التي ركزت على موضوع التأثير المسيحي ما أشار إليه المستشرق البريطاني (بودلي Bodly, R. V. E)، حيث أكد برواج مثل تلك القصص في فكر مؤرخي العصور الوسطى بقوله: «كانت بعض الأفكار المقبولة في تلك الأوقات وهمية خيالية، فقد أظهر محمداً مثلاً في شعر القرن الثاني عشر كأثير من أمراء الإقطاع يتلقى الأوامر المسيحية المقدسة، فلما أخفق في أن ينصب نفسه باباً ثار لنفسه بأن ابتدع ديناً جديداً»^(٢).

وهناك بعض الإشارات الاستشراقية التي حاولت إيجاد علاقة بين معتقدات الرسول محمد ﷺ والنصرانية واليهودية، ومن بينها ما ذكره المستشرق الفرنسي (درمنغهم Dermenghem, e) الذي اتهم الرسول محمد ﷺ بأنه التقى بالراهب (بحيرى) في إحدى رحلاته إلى الشام وإن الراهب رأى فيه علامات النبوة على ما تدلّه عليه أبناء الكتب الدينية. وفي الشام عرف النبي محمد ﷺ أخبار الروم ونصرانيتهم وكتابهم^(٣).

(١) انظر، الصراف، محمد محمود، زوجات النبي الطاهرات وحكمة تعددهن، ط٣، (القاهرة - ١٩٧٩)، ص٥٥، النعمة، إبراهيم، الإسلام وتعدد الزوجات، (الموصل - ١٩٨٢)، ص٨٢، ٨٣، الترماني، عبد السلام، الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام، (الكويت - ١٩٨٤)، ص٢٥، ٢٦.

(٢) بودلي، رونالد فكتور، حياة محمد الرسول، ترجمة عبد الحميد جودة السحار ومحمد محمد فرج (القاهرة - ١٩٦٤)، ص١٢.

(٣) انظر درمنغهم، إميل، حياة محمد، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة إحياء الكتب العربية، (القاهرة - ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م)، ص٦٠.

ومن الجدير بالذكر أن حادثة بحيرى الراهب قد تناقلها بعض المؤرخين المسلمين وكان في مقدمتهم ابن إسحاق^(١) (ت ١٥١هـ).

وأفادت بعض الأبحاث التي تبنت دراسة مناهج المستشرقين بأن بعضهم قد زعم أن ثقافة النبي محمد ﷺ كانت مستمدة من «العالم المسيحي» ورقة بن نوفل (ت نحو ٦١١م)، من بني أسد وابن عم السيدة خديجة بنت خويلد (ت ٣ق. هـ) الذي كان بجوار النبي ﷺ، وقد تنصر وكان يترجم التوراة والإنجيل إلى العربية وعاش الرسول الكريم ﷺ بجواره ما يقارب خمسة عشر عاماً قبل البعثة، هذا ما حمل بعض المستشرقين إلى الاعتقاد بأن هذه الفترة كافية لأن يتعلم الرسول محمد ﷺ منه تعاليم التوراة والإنجيل^(٢).

لقد شخّص عدد من الباحثين الأسباب الدافعة لمثل هذه الاتهامات، على سبيل المثال يذكر (خودابخش) بأن الحملات الصليبية التي هاجمت الشرق الإسلامي قد أعطت فرصة لأصحاب الخيال الخصب في اختلاق القصص والخرافات، التي كانت تلاقي رواجاً في أوروبا، على الرغم من أن صراع السنوات الطويلة بين الغرب والشرق قد منحت الجنود الأوروبيين فرصة الاطلاع المباشر على الإسلام، حيث كان معظم هؤلاء ينقلون قصص مزيفة لشعوبهم بدافع التعصب الديني^(٣).

وأضاف (الخربوطلي) لسابقه سبباً آخرًا يتلخص بأن الانتشار السريع

(١) انظر في تفاصيل هذه الحادثة، محمد بن إسحاق بن يسار (ت ١٥١هـ)، سيرة ابن إسحاق، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، (بيروت - ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ص ٧٣، ابن هشام، عبد الملك (ت ٢١٨هـ)، السيرة النبوية، تحقيق رضوان جامع رضوان، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، (القاهرة - ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ج ١، القسم الثالث، ص ١٧٥، ١٧٦.

(٢) انظر نقره، التهامي، مناهج المستشرقين، دار العلم للملايين، (بيروت - ١٩٨٥)، ١/١٠٣.

(٣) انظر خدابخش، صلاح الدين، الحضارة الإسلامية، ترجمة علي حسني الخربوطلي، (بيروت - ١٩٧١)، ص ٤٥.

للإسلام في الشرق والغرب قد جعل رجال الكنيسة الكاثوليكية يشعرون بالخطر إزاء هذا الدين الجديد فعملوا بكل ما في وسعهم من أجل تشويه صورة الإسلام أمام شعوبهم، لضمان سيطرتهم التامة على عقلية الأوروبيين في العصور الوسطى^(١).

ويعلل الدكتور جواد علي محاولة بعض المستشرقين الربط بين الدين الإسلامي والدين المسيحي إلى أن معظم هؤلاء من النصارى ومن رجال الدين أو المتخرجين من كليات اللاهوت، فعندما يتكلمون عن الدين الإسلامي، من الطبيعي أن يكون للأفكار والمعتقدات التي يحملونها أثر واضح في التعامل مع الموضوعات الحساسة في الإسلام، فيحاولون دائماً إرجاعها إلى أصل نصراني^(٢).

ورد الشيخ محمد الغزالي رداً منطقياً على المزاعم نفسها بقوله:

«إن العقل كان يمكن أن يجيز هذا التوهم لو كان السابق أغنى من اللاحق وأقدر. لكن إذا كان الدين الذي أتى به محمد ﷺ أوسع أقطاراً أو أرحب آفاقاً مما سبقه، فكيف يتصور أن يأخذ الغني من الفقير، وأن يستعين القادر بالعاجز؟»^(٣).

وأفاد الدكتور محمد البهي بأن محاولة إثبات هذه التهمة على الإسلام يرجع إلى عاملين اثنين: أحدهما: نفسي ويتمثل في الغزو العلمي لدى المستشرقين، والآخر: يرجع إلى العداة التاريخية القديم^(٤) بين الغرب والشرق الإسلامي.

(١) انظر، علي حسني، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، (مصر - ١٩٨٨)، ص ٥٥.

(٢) انظر، تاريخ العرب في الإسلام، مؤسسة الشريف الرضي، (إيران - ١٩٦٣)، ص ١٢.

(٣) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، دار الكتب الحديثة، (القاهرة - ١٩٦٣)، ص ٩٨.

(٤) انظر، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر، (بيروت - ١٩٧٣)، ص ٥٩٩.

ومن أبرز المستشرقين والذي تجنى على الحقائق التاريخية، هو المستشرق النمساوي الأصل، الإنكليزي الجنسية، (شبرنجر) (١٨١٣ - ١٨٩٣ Aloys Sprenger)، ويُعد كتابه (حياة محمد وتعاليمه) من المؤلفات التي لا يُحسد عليها فقد كان نموذجاً تقليدياً ردد فيه شبهات سابقه وأفاض، حيث زعم أن النبي محمد ﷺ كان مصاباً بهستيريا الأعصاب والرأس التي تؤدي إلى السقوط على الأرض واحمرار الوجه وصعوبة التنفس، والأنكى من ذلك أنه نسب بعض فضائل وجهه الرسول الكريم محمد ﷺ إلى الخليفين أبي بكر وعمر.

فعلى سبيل المثال يذكر في حق الخليفة أبي بكر أنه: «استخدم الوسائل التي كان واجباً وممكناً للنبي أن يستخدمها لإخضاع العرب فعلاً وحقاً، لا بحسب الظاهر فحسب. ولولا تصرف أبي بكر الحازم لكان الإسلام قد انحل، أو بقي مجرد فرقة دينية لا أهمية لها»^(١).

فاشبرنجر متحامل على النبي ﷺ بسب سياسته التي استعملها مع القبائل التي تُعد مخطوءة بنظر (شبرنجر) وقد زعم بأن النبي ﷺ كان متسرعاً في الثقة بوفود القبائل الذين وفدوا عليه لإعلان إسلامهم، مما أحدث الردة بعد وفاته ﷺ^(٢).

ويقول عن الخليفة عمر بن الخطاب بأنه:

«هو المؤسس الحقيقي للدولة الإسلامية. وفي نظري إن عمر أسمى من النبي في كل ناحية. فهو خلو من كل أنواع الضعف والتساهل التي وصمت أخلاق الأخير، وكان رجلاً مملوءاً بالجد والعزم الرجلين... في أثناء حياة النبي أدى من الخدمات لانتصار الإسلام، بل ولطهارة تعاليمه،

(١) بدوي، عبد الرحمن (الدكتور)، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، ط ٣ (بيروت - ١٩٩٣)، ص ٣١.

(٢) المصدر نفسه.

أكثر من محمد هو نفسه، وقد صان معلمه [النبي] من الوقوع في أخطاء فاحشة بفضل إقدامه الحازم. وكان لعقله الفائق تأثير على نفسية محمد الضعيفة الهستيرية»^(١).

إن مثل هذه العبارات القاسية التي لا تنم إلا عن تحامل وسوء فهم قائلها ولا تستحق أن تذكر، ولكن أوردناها لبيان المنهج الذي سار عليه (شبرنجر)، القائم على قذف الشبهات والنظر في عين واحدة للأحداث التاريخية، وقد كانت آراؤه مبنية على التحامل، والاعتماد على الروايات الضعيفة والغريبة.

وفي هذا الإطار فقد ذكر الطبري (ت ٣١٠هـ) ما نستدل به على عدم دقة كلام (شبرنجر)، إذ إن عمر بن الخطاب قد اعترض على قرار الرسول محمد ﷺ يوم صلح الحديبية (٦هـ) وقد جاهره بذلك وحاول التأثير عليه بالعدول عن قرار الصلح، وقد أدرك عمر بن الخطاب خطأه وما تفوه به أمام المسلمين، مما دفعه إلى القول: «ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ، مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً»^(٢).

ويمكننا من خلال هذه الرواية الوصول إلى أمرين مهمين.

الأول: إن اعتراف عمر بن الخطاب بخطأه يدل على أنه أحسن بتجاوزه على النبي ﷺ، الذي يمثل السلطة الشرعية على المسلمين، وبذلك فهو تجاوز صدر من شخص أدنى على سلطة أعلى، على عكس ما ادعاه (شبرنجر) بأن عمر بن الخطاب هو الذي صان النبي ﷺ من الوقوع في أخطاء فاحشة، بل الخطأ الفاحش صدر من عمر بن الخطاب

(١) انظر، بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ٣١.

(٢) محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، (مصر - دت)، ٦٣٤/٣.

بحق الرسول محمد ﷺ. ولا نستبعد ذلك لأن النفس أمانة بسوء الظن أو لتسرع عمر بن الخطاب.

أما الأمر الثاني: فهو أن لا نستغرب من كلام المستشرق (شبرنجر) أو غيره من المستشرقين عندما يشك في نبوة الرسول الكريم ﷺ، إذا كان عمر بن الخطاب الذي أصبح خليفة للمسلمين فيما بعد وعلى الرغم من معاشته للرسول الكريم ﷺ ومعرفته بأخلاقه وإيمانه بدعوته قد شك في صحة قراره بالصلح، فكيف بالمستشرق المتحامل الذي يفتش عن أية ثغرة في تاريخ المسلمين، أو عن أي خطأ وإن كان غير مقصود.

أما المستشرق الإيطالي (كيتاني) (Leone Caetane ١٩٣٥ - ١٨٦٩) فهو أمير من أسرة (آل كيتاني). وهي من كبار الأسر المالكة في إيطاليا الحديثة، وذاع صيته من خلال أحد مؤلفاته وهو (حوليات الإسلام)، ويُعد أوسع تاريخ للإسلام في عصر النبي محمد ﷺ والخلفاء الراشدين^(١).

لقد اتبع كيتاني أسلوباً مميزاً في دراسة السيرة، وتمثل بالرجوع إلى المصادر الأولية بمواردها الكثيرة للإحاطة بكل ما ورد عن سير الرسول ﷺ، ودراسة كل خبر ونقده والبحث عن رواته، لكنه وقع في مثل الأخطاء التي رافقت (شبرنجر)، فقد أكثر من الأخبار الغريبة، وأخذ بالروايات المتأخرة الضعيفة، وأبدى فيها آراء مبنية على العاطفة في الغالب^(٢) والشك في كل ما كتبه عن الرسول الكريم محمد ﷺ.

إن النزعة النقدية التي مارسها (كيتاني) كانت مفرطة، واتّسمت بالشك المبالغ فيه أحياناً في قبول وثائق التأريخ الإسلامي، وقد عدّ العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأحوال الجغرافية هي

(١) بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ٤٩٣.

(٢) انظر، جواد علي، تأريخ العرب في الإسلام، ص ١٢.

الأساس في بلورة الدعوة الإسلامية وظهورها إلى حيز الوجود مع إهمال واضح للجانب الديني، وعلى ضوء ذلك فسّر رسالة النبي محمد ﷺ والفتوح الإسلامية التي كان حليفها النصر السريع وخاصة في جبهتي الفرس والروم، ولم يحسب أي حساب للتأثير العقائدي، بل فسر تلك الانتصارات على أنها كانت نتيجة لما تعانیه دولة فارس من انحلال وما اضطربت به دولة الروم من منازعات دينية بين الفرق المسيحية المتشاحنة^(١). ولم تقتصر انتقادات (المستشرق كيتاني) على شخص الرسول الكريم ﷺ بل تهجم على بعض أصحاب الرسول ﷺ مثل (ابن عباس ت ٦٨هـ / ٦٨٧م) فاتهمه بالكذب، لاعتقاده بوجود روايات متناقضة أو غير صحيحة، يرجع سندها إليه، فأصدر حكمه القاسي من غير أن يتحرى ويعرف بأن الكثير مما أسند إلى ابن عباس ؓ كان مدسوساً وليس له دخل فيه^(٢).

ويبدو لنا أن (كيتاني) لم يطلع على المؤلفات العربية المتخصصة بالجرح والتعديل، التي تبنت متابعة النصوص وسلسلة سندها ودراسة ميول واتجاهات قائلها، والعصر الذي كتبت فيه.

وأبرز مستشرق كتب بابتعاد تام عن الحقائق التاريخية هو البلجيكي هنري لامنس (١٨٦٢ - ١٩٣٧ Henri Lammens)، وكان راهباً يسوعياً شديد التعصب ضد الإسلام، ويفتقر إلى النزاهة في البحث وعدم الأمانة في نقل النصوص وفهمها، ويُعد من النماذج التي لا يحتذى بها من الباحثين في التأريخ الإسلامي^(٣).

إن الأفكار المغرضة التي تبناها (لامنس) عديدة من بينها، إن النبي

(١) انظر، بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ٤٩٦.

(٢) انظر، علي، تأريخ العرب في الإسلام، ص ١٣.

(٣) انظر، بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ٥٠٣.

محمد ﷺ كان طفلاً فقيراً مجهول المولد، تبنته أسرة عبد المطلب^(١).

كان دليل لامنس على فكرته هذه هو قول القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾^(٢).

ولو رجعنا إلى تفسير هذه الآية في كتب التفسير نجد إن القمّي (من أعلام القرن الثالث الهجري) يذكر بأن «اليتيم الذي لا مثل له ولذلك سميت الدرّة اليتيمة، لأنه لا مثل لها»، أما «وجدك ضالاً فهدى»، فتعني «وجدك في قوم لا يعرفون فضل نبوتك فهداهم الله بك»، أما «وجدك عائلاً فأغنى»، أي أغنى بالوحي^(٣).

أما الرازي فقد فسر (ألم يجدك) من الوجود الذي بمعنى العلم، وذكر في تفسير (يتيماً) أمران، الأول: إن عبد الله بن عبد المطلب فيما ذكره أهل الأخبار، توفي وأم رسول الله ﷺ حامل به، ثم وُلد رسول الله فكان مع جده عبد المطلب ومع أمه أمنة فتوفيت أمه وهو ابن ست سنين ثم توفي جده بعد أمه بستين...، وأما التفسير الثاني لليتيم: فهو من قولهم درة اليتيمة، والمعنى، ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير فأواك؟ أي جعل لك من تأوي إليه وهو أبو طالب.

أما «وجدك ضالاً فهدى» فقد ذكر في تفسيرها عشرين قولاً، وأقربها إلى الصواب، إن النبي محمد ﷺ كان حائراً في أمر قومه، وضالاهم في عقائدهم وتقاليدهم وفساد أعمالهم وجهلهم وتفرق كلمتهم... ولا يدري، ما هو السبيل إلى هدايتهم حتى نزل عليه الوحي فيه تبيان كل شيء^(٤).

(١) انظر، غلاب، محمد، هذا هو الإسلام، مطابع الشعب، (مصر، ١٩٥٩)، ص ١١٣.

(٢) سورة الضحى، الآيات: ٦ - ٨.

(٣) القمّي، أبو الحسن علي بن إبراهيم (من أعلام القرن الثالث الهجري)، تفسير القمّي، (بيروت - ١٤١٢هـ/١٩٩١م) ٤٢٦/٢ - ٤٢٧.

(٤) أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ)، التفسير الكبير، (طهران - د. ت)، ص ٢١٤ - ٢١٦.

إن الأدلة على بطلان فكرة لامنس فضلاً عن ما ذكر في كتب التفسير كثيرة من بينها ما أدلى به الدكتور محمد غلاب، من أنه لو كان كلام لامنس صحيحاً:

«لما ارتضى زعماء القبائل تحكيمه بينهم حين اختلفوا على وضع الحجر الأسود، ولما بايعه أبو طالب الجبار على مناصرته رغم أنه لم يعتنق دينه، ولما تردد زعماء مكة في الإقدام على قتله حين ضايقتهم بالدعوة إلى الإسلام كما فعلوا رهبة من أسرته ولما شج حمزة^(١) رأس أبي جهل حين جرؤ على شتمه»^(٢).

وأضاف لامنس شبهة أخرى إلى شبهاته عن الرسول الكريم ﷺ، مفادها أنه: «رجل نؤوم أكل قد كثفت جسمه الملذات»^(٣).

كانت السمة المميزة لمنهج لامنس في الكتابة التاريخية وخاصة فيما يتعلق بالحديث الشريف ووقائع السيرة، هي الشك في كل شاردة وواردة، فقد شك في أمانة الرسول محمد ﷺ وصدقته، وأنكر الروايات التي أفادت بأن الرسول ﷺ كان يتعبد في غار حراء، وانتقد الرسول ﷺ، وكان يميل إلى المكيين من المعادين للدعوة الإسلامية^(٤).

ووصف لامنس بأنه غير دقيق في نقل الحوادث التاريخية كما عبر عن ذلك الدكتور عبد الرحمن بدوي بقوله:

(١) هو الحمزة بن عبد المطلب بن هاشم (٥٤ ق. هـ - ٣٣ هـ) من قريش وعم النبي وأحد صناديد الإسلام وسادة قريش في الجاهلية، وُلد ونشأ في مكة وكان أعز قريش وأشدها شكيمه، هاجر مع النبي إلى المدينة وشهد وقعة بدر وكان أول لواء عقده الرسول له، استشهد في معركة أحد (٣ هـ). انظر الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، ط ١٦ (بيروت - ٢٠٠٥ م)، ٢/٢٧٨.

(٢) غلاب، هذا هو الإسلام، ص ١١٤.

(٣) ياسين، خليل، محمد عند علماء الغرب، مؤسسة الوفاء، ط ٢ (بيروت - ١٩٨٣)، ص ٨٢.

(٤) انظر، عبد الحميد، عرفان، المستشرقون والإسلام، (بغداد - د. ت)، ص ٧٨.

«وأبشع ما فعله لامنس، خصوصاً في كتابه (فاطمة وأولاد محمد)، هو أنه كان يشير في الهوامش إلى مراجع بصفحاتها، وقد راجعت معظم هذه الإشارات في الكتب التي أحال عليها، فوجدت إنه أما يشير إلى مواضع غير موجودة إطلاقاً في هذه الكتب، أو يفهم النص فهماً ملتويّاً خبيثاً، أو يستخرج إلزامات بتعسفٍ شديد يدل على فساد الذهن وخبث النية... ولا أعرف باحثاً من بين المستشرقين المحدثين قد بلغ هذه المرتبة من التضليل وفساد النية»^(١).

ويبدو أن لامنس قد احتفظ بعبارات المديح والإطراء ليجعلها من نصيب الخليفة معاوية الأول (ت ٦٠هـ/٦٧٩م)، فقد تضمن كتابه «دراسات عن حكم الخليفة الأموي معاوية الأول» دفاعاً عنه وتمجيداً للأمويين جميعاً، على النقيض من المنهج الذي سلكه مع الرسول الكريم محمد ﷺ وأهل بيته الأطهار ﷺ ليتحول من ناقد خبيث يجد لكل حق باطلاً مع الرسول ﷺ وأهل بيته إلى مدافع مستميت سوغ جرائم الأمويين جميعاً، ولا سيما جرائم يزيد بن معاوية (ت ٦٤هـ)^(٢).

وينضمُّ المستشرق الإنكليزي مرجليوث (D. S MarGoliouth - ١٨٥٨ - ١٩٤٠م) إلى قائمة المستشرقين المتعصبين من خلال كتابه (محمد ونشأة الإسلام) الذي ألفه عام (١٩٠٥م) وقفى عليه بكتاب (الإسلام)، وكانت دراسات مرجليوث غير علمية مما جعلها تثير السخط عليه ليس من جانب المسلمين فقط، بل ومن بعض المستشرقين^(٣).

وعلى الرغم من كونه يُعد من القلائل الذين اتقنوا العربية فهماً

(١) بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ٥٠٤.

(٢) انظر، هادي، علي السيد، مناهج الكتابة في السيرة النبوية، سلسلة بحوث على هيئة كتاب تحت عنوان (مشروع إعادة كتابة التاريخ الإسلامي)، مجلة المنهاج، (بيروت - ٢٠٠٤م)، ص ١٧٩.

(٣) بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ٥٤٦.

وكتاباً إلا أنه لم يوظف هذه الميزة بشكل صحيح من أجل الوصول إلى نتائج علمية، فقد زعم أن محمداً ﷺ لم يعرف والده حيث إن اسم (عبد الله) باعتقاده يضاف إلى مجهولي النسب^(١).

لقد فند أحد الباحثين ما زعمه مرجليوث، بالقول:

«يزعم هذا وهو يعرف مدى اهتمام العرب بالأنساب ويعرف عناية قريش بأبنائها وأبائها، فكيف جهل النسابون الوعاة نسب محمد لبني هاشم، وقد عرفوا أنساب الخيول؟! أفيؤتمن مثل هذا (العلامة) - على حدّ قول بعضهم - على قضية، يدرسها، وهو يسمح لقلمه أن يفترى عامداً بما ينكره اطلاعه؟»^(٢).

وأضاف مرجليوث افتراءً آخر وصف فيه الرسول المصطفى ﷺ بأنه كان يعيش من أموال السلب والنهب^(٣).

ولا يمكن لباحث يمتلك قدراً يسيراً من الموضوعية وتتوفر فيه أدنى مؤهلات التحليل المنطقي لحوادث التاريخ أن يصف الرسول محمد ﷺ بهذا الوصف، لأنه من غير الممكن أن يكون أساس الدولة التي أسسها النبي محمد ﷺ واستمرت بعده عدة قرون، مبنياً على أموال السلب والنهب، لأن الذي يسلب وينهب لا يطمح من وراء ذلك نشر دعوة أو بناء دولة وإنما طموحه هو تأمين قوته اليومي ليس إلا، ولا يمكن أن يسرق كي يبني مجدداً للآخرين.

ولم تتوقف حملة التشويه عند الرسول الكريم محمد ﷺ بل استمرت حتى مع أهل بيته ﷺ وأصحابه، ونشير في هذه الدراسة إلى بعضها لأن التعمق فيها يحتاج إلى دراسة مستقلة.

(١) انظر، الدسوقي، محمد، الفكر الاستشراقي تأريخه وتقويمه، مؤسسة التوحيد للنشر، (قم - ٩٩٦ م)، ص ٩٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ياسين، محمد عند علماء الغرب، ص ٧٨.

يأتي في مقدمة أولئك المستشرقين المغرضين وأكثرهم حقداً البلجيكي (لامنس) وسبق لنا الإشارة إليه في رؤيته لشخص الرسول الكريم محمد ﷺ التي إتّصفت بعدم الانصاف.

فقد وَصَفَ (لامنس) الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ (ت مسموماً ٥٠هـ / ٦٧٠م) بصفات بعيدة كل البعد عن الحقائق التاريخية التي تناقلتها مصادرنا الإسلامية المنصفة، لقد ذكر لامنس، إن الإمام الحسن ﷺ لم يكن على وفاق مع أبيه ﷺ وأخوته ﷺ وإنه يميل إلى الشهوات ويفتقر إلى النشاط والذكاء، وقد أنفق خير سنوات شبابه في الزواج والطلاق، حتى وصل عدد نسائه - حسب ما يذكر لامنس - إلى مائة زوجة عدداً، وكانت تلك الزوجات سبباً في ايقاع الإمام علي ﷺ في خصومات عنيفة، وأثبت الحسن كذلك والكلام لـ (لامنس) أنه مبذر كثير السرف وأسكن كل من زوجاته بمسكن ذي خدم وحشم، وكيف كان يبعثر المال أيام خلافة والده الإمام علي ﷺ الذي اشتد عليه الفقر^(١).

إن كلام (لامنس) غير دقيق ولا يستند إلى أدلة تاريخية وهذا ناتج من تأثره بالأمويين كما في كتابه (معاوية)، ولو ألقينا نظرة على بعض مصادرنا الإسلامية المعتمدة عند كل المذاهب التي ورد فيها ذكر الإمام الحسن ﷺ، لوجدنا ما يفند ادعاء (لامنس).

فقد ذكر الإمام مسلم (ت ٢٦١هـ) في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة، في باب فضائل الحسن والحسين ﷺ، قول الرسول الكريم محمد ﷺ بحق الإمام الحسن ﷺ: «اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه»^(٢).

(١) انظر، دائرة المعارف الإسلامية، نقله إلى العربية، محمد ثابت أفندي وآخرون، د. ت، مجلد ٧ ص ٥٨، مادة الحسن بن علي بن أبي طالب.

(٢) القشيري النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ)، صحيح مسلم، دار احياء التراث العربي، (بيروت ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠م)، ص ١٠٤٨.

وروي هذا الحديث في سنن ابن ماجه (ت ٢٧٥هـ)، ورواه جمع آخرون من أئمة الحديث^(١).

وجاء في المستدرک علی الصحیحین للنیسابوری (ت ٤٠٥هـ) الذي روى عن الزبير، أن رسول الله ﷺ قبل حسناً ﷺ وضمه إليه وجعل يشمه، وكان عند الرسول رجلٌ من الأنصار، فقال الأنصاري: إن لي ابناً قد بلغ ما قبلته قطّ، فقال له رسول الله ﷺ: «أرأيت إن كان الله نزع الرحمة من قلبك فما ذنبي؟»^(٢) وورد في كنز العمال، عن البراء بن عازب (ت ٧٢هـ) قال: قال رسول الله ﷺ بحق الحسن: «هذا مني وأنا منه وهو يحرم عليه ما يحرم عليّ»^(٣).

وذكر ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) في طبقاته، إذ قال: أخبرنا سريح بن النعمان، أخبرنا هيثم بن أبي معشر، قال: حدثني بعض مشيختنا، قال: لما خرج علي ﷺ من القبر، ويعني به قبر النبي ﷺ، ألقى المغيرة بن شعبة (ت ٥٠هـ) خاتمه في القبر وقال لعلي ﷺ: خاتمي، فقال علي لابنه الحسن ﷺ: ادخل فناوله خاتمه، ففعل^(٤).

(١) انظر، البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، (بيروت - ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص ٦٦٥، ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ)، سنن ابن ماجه، دار إحياء التراث العربي، (بيروت - ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ص ٣٤؛ الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (ت ٢٩٧هـ)، الجامع الصحيح، دار إحياء التراث العربي، (بيروت - ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ص ٩٨٩.

(٢) انظر، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥هـ)، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق الدكتور محمود مطرجي، دار الفكر للطباعة والنشر، (بيروت - ١٤٢٢/٢٠٠٢م)، ص ٣٧٩.

(٣) المتقي الهندي، علي بن حسام الدين (ت ٩٧٥هـ)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق، محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية، ط ٢ (بيروت - ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م)، ٢٨٤/١٣.

(٤) انظر، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، (بيروت - ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ٢٣١/٢.

وكان المغيرة يقصد من إلقاء خاتمه في قبر النبي ﷺ أنه:

إن دخل القبر الشريف بعدما يخرج الإمام ﷺ، فيفتخر على الصحابة بأنه هو آخر الناس عهداً برسول الله ﷺ، فأدرك الإمام علي ﷺ ذلك، وأمر الإمام الحسن ﷺ بإخراج الخاتم، وبذلك كان الإمام الحسن آخر الناس عهداً برسول الله ﷺ^(١).

ونكتفي بالتدليل على تقوى الإمام الحسن ﷺ وإن كان ذلك لا يحتاج إلى دليل، بذكر ما رواه البيهقي (ت ٤٥٨هـ) بسنده عن ابن عباس ﷺ قال: «ما ندمت على شيء فاتني في شبابي إلا إنني لم أحج ماشياً، ولقد حج الحسن بن علي ﷺ خمساً وعشرين حجة ماشياً وأن النجائب لتقاد معه، ولقد قاسم الله ماله ثلاث مرات»^(٢).

ولو قارنا بين ما ذكره (لامنس) وما ورد من أحاديث عن الرسول محمد ﷺ يتبين لنا البون الشاسع في وصف الإمام الحسن ﷺ، فمن حج بيت الله سبحانه وتعالى خمساً وعشرين مرة ماشياً، ويقول عنه الرسول ﷺ: «هذا مني وأنا منه ويحرم عليه ما يحرم عليّ»، لا يمكن ولا يحق لأي شخص أن يطعن به، ولا سيما الموصوف هو الإمام الحسن ﷺ الذي تربى في بيت النبوة.

ومن بين الشخصيات الإسلامية التي لم ينصفها المستشرق (لامنس)، هو الحمزة بن عبد المطلب، عم الرسول الكريم محمد ﷺ وأحد الأبطال، الذين أرسوا دعائم الإسلام.

بدأ (لامنس) كلامه عن الحمزة بالقول: «حمزة بن عبد المطلب: عم النبي وتزيد الروايات إنه أخوه في الرضاعة سعيماً منها إلى تمجيد هذا

(١) ابن سعد، المصدر نفسه، ص ٢٣١، ٢٣٢.

(٢) أبو بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ) السنن الكبرى، دائرة المعارف النظامية، (الهند -

٣٣١/٤هـ)، ٣٣١/٤.

البطل من أبطال الإسلام في عهده الأول، ولا نعرف عن حمزة فيما عدا ذلك إلا القليل»^(١)

وأضاف (لامنس) بأن الحمزة عليه السلام قد دخل في الإسلام بعد نزول الوحي على النبي محمد صلى الله عليه وسلم بسنتين وهاجر إلى المدينة وعاش فيها أول الأمر (عيشة المغمور البائس حتى بلغ من أمره أن خرج من وعيه في يوم من الأيام تحت تأثير الإفراط في الشراب وحمل بسيفه على جمال لعلي^(٢)). وليس غريباً أن يتجاهل المستشرق (لامنس) نسب الحمزة بن عبد المطلب، فهو من قَبْلُ قد تجاهل مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ونسبه، ويبدو أنه يتجاهل كل عظماء الإسلام.

قال ابن إسحاق (ت ١٥١هـ): «فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزّ وامتنع وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه»^(٣).

وذكر الذهبي (ت ٧٤٨هـ) بأن الحمزة هو بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي بن قصي بن كلاب، ووصفه بأنه إمام وبطل وضرغام وأسد الله، الهاشمي، المكي ثم المدني، البدري، الشهيد، عم رسول الله وأخوه من الرضاعة^(٤).

يضاف إلى هذا وذاك بأنه أحد أبطال الإسلام الذي شهدت له معركة بدر وأحد موقفاً لا يمكن إنكاره إلا من المتحاملين على الإسلام.

أما الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام (ت ٦١هـ)، فقد كان

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ٨/١٠٦، مادة حمزة بن عبد المطلب.

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(٣) السيرة، ص ١٧٢.

(٤) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق مصطفى

عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، ٧٢/٣.

الحكم قاسياً عليه على يد المستشرق الألماني يوليوس فلهوزن (١٩١٨ - ١٩٤٤ Julius Well Hausen)، ويمكن وصفه بأنه لا يقل تحاملاً عن (شبرنجر) و(لامنس).

يُعد كتاب فلهوزن (أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام) من المؤلفات المهمة الذي وقف فيه على تفاصيل ووقائع تاريخية تتناسب مع عنوان كتابه، مستخدماً أسلوب نقد الروايات ومقارنتها مع بعضها بالرجوع إلى مصادر متعددة، ولكنه في النهاية يحاول تفضيل رواية على أخريات، وإصدار أحكام لا تتلاءم مع الجهد المبذول في البحث.

لقد اعتمد فلهوزن روايات (أبي مخنف ت ١٥٧هـ)^(١) وفضّلها على باقي الروايات وأشاد بأسلوب ونزاهة وصفه للأحداث، في حين قلل من أهمية ما كتبه آخرون أمثال اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م) الذي لم يتردد فلهوزن باتّهامه بـ «السذاجة»^(٢).

يقول فلهوزن في هذا الإطار: «وعلى الرغم مما فيها [أي رواية أبي مخنف] من ألوان الأساطير، فإنها لا تحجب عنا المادة التي بفضلها نستطيع أن نكون أحكاماً سليمة»^(٣).

وباعتقادنا أن الأحكام التي أصدرها فلهوزن بحق الإمام الحسين عليه السلام لم تكن سليمة، بل كان الطابع المميز لها هو التلون

(١) هو لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف الأسدي، راوية، عالم بالسير والأخبار، إمامي من أهل الكوفة، له تصانيف كثيرة، منها «فتوح الشام» و«الردة» و«الجمل» و«صفين» وغيرها، انظر، الزركلي، الأعلام، ٢٤٤/٥.

(٢) انظر، هاني، إدريس، محنة التراث الآخر، مؤسسة الغدير للدراسات والنشر، (بيروت - ١٩٩٨)، ص ٥٨.

(٣) يوليوس، أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام - الخوارج والشيعة، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، ط ٢ (الكويت - ١٩٧٦)، ص ١٣٥.

ومحاولة التلاعب بالألفاظ لغرض الوصول إلى الهدف المنشود وهو النيل من شرعية الثورة التي قام بها الإمام الحسين عليه السلام.

من جانب قال فلهوزن عن الإمام الحسين عليه السلام : «لقد مضى الحسين كما مضى المسيح في طريق مرسوم، ليفتح ملكوت الدنيا تحت الأقدام، ومد يده كالطفل ليأخذ القمر»^(١).

ومن جانب آخر يصفه عليه السلام بأنه: «ادّعى أعرض الدعاوى، ولكنه لم يبذل شيئاً في سبيل تحقيق أديانها، بل ترك للآخرين أن يعملوا من أجله كل شيء. وفي الواقع لم يكن أحد يوليه ثقة، إنما قدّم القوم رؤوسهم يائسين. ولم يكن يصطدم بأول مقاومة حتى ينهار، فأراد الإنسحاب ولكن كان ذلك متأخراً فاكتفى بأن راح ينظر إلى أنصاره وهم يموتون في القتال من أجله، وأبقى على نفسه حتى اللحظة الأخيرة»^(٢).

ووصف فلهوزن استشهاد الإمام الحسين عليه السلام بأنه قطعة مسرحية انفعالية (ميلودراما) بينما وصف مقتل الخليفة عثمان بن عفان بأنه مأساة (تراجيدياً).

وأضاف بأن «عيوب الحسين الشخصية تختفي أمام هذه الواقعة وهي أن دم النبي يجري في عروقه وإنه من أهل البيت فلم يكن عليه أن يجهد نفسه»^(٣).

والواقع أن كلام فلهوزن آنف الذكر غريب جداً وبعيد عن الحقائق، فقد قدّم الإمام الحسين عليه السلام أعلى شيء كان يملكه وهو التضحية بنفسه وأصحابه وأهل بيته من أجل بلوغ هدفه المتمثل بالوقوف بوجه السلطان الجائر الذي ابتعد عن الإسلام، ولم يُرغم الإمام الحسين عليه السلام أحداً

(١) يوليوس، أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام - الخوارج والشيعة، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، ط ٢ (الكويت - ١٩٧٦)، ص ١٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٧.

(٣) المصدر نفسه.

للقِتال معه، حيث وضح لأصحابه بأن القوم يستهدفونه هو دون غيره وخيرهم للانصراف في الليلة التي سبقت المعركة، ولكن ثقة أصحابه به وإيمانهم بقضيتهم جعلتهم يضحون بأنفسهم في سبيل ذلك، ولم نجد في مصادرنا التاريخية ما يفيد بأن الإمام الحسين عليه السلام أراد الانسحاب من المعركة كما ذكر فلهوزن.

ويعزز قولنا هذا، ما ذكره أبو مخنف (ت ١٥٧هـ) من خطبة للإمام الحسين عليه السلام في الليلة التي سبقت المعركة جاء فيها:

«ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وإني قد رأيت لكم فانطلقوا جميعاً في حلٍّ، ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيتكم فاتخذوه جملاً ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي وتفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله، فإن القوم إنما يطلبوني، ولو قد أصابوني لهُوا عن طلب غيري»^(١).

إن تمادي بعض المستشرقين في النيل من الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وأهل بيته وصحبه عليهم السلام أدى إلى انسياق آخرين وراء الاتجاه نفسه، من امثال المستشرق الانكليزي (انتوني نتنج Nutting, A) الذي وقع في أخطاء متعمدة في كتابه (العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام)، ولكن الدكتور راشد البراوي مترجم هذا الكتاب حاول إيجاد المبررات لاستعمال انتوني نتنج هذا الأسلوب في معالجته لأحداث التاريخ.

ففي أثناء حديث نتنج عن الإمام الحسن عليه السلام وهدنته مع معاوية بن أبي سفيان، ذكر بأن مبايعة أهل الكوفة للإمام الحسن عليه السلام جاءت من

(١) لوط بن يحيى الأزدي الكوفي (ت ١٥٧هـ)، وقعة الطف، تحقيق الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي، مؤسسة النشر الإسلامي، ط ٣ (قم - ١٤١٧هـ)، ص ١٩٧؛ المقدم، عبد الرزاق الموسوي، مقتل الحسين، مطبعة الآداب، ط ٤ (النجف - ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)،

باب الاحترام لذكرى الإمام علي عليه السلام وإن الحسن عليه السلام كان يؤثر العافية ويحب السلم، وقد ظفر بكنيته المطلق الكبير من زيجاته الكثيرة التي يقول البعض على حدّ تعبير نتنج: إنها بلغت المائة، وأضاف (نتنج) بأن الإمام الحسن عليه السلام لم يقم إلا بحركة واحدة لإنقاذ عرشه فوجه جيشاً من الكوفة ضدّ معاوية، ولكن لما بلغت الشائعات المدائن، عن انهزام جيشه تنازل على الفور لمعاوية الذي بعث إليه بصحيفة بيضاء ليكتب فيها الحسن عليه السلام ما يشاء^(١).

ووصف نتنج الإمام الحسن عليه السلام بالقول:

«لم يخجل الحسن من أن يطلب ويشترط في رده أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف درهم (٥٠٠) وعندئذ، وقد وضع في جيبه مكاسب لا يستحقها، انصرف إلى المدينة حيث توفي بعد سنوات ثمان على يد إحدى زوجاته»^(٢).

وقد دافع الدكتور راشد البراوي عن رأي (نتنج) في هذا الموضوع بقوله: «قد يتراءى للبعض أن الكاتب متحامل على الحسن بن علي. إن قصة الصحيفة صحيحة أوردها المؤرخون العرب، ولكنها في الواقع نوع من الترجمة، كما أن المبلغ جنبّ العالم الإسلامي المزيد من الحرب والفتنة. ويلاحظ أن معاوية هو الذي تقدم بالعرض، ومن ثم لا معنى للقول بأن الحسن، لم يخجل أو أنه وضع في جيبه مكاسب مالية لا يستحقها»^(٣). فإذا كانت هذه الكلمات التي أصدرها (نتنج) بحق الإمام الحسن عليه السلام لا تعني شيئاً للدكتور البراوي، فإنها تعني للمنصفين في التاريخ الإسلامي الشيء الكثير، فالإمام الحسن الذي يتكلم عنه

(١) انظر، نتنج، أنتوني، العرب انتصارتهم وأمجاد الإسلام، ترجمة الدكتور راشد البراوي، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة - ١٩٧٤)، ص ٩٢.

(٢) نتنج، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) مقدمة كتاب (العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام) للمستشرق أنتوني نتنج، صفحة، ي. ك.

المستشرق (نتنج) والمترجم (البراي) هو من سلالة (آل البيت)، أما الأموال التي تكلمنا عنها فهي حقوق المسلمين ولا يمكن للإمام الحسن عليه السلام أن يسلمها إلى أيدي غير أمينة عليها، تستخدمها للترف والبدخ وشراء الذمم.

إن المستشرق (نتنج) اعتمد على نصوص وردت في مصادر كان رواتها ضعفاء أو يحاولون الدس في كل أو جانب مما يتعلق بالأئمة عليهم السلام.

فقد وضعت على لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في حق ولده الإمام الحسن عليه السلام رواية بسند عن أبي جعفر محمد بن حبيب^(١) (ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م) عن المسيب بن نجبه جاء فيها:

«سمعت أمير المؤمنين عليه السلام، يقول: أنا أحدثكم عني وعن أهل بيتي، أما عبد الله ابن أخي فصاحب لهو وسماع، وأما الحسن فصاحب جفنة وخوان، فتى من فتیان قريش، ولو قد التقت حلقتا البطان^(٢) لم يغن عنكم شيئاً في الحرب، وأما أنا وحسين، فنحن منكم وأنتم منا...»^(٣) وروى محمد بن حبيب أيضاً رواية أخرى عن الإمام الحسن، جاء فيها: «قال علي عليه السلام: لقد تزوج الحسن وطلق حتى خفت أن أثير عداوة، قال أبو جعفر: وكان الحسن إذا أراد أن يطلق امرأة جلس إليها، فقال: أيسرك أن أهب لك كذا وكذا؟ فتقول له ما شئت، أو نعم، فيقول: هو لك، فإذا قام أرسل إليها بالطلاق، وبما سمى لها»^(٤).

(١) هو محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو، من موالي بني العباس، عرف عنه معرفته بالأنساب والأخبار والفقه والشعر، ولد في بغداد وتوفي في سامراء، له عدة كتب، منها، (المحبر) و (المنمق) وكتاب مختلف القبائل ومؤلفها، وأخرى، انظر في ترجمته، الزركلي، الأعلام، ٦/٧٨.

(٢) البطان: مثل يضرب للأمر إذا اشتد وجاوز الحد؛ انظر، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجبل، (بيروت - ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ج ١١/١٦.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١١/١٦.

(٤) المصدر نفسه، ج ١٢/١٦.

وبعد أن اطلعنا على هاتين الروایتین من كثير، نؤكد بأن (نتنج) قد حاول الاعتماد على مثل هذه الروایات، وبذلك أثرت على تقييمه لشخصية الإمام الحسن عليه السلام.

وهناك دليل آخر على تحامل نتنج، فقد تكررت في كتابه آف الذكر عبارة (الزندقة الشيعية) في صفحات عدة منها (ص ٢٢١، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥٣). وحاول الدكتور البراوي أيضاً التقليل من وقع هذه العبارة بقوله: «التعبير ليس غريباً أو متعسفاً لأننا نلقاه في مؤلفات كتب أهل السنة في تلك العصور، فالشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) في الملل والنحل والبغدادي (ت ٢٤٩هـ) في (الفرق بين الفرق)... الخ، يتحدثون عن فرق من قبيل الشيعة والخوارج... الخ باعتبارهم من أصحاب الضلالات أو من أصحاب الزندقة»^(١).

ويبدو لنا من هذا القول بأن المؤلف (نتنج) والمترجم الدكتور البراوي كانا أحاديي النظرة لأنهما لم يأخذا الأحداث التاريخية إلا من منهل واحد وهو مؤرخي السنة، للحديث عن حادثة أو ظاهرة تتعلق بالشيعة، وهذا هو الخطأ الذي يقع فيه أغلب الغربيين سواء كان ذلك عن قصد أو دون قصد.

وذكر أحد الباحثين سبباً منطقياً لإقدام الإمام الحسن عليه السلام على الاحتفاظ بالأموال التي كانت موجودة في بيت مال الكوفة، وهو أن للإمام عليه السلام شؤوناً كثيرة، فهو مثقل بعبء بني هاشم وأصحابه، وبحكم مركزه، فلا بد أن يكون في حوزته ما يكفيه من المال، وهذا شرط طبيعي لا بد أن يورده الإمام في بنود الصلح مع معاوية^(٢).

(١) البراوي، مقدمة كتاب (العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام) للمستشرق أنتوني نتنج، الصفحات، ي، ك.

(٢) انظر، فضل الله، محمد جواد، صلح الإمام الحسن أسبابه نتائجه، دار المثقف المسلم، (قم - د. ت)، ص ١٣٢.

وقد أطرى نتيج معاوية بن أبي سفيان مديحاً وثناءً بوصفه إياه بأنه ذو خلق عربي رائع ورب أسرة قُدِّر لها أن تحكم (الإمبراطورية) في أعظم أيام مجدها، وأضاف بأن باب معاوية كان مفتوحاً أمام أدنى رعاياه مرتبةً، من فقراء وذوي حاجة وكان معاوية على خلاف الشخص المنحل الذي يتحيز لأهله^(١).

ما ذهب إليه (نتيج) يطابقه كلام (فلب حتي) بحق معاوية بوصفه «لم يكن أول ملوك العرب فحسب بل كان واحداً من أحسنهم أيضاً»^(٢).

ولا نريد في هذا المبحث أن نتوسع في عرض الآراء التي اتسم أصحابها بالتحامل على الإسلام أو الرسول الكريم ﷺ أو بعض الشخصيات الإسلامية، ولكن من دواعي البحث تشخيص الأسباب التي دفعت بالمستشرقين إلى اتباع هذا المنهج، ويمكن تصنيف هذه الأسباب إلى صنفين: الأول: يتعلق بالمسلمين أنفسهم، والثاني: يرجع إلى المستشرقين وما كانوا يحملون من أفكار قد تكون مسيقة عن الإسلام أو أنها ناتجة عن سوء فهم أو حقد أو رجوعهم إلى روايات أموية، وقد تمت الإشارة إلى بعضها في الصفحات المتقدمة من المبحث، ونضيف إليها ما قاله المستشرق ساوثرن (R. W. Southern)، بأن كتاب اللاتين بين عام ١١٠٠م وعام ١١٤٠م الذين أخذوا على عاتقهم توضيح صورة الإسلام لدى الناس العاميين، ركزوا في اهتمامهم على الرسول محمد ﷺ دون اعتبار للدقة، فأطلقوا العنان لـ «جهل الخيال المنتصر» على حدّ تعبير (ساوثرن)، فقد وصفوا النبي محمداً ﷺ بأنه كان ساحراً هدم الكنيسة في أفريقيا وفي الشرق وأباح الاتصالات الجنسية^(٣).

(١) انظر، العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام، ص ٩٦ - ٩٧.

(٢) حتي، فلب خوري، تاريخ العرب، نقله إلى العربية، محمد مبروك نافع، مطبعة دار العالم العربي، ط ٣ (القاهرة - ١٩٥٢) ص ٢٤٧.

(٣) R. W. Southern, western views of Islam in the middle Ages, (Cambridge, Mass, 1962) p. p. 28 FF.

بخصوص ما يتعلق بالمسلمين فيمكننا أن نورد بعض الأدلة التي نعتقد بأنها كانت سبباً في زيادة الحملة الاستشراقية على الإسلام.

فقد ورد على لسان بعض رواة الحديث التعمد في الإساءة إلى شخصية الرسول الكريم ﷺ من خلال ما نسبوه إليه من أحاديث وأعمال تتنافى مع أبسط القواعد الأخلاقية، وكان الدافع في ذلك هو الظهور بالوجه الحسن أمام ذوي السلطان والجاه أو رفع شأن خلفائهم، ولكن على حساب الرسول الكريم ﷺ وأهل بيته ﷺ^(١).

لقد روى أبو هريرة^(٢) (ت ٥٧هـ) وحده (٥٣٧٤) حديثاً عن الرسول ﷺ في حين أنه لم يصاحبه إلا عاماً واحداً وبضعة أشهر^(٣) وقد اتهمه كبار الصحابة بالكذب والتزوير.

وما قاله ابن أبي العوجاء^(٤) (ت ١٥٥هـ/٧٧١م) قبل أن تُضرب عنقه: «وضعت فيكم أربعة آلاف حديث، أُحرّم فيها الحلال وأحلّ فيها الحرام»^(٥).

(١) انظر، هيفا، راجي أنور، الإسلام والغرب، دار العلوم، (بيروت - ٢٠٠٥)، ص ٧٢.
(٢) أبو هريرة، غامض الحسب، مغمور النسب، فاختلف الناس في اسمه واسم أبيه اختلافاً كثيراً، ولم يتم ضبطه في الجاهلية ولا في الإسلام، قيل إن أباه يدعى عمير بن عامر بن عبد ذي الشري، وأمّه أميمة بنت صفيح، أما كنيته فقد اكتسبها نسبة إلى هرة صغيرة كانت عنده وأحبها كثيراً. انظر، الموسوي، عبد الحسين شرف الدين، الموسوعة (الفصول المهمة - أبو هريرة)، تحقيق، مركز العلوم والثقافة الإسلامية، قسم إحياء التراث الإسلامي، دار المؤرخ العربي، (بيروت - ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م) ٣/١٢١٥ وما بعدها.

(٣) أبو رية، محمد (الشيخ) شيخ المضيرة أبو هريرة، دار المعارف، (مصر - ١٩٦٩)، ص ١٢٤.

(٤) ابن أبي العوجاء: اسمه عبد الكريم وهو من الملحدين المشهورين واعترف بدسه الأحاديث الكاذبة المنسوبة إلى النبي محمد وقد قتل في خلافة أبو جعفر المنصور وبالتحديد في عام (١٥٥هـ).

انظر، الطبري، التاريخ، ٤٨/٨؛ <http://www.alshia.com>.

(٥) أبو رية، محمد (الشيخ)، أضواء على السنة المحمدية، مؤسسة الأعلمي، (بيروت - د. ت)، ص ١٠.

ويبدو أن المستشرقين الذين يقرؤون قسماً من هذه الأحاديث أو ما يشبهها من الروايات سوف يصدرّون أحكامهم ومن ثم يعممون هذه الأحكام على الإسلام.

لقد ذهب أحد الباحثين بالقول: «لماذا نغضب من فلوتن^(١) وغيره إذا تناول [خالد]^(٢) بن الوليد بالفخر في دينه وشهامته في الوقت الذي نقرأ فيه عن أفعاله الدموية المخزية (في الجزء الثالث من تاريخ الطبري) أحد أبرز المؤرخين المسلمين؟!»^(٣)

لقد ذكر الطبري كيفية مسير خالد بن الوليد (ت ٢١هـ/ ٦٤٢م) بأمر من رسول الله ﷺ ليدعوا قبيلة (جذيمة) إلى الإسلام، وبعد أن أعطاهم خالد بن الوليد الأمان، جردهم من أسلحتهم ثم أمر بعد ذلك بتوثيقهم وقتل جماعة منهم، وعند وصول الخبر إلى الرسول ﷺ أمر الإمام علي عليه السلام بأن يدفع ديات القتلى نيابة عنه، ثم وقف الرسول ﷺ فاستقبل القبلة قائماً رافعاً يديه، وهو يقول: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد» ثلاث مرات^(٤).

وقد اتهم عبد الرحمن بن عوف^(٥) (ت ٣٢هـ/ ٦٥٢م) خالد بن

(١) فان فلوتن: مستشرق هولندي: له مؤلفات عديدة أهمها (مجيئ العباسيين إلى خراسان) و (أبحاث في السيطرة العربية) و (التشيع والعقائد المهدوية في عهد الخلافة الأموية)، للمزيد، انظر، عقيقي، المستشرقون، ٦٦٢/٢.

(٢) خالد بن الوليد (ت ٢١هـ)، بن المغيرة المخزومي، أسلم قبل فتح مكة سنة (٧هـ)، شارك في مقاتلة المرتدين أصحاب مسيلمة الكذاب، وفتح الحيرة سنة ١٢هـ في عهد الخليفة أبو بكر، مات بحمص بسوريا، انظر الزركلي، الأعلام، ٣٠٠/٢.

(٣) هيفا، الإسلام والغرب، ص ٧٤.

(٤) تاريخ، ج ٣/ ٦٨.

(٥) عبد الرحمن بن عوف بن الحارث، صحابي أحد العشرة المبشرين بالجنة، أحد أصحاب الشورى الذين جعلهم الخليفة عمر بن الخطاب الخلافة فيهم، شهد بدرًا وأحد وجرح يوم أحد وأعتق في يوم واحد ثلاثين عبداً، توفي في المدينة في السنة الثانية والثلاثين من الهجرة. للمزيد، انظر، الزركلي، الأعلام، ٣٢١/٣.

الوليد بقتل هؤلاء عمداً وهم مسلمون وذلك كي يثار ثأر الجاهلية لعميه اللذين قتلها بنو جذيمة في وقت سابق^(١).

بعد أن ألقينا نظرة سريعة على بعض الآراء الاستشراقية التي حاولت التقليل من شأن الرسول الكريم محمد ﷺ وأهل بيته ﷺ، يمكننا الخروج بالمؤشرات الآتية:

١- إن معظم الأحكام الاستشراقية التي صدرت بحق الرسول الكريم ﷺ تدل على أنها كانت أحكاماً مبنية على أفكار مسبقة ولا تنم إلا عن تحامل أصحابها على الرسول ﷺ.

٢- استعمل المستشرقون ألفاظاً بحق الرسول محمد ﷺ لا تمت إلى منهجية البحث التاريخي بأية صلة وفيها دلالات واضحة على حقد وكرهية أصحابها.

٣- تتبع المستشرقون أخبار الحوادث الغربية والضعيفة، وكان الهدف منها النيل من شخص الرسول محمد ﷺ والظعن في الإسلام.

٤- إن المنهج الذي استعمله المستشرقون قائم على النقد المفرط، الذي يصل إلى حد التشكيك في كل صغيرة وكبيرة وإلى درجة فساد العقل والابتعاد عن المنطق.

٥- حاولت بعض الدراسات الاستشراقية إضفاء صفة التبعية على الدين الإسلامي من خلال محاولة إيجاد علاقة بين الإسلام والنصرانية أو اليهودية، أو التصوير بأن الإسلام ليس ديناً مستقلاً بحد ذاته وإنما هو مشتق من المسيحية ومن بركاتها على الناس.

٦- كان الخطأ الذي وقع تحت طائلة فريق من المستشرقين يعود إلى استخدام المنهج النقلي فيما يتعلق بتناقل الحوادث عن بعضهم وعدم الرجوع إلى المصادر الإسلامية المنصفة.

(١) السماوي، محمد التيجاني (الدكتور)، الشيعة هم أهل السنة، مؤسسة الفجر، (لندن -

«المبحث الثاني»

الدراسات الموضوعية

اتخذ المستشرقون من هذه الدراسات مساراً آخرًا يختلف كل الاختلاف عن المسار الذي سلكه آخرون في دراساتهم التي تم الإشارة إليها في المبحث الأول، ولعل السبب في رأينا يعود إلى تعامل هذا الصنف من المستشرقين مع الأحداث التاريخية بواقعية ومهنية، وتجرد عن الهوى وعدم الانسياق وراء أحكام جاهزة أصدرها الآخرون.

سنورد في هذا المبحث نماذج من هذه الدراسات لا حاجة منا إليها في إنصاف نبينا الكريم ﷺ ولا إلى شهادة مستشرق للتدليل على عظمة الدين الإسلامي، ولكن ليكون هؤلاء شهوداً على تجني سابقهم، رغم أن التأريخ الذي درسوه هو تأريخ واحد والنبى محمد ﷺ الذي وصفوه هو واحد.

لقد شخص أحد الباحثين مجموعة مؤهلات تمكن المستشرق لكي يكون في مصاف المنصفين وأهم هذه الضوابط والمؤهلات:

١- التمييز بين معطيات الإسلام وواقع المسلمين دون الخلط بينهما أو تحكيم سلوك الناس بمبادئ الدين، أو الأوضاع بالشرع.

٢- الاعتماد على المصادر والمراجع الإسلامية أساساً، ومقابلة ما يكتبون بها، والاحتكام إليها مع الأمانة العلمية.

٣ - التحليل الموضوعي القائم على اكتشاف الحقائق بعيداً عن التشويه والتعظيم.

٤ - التزام أخلاقيات البحث النزيه، بعيداً عن البذاءة والتجريح.

٥- المساهمة في تعريف الإسلام بعد تفهمه، دون أن ينصب المستشرق أو العالم الغربي نفسه معلماً للمسلمين^(١).

ويمكننا إضافة جوانب أخرى مهمة هي:

١- أن يكون المستشرق مطلعاً على عادات وتقاليد من يكتب عنهم لأن ذلك يمكنه من معرفة دقائق الأمور.

٢- لئلا يقع الباحث تحت تأثير ورحمة المترجمين الذين قد يتلاعب الهوى بعقولهم في إخفاءهم بعض الحقائق، عليه أن يكون ملماً بلغة القوم الذين يحاول الكتابة في تاريخهم.

٣- أن يدع خلف ظهره كل إسقاطات سابقه، وإن أخذ بها فعليه أن يجعلها نقطة الانطلاق للوصول إلى الحقائق.

يأتي في مقدمة المستشرقين المنصفين، الأسكتلندي توماس كارليل (١٧٩٥م - ١٨٨١م Thomas Carlyle) الذي يُعد كتابه (الأبطال) من أهم مؤلفاته، وقد كتب فصلاً رائعاً عن النبي محمد ﷺ^(٢).

ومن مؤلفاته الأخرى كتاب (الثورة الفرنسية) وكتاب (الماضي والحاضر) وكتب متعددة^(٣). لا يهمننا ذكرها بقدر ما يهمننا كتابه الأول.

قسّم كارليل كتابه (الأبطال) إلى محاضرات ست، وتناول في

(١) مغلي، مناهج البحث في الإسلاميات، ص ٣٩٠، ٣٨٩.

(٢) انظر، مراد، يحيى، معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العلمية، بيروت - ٢٠٠٤ م/ ١٤٢٥هـ، ص ٥٤٨.

(٣) لغرض الوقوف على جانب من حياة كارليل ومؤلفاته، انظر، عقيقي، نجيب، المستشرقون، ج ٢/٤٨١.

محاضراته الثانية التي تحمل عنوان (البطل نبياً) سيرة الرسول محمد ﷺ، وقد تضمنت هذه المحاضرة ردوداً مؤثرة بوجه الغربيين الذين حاولوا تكذيب دعوة الرسول محمد ﷺ، الذين زعموا بأن الطمع وحب الدنيا هو الدافع الحقيقي وراء هذه الدعوة.

فقد قال كارليل بصدد ذلك: «يزعم الكاذبون إنه الطمع وحب الدنيا هو الذي أقام محمداً وأثاره؟ حمق وأيم الله، وسخافة وهوس أي فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب...، كلا إذن فلنضرب صفحاً عن مذاهب الجائرين الفائلين إن محمداً كاذب ونعد مواقفهم عاراً، وسخافة وحمقاً، فلنربأ بنفوسنا عنه ولنرتفع»^(١).

وحاول كارليل التواصل في منهجه المنصف، وكان أكثر وضوحاً عندما أبعد الشبهات التي أثيرت حول الدين الإسلامي والنبى محمد ﷺ بشكل قاطع ودون تردد - بل وصف كل من يصدق هذه الشبهات بالعبارات التالية:

«لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن في هذا العصر أن يصغي إلى القول بأن دين الإسلام كذب، وإن محمداً خداع مزور، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرجل مازالت السراج المنير فترة اثني عشر قرناً لمئات الملايين من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا، أكان أحدكم يظن إن هذه الرسالة التي عاشت بها وماتت عليها هذه الملايين الفائلة الحصر والإحصاء إكذوبة وخدعة؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً فلو إن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منه ذلك التصديق والقبول فما الناس إلا بله ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث وإضلولة كان الأولى بها أن لا تخلق»^(٢).

(١) توماس، الأبطال، ترجمة محمد السباعي، ط ٣ (المطبعة المصرية - ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م)، ص ٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٨.

ووصف الأستاذ الدكتور حسن الحكيم هذا القول بأنه رد جميل على ما زعمه بعض المستشرقين الذين حاولوا الحط من هيبة النبي ﷺ ومكانته والتشكيك في الوحي^(١).

وعلى الرغم من تمتع كارليل بروح الإنصاف إلا أننا نجد بعض الباحثين قد انتقدوه على بعض النصوص التي أوردها في كتابه آنف الذكر^(٢)، لذا من الواجب علينا نحن - الباحثين - الوقوف عند بعض هذه النصوص والتأمل في مقاصدها.

قال كارليل: «إذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الأذان، وإذا خرجت من القلب نفذت إلى القلب، القرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير أن يصل إلى أفئدة سامعيه وقارئيه»^(٣).

لو أمعنا في ظاهر هذا القول نجد أن كارليل قد نسب القرآن الكريم إلى الرسول محمد ﷺ وهذا هو الشيء الذي انتقده عليه الباحثون، أما إذا تعمقنا في باطن القول فنعتقد أن كارليل كان يقصد في كلامه بأن الكلمات التي تلقاها الرسول الكريم ﷺ من ربه ﷻ قد نفذت إلى قلبه وآمن بها، وكلما كان الإنسان مؤمناً بقضية ما عمل كل ما في وسعه من أجل تحقيقها وإيصالها للآخرين، ولا أحد يستطيع إنكار الجهود والأساليب التي استخدمها الرسول ﷺ في نشر الدعوة الإسلامية، ونتيجة لذلك فقد وجدت طريقها إلى قلوب الناس، من جانب آخر نحن نؤمن بأن هناك آيات في القرآن الكريم لو أخذناها على ظاهرها لاحتملت غير معنى، فعلى سبيل المثال قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿يَدُ اللَّهِ

(١) المستشرقون ودراساتهم للسيرة النبوية، مجموعة بحوث أقيمت في المؤتمر العلمي الأول لكلية الفقه، الجامعة المستنصرية، ١٩٨٦، مطبعة القضاء (النجف د. ت)، ص ١٣٩.

(٢) انظر بشير، تطور الاستشراق البريطاني في كتابه السيرة النبوية، ص ٧٤، ٧٥.

(٣) الابطال، ص ٦٨.

فَوْقَ أَيْدِيهِمْ^(١)، فظاهر الآية يشير إلى أن الله سبحانه وتعالى يد، بينما تفسير هذه الآية يدل على غير ذلك^(٢).

في هذا القول لا يرمي الباحث الدفاع عن المستشرق (كارليل) بقدر ما يحاول الوصول إلى الحقيقة التاريخية، لأن كارليل وإن كان يحتمل الجانب السلبي في قوله فهو شأن غيره لا يغير من حقائق الإسلام شيء. ولكن يجب أن يعطى لكل ذي حق حقه.

ولا يمكن أن يقل المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون (Gustave Lebon) شأناً عن كارليل، نظراً للصراحة التي تمتع بها واعترافه بالدور الذي مارسه الرسول محمد ﷺ في بناء الدولة العربية الإسلامية، ويظهر ذلك جلياً من خلال كتابه (حضارة العرب).

وصف لوبون حال الأمم الإغريقية الرومانية والآسيوية وقت ظهور النبي ﷺ، بأنها كانت فاقدة لمثلها العليا منذ زمن طويل، ولم يبقَ لحب الوطن وعبادة الآلهة أثر في نفوس أبنائها، لذلك أصبحوا عاجزين عن مقاومة قوم آخرين مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيل معتقداتهم^(٣). ويقصد لوبون بالقوم الآخرين هم المسلمين.

وأشاد لوبون بالإنجاز الذي حققه النبي محمد ﷺ للشعوب العربية التي وصفها لوبون بأنها «لا عهد لها بالمثل العليا» وعدّ هذا الإنجاز «من الخيالات لا ريب» على حدّ تعبيره، إلى الدرجة التي يعتقد لوبون بأن هذه

(١) سورة الفتح، الآية: ١٠.

(٢) أورد الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية معنيان، الأول إن (يد الله) بمعنى نعمة الله عليهم فوق إحسانهم إلى الله، أما المعنى الثاني فهو أن نصرته الله إياهم أقوى وأعلى من نصرتهم إياه، فيقال اليد لفلان، أي الغلبة والنصرة والقهر. انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٨٧/٢٨.

(٣) انظر، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتير، دار إحياء الكتب العربية، ط ٣ (القاهرة - ١٩٥٦)، ص ١٣٢.

الخيالات أقوى من الحقائق، وأضاف بأن أصحاب النبي محمد ﷺ لم يترددوا في التضحية بأنفسهم في سبيل المثل العليا، طامعين في الجنة التي لا يعادلها شيء من متاع هذه الحياة الدنيا^(١).

ويعزز لوبون نظريته المنصفة بتوضيح الإنجاز العظيم الذي حققه الإسلام والمتمثل بالوحدة التي منحها للشعوب التي خضعت لسلطانه، فمنح تلك الشعوب مصالِحاً وآمالاً مشتركة ووجه جهودها نحو غرض واحد مع أنها كانت ذات مصالح مختلفة قبل ذلك^(٢).

ولا ريب أن ما ذكره غوستاف لوبون من وصف للدين الإسلامي وللرسول الكريم ﷺ يعبر عن إعجابه الشديد بهما، وللتأثير الكبير الذي أحدثه الإسلام في المجتمعات العربية والأمم المجاورة التي ضلت طريقها للوصول إلى معرفة خالق السماوات والأرض. وعلى العكس من الآراء المتحاملة على الإسلام، التي أظهرته بأنه من مؤثرات المسيحية أو اليهودية التي أوضحنا بعضها في المبحث الأول.

أما المستشرقة الألمانية (زيغريد هونكة) فتري بأن رفعة الإسلام يمكن الاستدلال عليها من خلال حث الرسول الكريم ﷺ للناس على طلب العلم، فقالت بصدد ذلك: «لقد أوصى محمد كل مؤمن رجلاً كان أو امرأة بطلب العلم، وجعل من ذلك واجباً دينياً فهو الذي يقول للمؤمنين: (اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد) ويرشد أتباعه دائماً إلى هذا فيخبرهم بأن ثواب التعلم كثواب الصيام وأن ثواب تعليمه كثواب الصلاة»^(٣).

لقد ميزت هونكة بين عالمين مختلفين تمام الاختلاف في قوامهما

(١) انظر، حضارة العرب، ص ١٣٢، ١٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٣.

(٣) انظر، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضوني وكمال دسوقي، (بيروت - ١٩٦٤)، ص ٣٦٩.

الفكري والعلمي وفي رؤيتهما للحياة والكون، هما الإسلام والغرب وبهذا الاختلاف قد اتسعت الهوة بين الحضارة العربية الشامخة والمعرفة السطحية المعاصرة في أوروبا، وأكدت هونكة بأن ما وصلت إليه الكنيسة وكهنتها في المجال الديني لم يكن في الحقيقة عامل إنقاذ لحضارتها، بل كان عائقاً لها، وتعتقد هونكة بأنه كانت أمام الأوروبيين فرصة كالعرب، بل إن فرصتهم كانت أكبر، وتمثل هذه الفرصة بالرجوع إلى التراث الأوروبي القديم وإحيائه وتطويره من أجل صعود سلم الرقي^(١).

ويبدو أن هونكة قد شخصت أحد الأسباب التي أدت إلى انحسار الحضارة الأوروبية أمام الحضارة الإسلامية، ويمكننا أن نضيف سبباً جوهرياً آخر كان غائباً عنها، وهو إن ما يملكه المسلمون لا يملكه الأوروبيون، فالمسلمون يعتنقون الدين الإسلامي ويعدون القرآن دستوراً للحياة عندهم وينظرون إليه على أنه حاوٍ لكل ما يحتاج المسلم معرفته من تنظيم للعلاقة فيما بينهم أو مع الآخرين انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أُمَّتَالِكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾^(٢).

وتتطابق وجهة نظر المستشرق الفرنسي (مكسيم رودنسون) (M.Rodinson) مع ما ذهب إليه هونكة بشأن الإسلام وتأثيره على الحياة، فقد وصفه بالقول:

«إن الإسلام نظام وعقيدة وأسلوب حياة، ونظرة شاملة للكون والإنسان»^(٣).

(١) شمس العرب، ص ٢٧١.

(٢) يورة الانعام، الآية: ٣٨، انظر، تفسير القمي لهذا المقطع من الآية، الذي يوضح فيه بأن الله سبحانه وتعالى لم يترك شيء في الكتاب إلا وضح للإنسان، ثم بعد ذلك إلى الله يرجعون، ج ١/٢٠٦.

Rodinson, Maxime, Mohomet, P. 87.

(٣)

ومن بين المستشرقين الذين أخلصوا للحقائق العلمية والتاريخية إلى الحدّ الذي جعله يعتنق الدين الإسلامي، المستشرق النمساوي (ليوبولد فايس Leopold weiss) المعروف باسم (محمد أسد)، الذي أُعجب بالإسلام ورسوله ﷺ فأنقذه الإسلام بإسلامه، فكتب بتجرد تام، وفي معرض حديثه عن الإسلام، ذكر بأنه كان يتعرض لسؤال يتكرر عليه بعد حين وآخر يتعلق بالأسباب التي دعت إلى اعتناقه الإسلام، وقد لخص إجابته على ذلك السؤال بقوله: «ولا أستطيع اليوم أن أقول أي النواحي قد استهوتني أكثر من غيرها، فإن الإسلام على ما يبدو لي بناء تام الصنعة وكل أجزائه قد صيغت ليتمم بعضها بعضاً فليس هناك شيء لا حاجة إليه وليس هناك نقص في شيء، فنتج من ذلك كله ائتلاف متزنٍ مرصوص. ولعل هذا الشعور من أن جميع ما في الإسلام من تعاليم وفرائض «قد وضعت مواضعها» هو الذي كان له أقوى الأثر في نفسي»^(١).

ويبدو أن انطباع المستشرق (ليوبولد فايس) عن الإسلام ناتج من عدم كونه قد أصبح مسلماً فحسب وإنما يكمن في إيمانه المطلق بالأسباب التي أدّت به إلى الإسلام.

أما المستشرق الإنكليزي (لين بول ستانلي Lane - poole,S) فقد أفاد بوصف دقيق وعادل خص به الرسول ﷺ، ومما قاله: إن محمداً كان يتصف بكثير من الصفات الحميدة كاللطف والشجاعة ومكارم الأخلاق، حتى أن الإنسان لا يستطيع أن يحكم عليه من دون أن يتأثر بما تتركه هذه الصفات في نفسه من أثر، ومن دون أن يكون هذا الحكم صادراً من غير ميل أو هوى، كيف لا وقد احتمل محمد عداء أهله وعشيرته أعواماً، فلم يهن له عزم، ولذا ضعفت له قوة، وبلغ من نبهه إنه لم يكن في حياته البادئ بسحب يده من يد مصافحته، حتى ولو كان

(١) انظر، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين، ط٤ (بيروت

- ١٩٥٥)، ص ١٣.

المصافح طفلاً، وإنه لم يمر بجماعته يوماً، رجالاً كانوا أم أطفالاً، دون أن يقرئهم السلام، وعلى شفثيه ابتسامة حلوة، وفي فيه نغمة جميلة كانت تكفي وحدها لتسحر سامعها، وتجذب القلوب إلى أصحابها جذباً^(١).

إن المتمعن في هذا القول يجد بوضوح مدى تعلق هذا المستشرق المنصف بشخصية الرسول الكريم محمد ﷺ، ولا شك أن هذه النظرة نابعة من إحساس داخلي قد لا نجده إلا عند المسلمين، من جانب آخر في هذا القول تنفيذ لكل الدراسات الاستشراقية التي حاولت المساس بأخلاق الرسول ﷺ والنيل من الرسالة الإسلامية السمحاء.

ولم يكن (لين بول) هو المستشرق الوحيد الذي أشاد بأخلاقيات الرسول محمد ﷺ بل إن هناك العديد من المستشرقين، ونكتفي بذكر ما قاله المستشرق الإنكليزي (بول Ball, J)، فقد رفض اتهامات كتاب التراجم والسير من الأوروبيين الذين تكلموا عن سيرة النبي محمد ﷺ ولم يألوا جهداً في تشويه هذه السيرة، كاتهامهم له بالقسوة^(٢)، وأكد (بول) بأن هذه التهمة غير جديرة بالاعتبار كسائر الاتهامات، لأننا إذا رجعنا إلى التاريخ وحكّمناه في المسألة على حدّ تعبير بول، لتبين لنا أن القسوة لم تكن قط من أخلاق النبي محمد ﷺ، وقد ساق لنا (بول) دليلاً على ذلك، وهو المعاملة الحسنة التي أبداهها الرسول محمد ﷺ للأسرى بعد غزوة بدر (٢هـ) وتسامحه مع أعدائه وصبره على أذاهم وعطفه على الأطفال والمرضى^(٣).

أما المستشرق الأمريكي (أيرفينج) فقد أصدر كتاباً بعنوان (محمد و خلفاؤه) وقسمه إلى تسعة وثلاثين باباً، والأبواب مقسمة إلى فصول، وابتدأ بوصف أحوال العرب وجزيرتهم قبل الإسلام، ثم تطرق إلى ولادة

(١) علي، محمد كرد، الإسلام والحضارة العربية، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، ط ٣ (القاهرة - ١٩٦٨)، ١/٦٦.

(٢) العباسي، محفوظ، الغرب نحو الدرب بأفلام مفكره، (بغداد - ١٩٩٠)، ص ٧٩.

(٣) المصدر نفسه.

الرسول محمد ﷺ وسيرته ونشره للإسلام وحروبه، حتى وفاته ﷺ وقد كان دقيقاً في سرده للأحداث واستخدم طرائق البحث العلمي، بعيداً عن التعصب، مما جعله يسير على خطى المستشرقين المنصفين.

وقد ختم كتابه بكلمات تستحق أن نذكرها في هذا البحث من الأطلوحة جاء فيها:

«وأخيراً نجد أن من الصعب حتى على المنكرين لرسالته ﷺ أن ينكروا عليه صدق شعوره الذاتي فيها، ولا أن ينكروا سمو توجه القرآن الكريم وصدقه وما يتضمنه من حكمه وشموليته كلية بكل زمان ومكان تأسر قارئه، ولا يمكنها أن تكون موجهة لغرض أو أغراض أرضية وأهداف نفعية فقط»^(١).

وينقل لنا أحد الباحثين أقوال مجموعة من المستشرقين بشأن الإسلام والنبي محمد ﷺ ونكتفي بشهادة واحد منهم.

فقد أشار المستشرق الفرنسي (بلاشيه Blachere) إلى أن النبي محمداً ﷺ يُعد من أبرز رجال التاريخ، فقد قام بثلاثة أعمال عظيمة دفعة واحدة وهي: «أنه أحيا شعباً، وأنشأ امبراطورية، وأسس ديناً»^(٢).

ويقول المستشرق الفرنسي (موريس بوكاي)، «إن الأحكام المغلوطة تماماً التي تصدر في الغرب عن الإسلام ناتجة عن الجهل حيناً وعن التسفيه العامد حيناً آخر. ولكن أخطر الأباطيل المنتشرة تلك التي تخص الأمور الفعلية. وإذا كنا نستطيع أن نغفر لأخطاء خاصة بالتقدير فإننا لا نستطيع أن نغفر لتقديم الوقائع بشكل ينافي الحقيقة. بل إننا لنصاب بالذهول عندما نقرأ في أكثر المؤلفات جدية أكاذيب صارخة بالرغم أن مؤلفي هذه المؤلفات هم بالمبدأ مؤلفون أكفاء»^(٣).

(١) ايرفنج، واشنطن، محمد وخلفاؤه، ترجمة الدكتور هاني يحيى، المركز الثقافي العربي، (بيروت، ١٩٩٩)، ص ٤٦٣.

(٢) زكريا، هاشم زكريا، المستشرقون، (مصر - ١٩٦٥)، ص ١٦٥.

(٣) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، دار المعارف، ط ٤ (بيروت - ١٩٧٧م).

الفصل الثاني

مناهج المستشرقين في دراسة

شخصية الإمام علي عليه السلام

مدخل

سلك المستشرقون الذين تناولوا شخصية الإمام علي عليه السلام ودوره في الدفاع عن الإسلام ونشره في مناطق كانت القاعدة لنشر الإسلام إلى ما وصل إليه من بقاع شتى فيما بعد، منهجاً يكاد لا يختلف عنه في دراستهم عن الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم، من حيث اهتمامهم بجوانب عدة تمحورت حول شخصية الإمام علي عليه السلام، ابتداءً من طفولته وإسلامه وزواجه وأخلاقه وشجاعته في المعارك التي اشترك فيها من قبل توليه الخلافة وفي أثنائها، وكذلك ما جرى من أحداث في خلافته والمتمثلة في الحروب ضدّ الناكثين والقاسطين والمارقين والتي سيتم الحديث عنها في الفصل الرابع من الأطروحة بعون الله، يضاف إلى ذلك توضيح المؤامرة التي أدت إلى استشهاده وانتقال روحه الطاهرة إلى بارئها عليه السلام.

الذي يهمننا توضيحه هنا إن الدراسات الاستشراقية التي تناولت هذه الجوانب من شخصية الإمام علي عليه السلام، كانت ضمن كتابات المستشرقين في التاريخ العام للإسلام، والخاص في أحداث السيرة النبوية ولم تنفرد دراسة مختصة في شخص الإمام علي عليه السلام، عند المستشرقين في حدود علم الباحث، لذلك سنحاول في هذا الفصل اجتزاء بعض الجوانب التي ركز عليها المستشرقون في مؤلفاتهم فيما يخص الإمام علي عليه السلام وأثره في أحداث التاريخ الإسلامي وعلاقته بالسيرة النبوية الشريفة من وجهة نظرهم. ونظراً لتعدد جوانب الموضوع فقد رأى الباحث أن يتناوله من خلال خمسة مباحث متفاوتة في مادتها.

«المبحث الأول»

أسبقية الإمام علي عليه السلام في الإسلام

يأتي في مقدمة الجوانب التي ركز المستشرقون عليها في أثناء حديثهم عن الإمام علي عليه السلام، هو أسبقية اعتناقه الإسلام وفيما إذا كان أول أو ثاني أو ثالث من آمن بالدعوة الإسلامية، وقد اختلفوا في هذا الأمر شأنهم شأن بعض مؤرخينا المسلمين، بسبب اعتمادهم في تبيان ذلك على ما ورد في بعض المصادر الإسلامية.

لقد ذكر المستشرق كارليل قولاً يمكن أن نستشف من خلاله بأنه أراد أن يبين بأن الإمام علياً عليه السلام هو أول من آمن بدعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فقال كارليل بصدد ذلك:

«وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة وثب علي (كرم الله وجهه)، وكان غلاماً في السنة السادسة عشرة وكان قد أغاضه سكوت الجماعة فصاح في أحد لهجة إنه ذلك النصير والظهير...»^(١).

وأشار كارليل إلى هذا القول في أثناء حديثه عن دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم عشيرته لدخول الإسلام وضرورة احتضانهم الدين الجديد الذي

(١) انظر، محمد المثل الأعلى، ترجمة محمد السباعي، المكتبة الأهلية، ط ٢ (بيروت . د.

ت)، ص ٣٤.

قدم من خلاله الرسول محمد ﷺ لقومه امتيازات لم يقدمها أحد من قبله، ولكنه لم يلق إجابة سوى من ابن عمه الإمام علي بن أبي طالب ؑ.

وقد أظّر كارليل حديثه بكلمات تتصف بالإعجاب بشخصية الإمام علي ؑ، ولا يقل في قوله هذا عما قاله بحق الرسول محمد ﷺ وقد بينا ذلك في الفصل الأول من الأطروحة، ويبدو أنه سلك المنهج نفسه واستعمل المعايير نفسها في تقييمه للرسول محمد ﷺ والإمام علي ؑ. وأضاف كارليل قائلاً:

«أما عليّ فلا يسعنا إلا أن نحبه ونتعشقه، فإنه فتى شريف القدر، كبير النفس، يفيض وجدانه رحمة وبراً، ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة، وكان أشجع من ليث، لكنها شجاعه ممزوجة بركة ولطف وحنان، جدير بها فرسان الصليب في القرون الوسطى، وقد قُتل في الكوفة غيلة، وإنما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله، حتى حسب كل إنسان عادلاً مثله، وقال قبل موته حينما أومر في قتاله: «إن أعش فالأمر لي، وإن أمت فالأمر لكم، فإن آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة، وإن تعفوا أقرب إلى التقوى»^(١).

ومائل المستشرق الفرنسي (آتين دينيه Etienne Dinet) كارليل واستعمل بمنهج نفسه عند معالجته موضوع أسبقية الإمام علي ؑ في الإسلام وعدّه أول من آمن برسالة النبي محمد ﷺ من الرجال، وكذلك في وصفه لشخصية الإمام علي ؑ، فقد قال (آتين دينيه):

«وكان أول من آمن برسالته من الرجال: (علي بن أبي طالب)، وكان يومئذ ابن عشر سنين»^(٢).

(١) محمد المثل الأعلى، ص ٣٤.

(٢) محمد رسول الله، ترجمة، عبد الحليم محمود، مطبعة دار الكتاب، ط ٣ (مصر - ١٩٥٩)، ص ٩٤.

وأضاف دينيه: «فاندفع واقفاً - ناسياً ما تفرضه عليه التقاليد لصغر سنه بين هؤلاء الأشراف، وصاح وقد ملأه الحماس (أنا يا رسول الله وزيرك)»^(١).

وذكر (دينيه) تفاصيل دعوة الرسول ﷺ قومه لوليمة الطعام التي أعدّها، والعرض الذي قدمه الرسول ﷺ لهم من أجل دخول الدين الإسلامي، ولكنهم تخلفوا عن ذلك ولم يلبوا دعوته باستثناء الإمام علي عليه السلام الذي وصفه (دينيه) بقوله:

«أصبح علي بن أبي طالب بفضل إخلاصه المتناهي وشجاعته التي لا تقاوم وحرصه الشديد على طاهر السجايا، أحد أبطال الإسلام المشاهير، غير إن فقره الشديد ألزمه، أن يعمل أجيراً عند أحد الملاكين من الأنصار، فكان يقضي يومه بين الصلاة وري النخيل، ولم يكن بأعماله المجيدة، أهلاً لتلك الحال المتواضعة، فجدير به أن يحتل مكانة سامية في أعين الناس»^(٢).

أما المستشرق الإنكليزي (روم لاندو R. Landau) فقد ذكر إن النبي محمداً ﷺ عمل على نشر دعوته بين أصدقائه المقربين وأنسابه وذلك بعد نزول الآيات الأولى من القرآن الكريم. وكان فيهم الإمام علي عليه السلام ابن عمه وصهره، فضلاً عن أبي بكر خليفته الأول^(٣).

وقد وصف (لاندو) الإمام علياً عليه السلام بأنه: «أمسى رمز التجسد عند الشيعة، [وهو] أبو الحسين، وأعظم شهيد شيعي»^(٤).

(١) محمد رسول الله، ص ١٠١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٩.

(٣) انظر، الإسلام والعرب، ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، (بيروت - ١٩٦٢)، ص ٣٤.

(٤) الإسلام والعرب، ص ٨٦.

وكان المستشرق الروماني (جورجيو) قد تحدث عن الموضوع نفسه، حيث ذكر بأن السيدة خديجة زوج الرسول محمد ﷺ أول من آمنت بدعوته وتلاها في الإيمان ابن عمه الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، وحاول (جورجيو) إثبات الوقت الذي أسلم فيه الإمام ﷺ هو قبل حادثة الوليمة التي أعدها الرسول محمد ﷺ لأفراد عشيرته وأقربائه حينما دعاهم لاعتناق الإسلام.

وقال بصدد ذلك: «اختلف القسم الأخير من هذه الرواية عما ذكره جمهور علماء المسلمين، لأن علياً أسلم قبل الوليمة بحين من الزمان، وذكرنا بأنه كان ثاني من أسلم»^(١).

وتطرق جورجيو إلى دور المسلمين الأوائل في الدعوة الإسلامية، الذين اقتصرهم على ثلاثة أفراد حتى السنة الثالثة للهجرة، فبالإضافة إلى السيدة خديجة والإمام علي ﷺ، ذكر ثالثاً لهما وهو الصحابي زيد^(٢)، وأوضح أن الإمام علي ﷺ قد أسلم في الوقت الذي لم يوافق أحد على الدخول في الدين الجديد ولم يقبل بدعوة الرسول محمد ﷺ سواه، الذي نهض وقال حسب تعبير (جورجيو):

«انا استجيب لدعوتك، وأؤمن بالله»^(٣).

أما المستشرق الإنكليزي (آرنولد T. W. Arnold) فيذكر أقوالاً

(١) انظر، نظرة جديدة في سيرة رسول الله، ترجمة الدكتور محمد التونجي، الدار العربية للموسوعات، (بيروت - ١٩٨٣)، ص ٧٤، ٧٥

(٢) هو زيد بن حارثة بن شراحيل (أو شرجيل) الكلبي، صحابي، اشترته خديجة بنت خويلد ووهبته للنبي حين تزوجها، فتبناه قبل الإسلام واعتقه ثم زوجه بنت عمته، واستمر الناس يسمونه (زيد بن محمد) حتى أنزلت آية ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ سورة الأحزاب، الآية: ٥، استشهد في غزوة (مؤتة) عام (٥٨هـ)، انظر في ترجمته، الزركلي، الأعلام، ٥٧/٣.

(٣) نظرة جديدة، ص ٧٤ - ٧٥.

متناقضة بشأن ترتيب أوائل الذين أسلموا، فهو ينقل بحق الخليفة أبو بكر قولاً للنبي محمد ﷺ يذكر فيه: «إن كل الذين دعوتهم إلى الإسلام كانوا مترددين ومرتبكين ومهزوزين إلا أبا بكر الذي عندما دعوته إلى الإسلام لم يتأخر ولم يتردد»^(١).

ويبدو أن آرنولد قد أخذ برواية ابن إسحاق التي نقل فيها قولاً عن الرسول محمد ﷺ مفاده: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنه كبوة وتردد ونظر إلا أبا بكر ما عتم حين ذكرته له وما تردد فيه»^(٢).

بينما يذكر في موضع آخر بأن النبي محمداً ﷺ بدأ بدعوة أبناء عشيرته المقربين وعرض عليهم الأمر طالباً منهم الاستجابة، «فصمت الجميع إلا علي الذي صاح بحماس صبياني، يانبي الله أنا سوف أعينك»^(٣).

ولم يعط آرنولد رأياً محدداً بشأن أول من اسلم وهذا ناتج من تأثره بما ورد في بعض مصادرنا الإسلامية ومن بينها ما ذكره ابن إسحاق (ت ١٥١هـ) وابن هشام (ت ٢١٨هـ) والطبري (ت ٣١٠هـ) وغيرهم دون تحليل للنصوص التي اعتمدها.

ووقع المستشرق الإنكليزي (بودلي Bodley, R. V. E.) في التناقض نفسه الذي ميز كتابات (آرنولد) بخصوص موضوع الأسبقية في الإسلام، حيث ذكر بأن الذين يخصهم النبي محمد ﷺ كانوا قليلين على الرغم من كثرة معارفه، ولم يكن له إلا ثلاثة أشخاص بعد زوجته خديجة، وقد وصفهم (بودلي) بأنهم كانوا يختلفون كل الاختلاف في الطباع والسن والماضي، وكان عليّ ؓ وهو ابن أبي طالب وابن عم محمد ﷺ وقد

Arnold. T. W, the preaching of Aslam, London, constable,compong, ltd,1913, P. (١) 13.

(٢) ابن إسحاق، السيرة ص ١٣٩.

Arnold, the preaching of Aslam, P. 13,14. (٣)

تبناه النبي محمد ﷺ ليخفف عن عمه الذي كانت له عائلة كبيرة، وكان علي ﷺ فتى في الرابعة عشرة من عمره ويتدفق حيوية ويتمتع بقوة جسمانية^(١).

ولم يشر (بودلي) إلى الشخصين الآخرين ومن المحتمل أراد بهما خديجة وزيد بن حارثة.

وأضاف (بودلي) في موضوع آخر من كتابه (الرسول حياة محمد)، بأن محمداً ﷺ كان في أول الأمر يفضل إعلان الدعوة وعدم الإفصاح عما جرى له في غار حراء ولم يقص النبأ إلا على علي ﷺ وزوجته خديجة ﷺ وابن عمها ورقة بن نوفل وزيد بن حارثة، وأنه ما قص ذلك على زيد ولكن وجوده بين أبويه في الدار جعله يسمع ما يدور بينهما. أما الإمام علي ﷺ فقد عرف الأمر مصادفة، فقد دخل يوماً فوجد النبي محمداً ﷺ وخديجة ﷺ يصليان صلاتهما الجديدة، وعلى الرغم من أن علياً ﷺ شبَّ على الوثنية الهاشمية على حدِّ تعبير (بودلي) فإنه لم يتوان في دخول دين ابن عمه^(٢).

وتطرق (بودلي) إلى الحادثة التاريخية التي وضحت استجابة الإمام علي ﷺ لنداء النبي محمد ﷺ حينما دعا قومه لدخول الإسلام، وإشارة النبي محمد ﷺ بأن علياً ﷺ سيكون وصياً له^(٣).

وأدلى المستشرق الأمريكي (أرفنج W. Irving) بدلوه فيما يتعلق بموضوع الأسبقية في الإسلام، وقد أورد لنا دعوة النبي محمد ﷺ لقومه وحديثه ﷺ لهم: «قد جئكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه، فأيكم يجيبني إلى هذا الأمر ويؤازرنني عليه، فيكون وصيي

(١) بودلي، الرسول حياة محمد، ص ٦٧

(٢) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٦

ووزير ي ويكون أخي؟» ويذكر (أرفنج): «ظل بعضهم صامتاً... وأخيراً قطع علي هذا الصمت وصاح مدفوعاً بحماسة الشباب، متناسياً صغر سنه وقلة خبرته حيث قال: «أنا يارسول الله وزيرك»، حينئذٍ احتضن النبي محمد ﷺ الإمام علي بن أبي طالب ﷺ وضمه إلى صدره وقال: «ها هو ذا وصيي ووزير ي، ها هو ذا أخي»^(١).

وأشار (أرفنج) إلى أن هناك روايات كثيرة تدور حول الموقف البطولي للإمام علي ﷺ حينما بات في فراش النبي محمد ﷺ عند خروجه من مكة إلى المدينة^(٢).

ويمكن تقييم المنهج الذي اتبعه (أرفنج) في عرضه للأحداث التاريخية الخاصة بالإمام علي ﷺ، بأنه استخدم بعض المصطلحات التي حاول من خلالها توضيح الدور المميز الذي مارسه الإمام علي ﷺ في نصرته النبي محمد ﷺ من أجل تثبيت أركان الدين الإسلامي، مثل «الشاب الكريم» و«المؤمن الصالح» و«المخلص». وهذا مما يجعلنا نميل إلى أن المستشرق (أرفنج) كان أكثر موضوعية من غيره.

أما المستشركة البولونية (يوجينا غيانه) فقد قالت عن الإمام علي ﷺ: بأنه رابع الخلفاء الراشدين وهو أول من أسلم من الصبيان، وكان أول قاضٍ ولاء رسول الله ﷺ القضاء في اليمن، وقد تربى في بيت النبوة وانتشرت أحكامه وفتاواه، ونقلت هذه المستشركة قول الخليفة عمر بن الخطاب «لولا علي لهلك عمر»، لأن عمر كان يستشير الإمام علي ﷺ في الأمور المهمة والمستعصية^(٣).

(١) محمد وخلفاؤه، ص ٦٥، لغرض الاطلاع على تفاصيل هذه الأحداث، انظر، الطبري، تاريخ، ٣٢١/٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٧.

(٣) شتيفسكا، تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، منشورات المكتب التجاري للطباعة، (بيروت ١٩٦٦)، ص ٥٦.

ولكن المستشركة (يوجينا غيانة) انتقدت بعض غلاة الشيعة بقولها :

«لكن بعض غلاة الشيعة أخذوا كثيراً من علمه بالكذب عليه وأرادوا أن ينفعوا فضروا»^(١). دون أن تعطي نماذج معينة من الروايات التي حاول المغالون فيها المبالغة في إبرار فضائل الإمام علي عليه السلام. وفي الواقع إن الغلو قد وقع في كثير من الصحابة. وإن ما خصت المستشركة الشيعة به يعد باطلاً طالما هناك الكثير من التماثل في الصحابة الآخرين.

وتناول المستشرق الألماني (جرهارد كونسلمان) جوانب من شخصية الإمام علي عليه السلام باقتضاب بدءاً من طفولته وتربيته في بيت النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ودوره في مساندته وصولاً إلى خلافته وحروبه التي خاضها ضدّ الخارجين عن سلطته.

وبدأ (كونسلمان) حديثه عن الإمام علي عليه السلام بذكر حادثة مبينه في فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال في هذا الصدد: «فكان علي قد رقد في سرير النبي وكله ثقة بكلام الرسول، ولقد نام ليلة آمنة بعد وعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم له بأنه لم يمسه سوء»^(٢).

وأراد (كونسلمان) بعد ذلك التعرّيج على طفولة الإمام علي عليه السلام بالقول: «وأما علي فقد تعلم أن يثق بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم. فلقد أقام في بيت محمد صلى الله عليه وآله وسلم منذ كان طفلاً. وقد كان أبوه «أبو طالب» من الفرع الفقير بقبيلة قريش، ولذا أصابته هو وأهله الفاقة على نحو خاص عندما حلت أزمة اقتصادية بتجار مكة... وكما روي فقد حصل محمد صلى الله عليه وآله وسلم على إذن أبي طالب بضم علي إليه، وقد حدث هذا في وقت لم يكن محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد

(١) تاريخ الدول الإسلامية، ص ٥٦.

(٢) كونسلمان، جرهارد، سطوع نجم الشيعة، ترجمة محمد أبو رحمة، مكتبة مدبولي، ط ٣ (القاهرة . ٢٠٠٤م)، ص ٦؛ انظر الطبري، تأريخ، ٣٧٢/٢، ٣٧٤ لمعرفة تفاصيل هذه الرواية.

سبب ضيقاً لأهله بعد، بمحاولة تحويلهم عن آلهتهم ودعوتهم لعبادة الله. في هذا الوقت كان لا يزال وحيداً في إيمانه بالله الواحد القهار»^(١).

وحاول (كونسلمان) أن يجعل من ضم الإمام علي عليه السلام لبیت النبوة لغرض في نفس النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو كسب ود عمّه أبو طالب وأبناء عمومته من أجل دخول الدين الجديد، وفكرة (كونسلمان) هذه غير موفقة، لأن انضمام الإمام علي عليه السلام إلى بيت النبوة قد حدث في وقت لم ينزل الوحي على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بعد، وكما ورد ذلك في بعض مصادرنا التاريخية.

فقد أشار ابن إسحاق (ت ١٥١هـ) إلى ذلك بقوله: «وكان مما أنعم الله به على علي إنه كان في حجر الرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام»^(٢).

وذكر كل من ابن هشام (ت ٢١٨هـ) والطبري (ت ٣١٠هـ) الرواية نفسها مما يعني أنهما قد اقتبسها من ابن إسحاق^(٣).

وخاض (كونسلمان) نقاشاً بالاعتماد على مصدر مهم من مصادر السيرة النبوية، ألا وهو كتاب سيرة ابن إسحاق، لمعرفة تسلسل الإمام علي في الإسلام، فذكر في بداية حديثه بأن الإمام علي عليه السلام كان أول إنسان آمن بالإسلام بعد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أما كيف حدث ذلك، فنقل لنا (كونسلمان) حديث ابن إسحاق الذي يقول فيه: «ذكر أحد العلماء، أنه عندما كان يحين وقت الصلاة، كان محمد صلى الله عليه وسلم يخرج إلى شعاب مكة وكان علي يصحبه دون علم بقية أفراد الأسرة. فكانا يؤديان هناك صلاتهما، ويعودان مع حلول الليل إلى البيت»^(٤).

(١) سطوع، ص ٦؛ انظر الطبري، تأريخ، ٣١٣/٣١٢/٢، لمطابقة روايته مع ما ذكره كونسلمان.

(٢) السيرة، ص ١٣٧.

(٣) انظر، ابن هشام، السيرة، ٤٢٥/١، ٤٢٦، الطبري، تأريخ، ٣١٢/٢، ٣١٣.

(٤) انظر، سطوع نجم الشيعة، ص ٦، ٧.

وذكر (كونسلمان) في موضوع آخر بان خديجة رضي الله عنها زوجة النبي محمد ﷺ قد سبقت الإمام علي عليه السلام في الإيمان بالله ^(١).

وإن صحت هذه الرواية فهذا أمر طبيعي أن يكون النبي ﷺ قد كشف سر دعوته لزوجته أولاً ومن ثم أقرب الناس إليه في داره، وابن عمه الإمام علي عليه السلام.

وأورد (كونسلمان) قولاً بالمعنى وليس بالنص للإمام علي عليه السلام مفاده أنه عليه السلام قال :

«عندما كنت صبياً كان الرسول ﷺ يضعني في حجره ويضمني إلى صدره وأحياناً كان يمزغ الطعام ويطعمني إياه، وكنت أتبعه كما تتبع الفرس أمها. وكان كل يوم يعلمني شعيرة يجب على المسلم اتباعها، ويأمرني بالالتزام بها، ولم تكن حينذاك عائلة قد آمنت بالإسلام، فقد كان رسول الله ﷺ وزوجته خديجة المؤمنتين الوحيدتين، وكنت أنا ثالثهم. ولقد رأيت نور الوحي وتبليغ النبي ﷺ بالرسالة، وقد سمعت أيضاً ولولة الشيطان أثناء نزول الوحي على محمد ﷺ فسألته يا رسول الله ما هذا الصراخ، فكان يجيب إنه الشيطان الذي يئس من أتباعه، وأنت تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست رسولاً» ^(٢).

وبهذا الكلام الذي اقتبسه (كونسلمان) من قول الإمام علي عليه السلام، يكون بذلك قد أيقن أن الإمام علياً عليه السلام هو ثان من أسلم بعد خديجة رضي الله عنها زوجة النبي محمد ﷺ، ويؤكد بأنهما كانا يمثلان نواة الإسلام في مكة ^(٣).

وبعد أن عرضنا لآراء بعض المستشرقين في مسألة أسبقية الإمام

(١) انظر، سطوع نجم الشيعة، ص ٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨، ٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨.

علي عليه السلام في الإسلام نذكر هنا آراء المؤرخين القدامى والمحدثين في هذه المسألة باقتضاب وذلك لغرض الموازنة بين الفريقين، نجد الترمذي في سننه وبسنده عن أبي حمزة وهو رجل من الأنصار، إنه قال: «سمعت زيد بن أرقم (ت ٦٨هـ/٦٨٧م) ^(١) يقول:

«أول من أسلم علي» ^(٢).

وذكر النيسابوري في مستدركه بسنده عن سلمان ^(٣) (توفي في خلافة عثمان)، قال:

«قال رسول الله ﷺ: «أولكم وارداً عليّ الحوض أولكم إسلاماً علي بن أبي طالب» ^(٤).

وذكر في مصادر أخرى بأن الدعوة الإسلامية بدأت سراً، وكان أول من آمن بها هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام من الرجال وشهد نبوة محمد ﷺ، ثم تبعه آخرون، وبعد ثلاث سنين نزلت الآية الكريمة: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ^(٥).

(١) زيد بن أرقم: هو أحد أبناء الحارث، من الخزرج، يكنى أبا سعد، وأول غزوة شهدها مع رسول الله هي المريسع، نزل الكوفة وبنى فيها داراً، وتوفي فيها عام ثمان وستين، انظر، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٩٦/٦؛ العسقلاني، الحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر (ت ٨٥٢هـ)، تهذيب التهذيب، تحقيق، صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت - ١٤١٥/١٩٩٥م، ٣/٢١٤.

(٢) أبو عيسى محمد بن عيسى (ت ٢٩٧هـ)، سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، دار إحياء التراث العربي، (بيروت - ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص ٩٨٢.

(٣) سلمان الفارسي، يكنى أبا عبد الله، أسلم عند قدوم النبي المدينة وكان قبل ذلك يقرأ الكتب ويطلب الدين كان عبداً لقوم من بني قريظة فكاتبهم، فأعتقه رسول الله محمد وأسلم وكانت أول مشاهدة له غزوة الخندق، وكان ينزل الكوفة وتوفي في المدائن في خلافة عثمان، انظر في ترجمة، ابن سعد، الطبقات، ٦/٩٥.

(٤) المستدرک، ص ٣٤٦، حديث ٤٧٢٠، الهيثمي، الحافظ علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق عبد الله محمد الدروشي، (بيروت - ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ٩/١٢٤.

(٥) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

فأمر النبي ﷺ علياً ﷺ بإعداد مأدبة طعام خاصة، ليجتمع آل عبد المطلب فيبلغهم النبي ﷺ برسالته، وفي اليوم الأول تعذر عليه ذلك بسبب ضجيج أبي لهب ولغظه، ثم عاد عليهم ذلك في اليوم التالي، وبعد فراغهم من الطعام، بدأ كلامه بحمد الله تعالى وانتهى منه ولم ينهض أحد لتلبية نداءه والإيمان برسالته السماوية إلى علي بن أبي طالب، حيث قام وصرح بذلك، فأجلسه رسول الله ﷺ، وتكرر هذا الموقف في المرة الثانية والثالثة، فقال الرسول ﷺ للإمام علي ﷺ: «اجلس فأنت أخي ووصيي وخليفتي من بعدي»^(١).

وذكر ابن الأثير (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) هذه الحادثة التاريخية وتضمنت نهاية حديثه قول الرسول الكريم ﷺ للإمام علي ﷺ:

«إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له واطيعوا، فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب، قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع»^(٢).

وأشار بعض المؤرخين والباحثين إلى أن الإمام علياً ﷺ لم يشرك بالله مطلقاً، وكان من بين هؤلاء المؤرخين، المقريري (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، الذي أرجع السبب في ذلك هو رعاية الله سبحانه وتعالى للإمام علي ﷺ بأن جعله في كفالة ابن عمه الرسول محمد ﷺ منذ

(١) نقل هذه الحادثة بطرق مختلفة كل من: ابن حنبل، أحمد (ت ٢٤١هـ)، المسند، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٤١٣/١٩٩٣)، ١/١٣٨، الطبري، تاريخ، ٢/٣٢١، الكنجي، أبو عبد الله محمد بن يوسف (قتل ٦٥٨هـ) كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب، ط ٣ (بيروت - ١٤٠٣هـ)، ص ٢٠٥ - ٢٠٧، باب ٥١؛ الحلبي، علي بن برهان (ت ٩٧٥هـ)، السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمأمون، دار المعرفة، (بيروت - ١٤٠٠/١٩٨٠م)، ١/٤٦٠، ٤٦١، البلخي، سليمان بن إبراهيم الحسيني القندوزي (ت ١٢٧٠هـ)، ينابيع المودة، تحقيق علاء الدين الأعلمي، (بيروت - ١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ص ١٣٢، باب ٣١.

(٢) عز الدين (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، ط ٤ (بيروت ١٤٢٤/٢٠٠٣م)، ٢/٥٨٦.

الطفولة، وعندما جاء الإسلام فلم يحتج أن يُدعى، لأنه لم يكن مشركاً حتى يوحد^(١).

وقال العقاد: «وكاد عليّ أن يولد مسلماً، بل لقد ولد مسلماً على التحقيق إذا نظرنا إلى ميلاد العقيدة والروح، لأنه فتح عينيه على الإسلام، ولم يعرف قطّ عبادة الأصنام، فهو قد تربى في البيت الذي خرجت منه الدعوة الإسلامية، وعرف العبادة من صلاة النبي^(٢)».

وذكر الخطيب أن الإمام علياً عليه السلام قد ولد مسلماً على الفطرة، إذ أنه تربى منذ طفولته في بيت النبوة التي عصمت كل من كان في هذا البيت من شرك الجاهلية وضلالتها^(٣).

وبمهنية المؤرخ يدلو (جورج جرداق) المسيحي بدلوه ليشير إلى أن الإمام علياً عليه السلام قد وُلد مسلماً، لأنه من معدن الرسول محمد صلى الله عليه وآله مولداً ونشأة، ومن ذاته خُلِقاً وفطرة، ثم إن الظرف الذي أعلن فيه عما يكمن في كيانه من روح الإسلام ومن حقيقته، لم يكن شيئاً من ظروف الآخرين. ولم يرتبط بموجبات العمر، لأن إسلام علي كان أعمق من ضرورة الارتباط بالظروف إذ كان جارياً من روحه كما تجري الأشياء من معادنها والمياه من منابعها^(٤).

(١) انظر، المقريزي، تقي الدين بن علي (ت ٨٤٥هـ)، إمتاع الأسماع بما للنبي من الأموال والأحوال والحفدة والمتاع، تحقيق محمد عبد الحسين النميسي، دار الكتب العلمية (بيروت - ١٤٢٠/١٩٩٩م)، ٣٣/١، ٣٤، الأمين، عبد الحسين أحمد، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، مؤسسة الأعلمي، (بيروت - ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ٣/٢٩٥؛ وأورد الأمني مائة حديث أثبت فيه أن الإمام علي أول من أسلم، انظر، الغدير، ٢/ ٢٧٣ - ٢٩٢.

(٢) عباس محمود، عبقرية الإمام علي، (بيروت - د. ت)، ص ٣٩.

(٣) انظر، عبد الكريم، علي بن أبي طالب بقية النبوة وخاتم الخلافة، (بيروت - د. ت)، ص ١٠٠.

(٤) انظر، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، (البحرين - ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م)، ص ٦٠ - ٦١.

المبحث الثاني

زواج الإمام علي عليه السلام

من الجوانب الأخرى التي اهتم بها بعض المستشرقين اهتماماً جانبياً هو موضوع زواج الإمام علي عليه السلام من السيدة فاطمة عليها السلام بنت النبي محمد صلى الله عليه وآله، وكان المستشرق الفرنسي (أميل درمنغهم) من بين أولئك المستشرقين، فقد ذكر بأن قبول السيدة فاطمة عليها السلام بالزواج من الإمام علي عليه السلام كان نتيجة لحياتها من والدها صلى الله عليه وآله ولم يكن لقناعتها بالموضوع، وأضاف بأن السيدة فاطمة عليها السلام كانت تعدُّ علياً: «فقيراً رميمًا محدود الذهن مع عظيم شجاعة وما كان علي أكثر رغبة فيها من رغبتها فيه مع ذلك»^(١).

وتطرق (درمنغهم) إلى وصف وقائع الزواج ومستلزمات الإعداد له، وذكر إن الإمام علياً عليه السلام جمع ثلاثة أرباع تكاليف الزواج من بيع بعض مذكراته، وإن جهاز فاطمة عليها السلام يقدر (٤٠٠) درهم، وكان صداقها درع الإمام علي عليه السلام الذي غنمه في معركة بدر الكبرى.

وزعم (درمنغهم) بأن الحياة الزوجية للإمام علي عليه السلام مع السيدة فاطمة عليها السلام كانت حياة بؤس منذ اليوم الأول وكانا من الفقر ما خلا معه منزلهما من الفراش واستمرا على هذا الحال إلى أن نالا بعض الثراء من

(١) انظر، حياة محمد، ص ٢٢٧.

الغنائم التي أصابها المسلمون في انتصاراتهم الكبرى^(١).

وتابع (درمنغهم) الوصف بأن أمور منزل الزوجين ﷺ المتعبة قد أنهكت السيدة فاطمة ؑ مما دفعها أن تسأل أباهما ﷺ يوماً أن يهديها رقيقاً ليعاونها في أمور البيت، فأشار ﷺ عليها بأن تتلوا عند منامها دعاءً خاصاً، في الوقت الذي كان فيه علي بن أبي طالب ؑ يعمل في سقي النخيل لأحد اليهود مقابل حفنة تمر، فإذا ما عاد قال لزوجته «عابساً: كلي واطعمي الأولاد»^(٢).

وبعد كل مشكلة كانت تحدث بينهما ﷺ يذهب لينام في المسجد بدلاً من أن يواجه مصاعبه، وكان النبي ﷺ يعظه ويحاول أن يوفق بينه وبين فاطمة إلى حين، وحدث ذات يوم، والحديث لـ (درمنغهم)، إن رأى النبي محمد ﷺ ابنته فاطمة ؑ في بيته وهي تبكي بسبب ضرب الإمام علي ؑ لها^(٣).

ويعرّج (درمنغهم) على ذكر العلاقة التي كانت بين النبي محمد ﷺ والإمام علي ؑ، بالقول: «لكن محمداً مع امتداحه قدّم علي في الإسلام إرضاءً لابنته، كان قليل الالتفات إليه، لما كان من مداراة صهرية الأمويين عثمان المختار وأبي العاص له أكثر من علي، وكان علي يتألم من عدم عمل النبي على سعادة ابنته ومن عد النبي إياه قاصراً، فالنبي وإن كان يفوض إليه ضرب الرقاب كان يتجنب تسليم قيادة له ولما أراد علي أن يتزوج على ضرّ غضب النبي واحتج على ذلك جهراً فوق المنبر، وقد حقد علي على حميه لأنه لم يأذن له في الزواج بأخرى كما صنع مع صهرية الآخرين»^(٤).

(١) انظر، حياة محمد، ص ٢٢٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٠.

إن ما ذكره (درمنغهم) فيما يتعلق بالعلاقة بين الرسول محمد ﷺ والإمام علي عليه السلام من جانب، والعلاقة الزوجية للإمام علي عليه السلام مع فاطمة عليها السلام من جانب آخر، كان بعيداً عن الحقائق التاريخية، فلو تابعنا بعض الأحاديث النبوية التي خصت هذا الشأن تبين لنا خلاف ما ذكره أو اعتقد به المستشرق (درمنغهم).

فقد ورد عن ابن عباس عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال بحق الإمام علي عليه السلام: «من أراد أن ينظر إلى إبراهيم في حلمه، وإلى نوح في حكمه، وإلى يوسف في جماله، فلينظر إلى علي بن أبي طالب»^(١).

وعن أبي ذر^(٢) (ت ٣٢ هـ)، قال:

أخذ رسول الله ﷺ بيد علي بن أبي طالب وقال: «هذا أول من آمن بي، وأول من يصفحني يوم القيامة، وهذا الصديق الأكبر، وهذا فاروق هذه الأمة، وهذا يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الظالمين»^(٣).

ويمكن الاستدلال على عدم دقة كلام المستشرق (درمنغهم) المزعوم بخصوص تجنب النبي محمد ﷺ تسليم الإمام علي عليه السلام أية قيادة سوى تفويضه ضرب الرقاب، من خلال ما ورد في بعض مصادرنا التاريخية بشأن معركة خيبر، حيث تمنى عمر بن الخطاب أن يكون قائداً

(١) الطبري، محب الدين (ت ٦٩٤ هـ)، الرياض النضرة في مناقب العشرة المبشرين بالجنة، (القاهرة - ١٣٧٢ هـ/١٩٥٣ م)، ٢/٢٩٠.

(٢) أبو ذر الغفاري، هو جندب بن جنادة، خامس من أسلم وأول من حيّا رسول الله بتحية الإسلام، هاجر بعد وفاة النبي إلى الشام ثم عاد إلى المدينة بعد وفاة الخليفة عمر الخطاب، وكان يدعو إلى مشاركة الفقراء للأغنياء في أموالهم، فنفاه الخليفة عثمان إلى الربرة وهي قرية تابعة للمدينة، في الصحراء، وسكنها إلى أن مات فيها، انظر، الزكلي، الأعلام، ١٤٠/٢٢.

(٣) الطبراني، أبو قاسم سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠ هـ)، المعجم الكبير، تحقيق، حمدي عبد المجيد، ط ٢ (الموصل - ١٤١٠ هـ/١٩٩٠ م)، ٦/٢٢٩.

للمقاتلين، وذلك حينما قال الرسول محمد ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، ليس بفرار، يفتح الله على يديه»، فتمنى كل واحد من الصحابة أن يعطيه الرسول محمد ﷺ الراية، وقال عمر بن الخطاب، في وقت لاحق، ما تمنيت الإمارة إلا تلك الليلة^(١).

وفي صباح اليوم التالي دعا النبي ﷺ بأصغر أصحابه وهو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان أرمم العينين، آنذاك، فبصق النبي ﷺ فيهما فبرأتا بإذن الله، ثم ناوله الراية ففتح الله عليه^(٢)، ويذكر أن الإمام علياً رضي الله عنه قد شهد كل غزوات الرسول محمد ﷺ، وكان الفتح على يديه عدا غزوة تبوك (٩هـ/٦٣٠م)، علماً أن هذه الغزوة كانت مدنية ولم يستعمل الرسول محمد ﷺ فيها السيف.

وفيما يتعلق بزواج الإمام علي رضي الله عنه من السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ورداً على ما ذكره (درمنغهم) نذكر ما رواه الكنجي (قتل ٦٥٨هـ) عن أنس بن مالك (ت ٩٣هـ) قوله:

قال: يا أنس تدري ما جاءني به جبرائيل من صاحب العرش؟ قلت: الله ورسوله أعلم بأبي وأمي ما جاء به جبرائيل، قال: «إن الله أمرني أن أزوج فاطمة علياً انطلق فادع لي المهاجرين والأنصار»، قال فدعوتهم فلما أخذوا مقاعدهم قال النبي محمد ﷺ: «الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته المطاع بسلطانه المرغوب إليه فيما عنده، المرهوب

(١) انظر، الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ)، المغازي، تحقيق مارسدن جونسن، ط ٢ (قم - ١٤١٨هـ)، ٦٥٣/٢.

(٢) انظر، الواقدي، المغازي، ٦٥٤/٢؛ أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط ٣ (بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ٦٢/١، ٦٣؛ الغفار، عبد الرسول (الدكتور)، الخبر اليقين في السيرة أمير المؤمنين، (النجف - ١٤١٧هـ)، ص ٩ - ١٠.

عذابه...، ثم إن الله تعالى جعل المصاهرة نسباً وصهرًا، فأمر الله يجري إلى قضائه، وقضاؤه يجري إلى قدرة، فلكل قدر أجل ولكل أجل كتاب ﴿يَمْخُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١)، ثم إن الله أمرني أن أزوج فاطمة لعلي، فاشهدكم إنني قد زوجته على أربعمئة مثقال فضة إن رضى بذلك علي^(٢).

وكان الإمام علي عليه السلام غائباً قد سبقه رسول الله ﷺ في حاجته، ويشير الكنجي إلى أن السيدة فاطمة عليها السلام كانت تفخر على النساء لأن أول من خطب عليها جبرائيل عليه السلام^(٣).

وما ذكره المستشرق (درمنغهم) من وصف للعلاقة الزوجية بين الإمام علي والسيدة فاطمة الزهراء عليهما السلام، لم يكن صحيحاً، فعند الرجوع لمصادر التاريخ الإسلامي وبعض المراجع نجد في إحداها ما يؤيد قولنا. فقد ورد قول للإمام علي عليه السلام بين فيه أن الرسول الكريم ﷺ وبعد أن زوجه فاطمة عليها السلام، قال لها: «يابنية إن الله ﷻ اطلع إلى الأرض اطلعاه فاختر من أهلها رجلين: فجعل أحدهما أباك والآخر بعلك، يابنية، نعم الزوج زوجك لا تعص له أمراً».

وقال الإمام علي عليه السلام: ثم صاح بي رسول الله ﷺ: «يا علي»، فقلت: لبيك يا رسول الله، قال: «ادخل بيتك، والطف بزوجتك، وارفق بها فإن فاطمة بضعة مني، يؤلمني ما يؤلمها ويسرني ما يسرها، أستودعكما الله واستخلفه عليكما»^(٤).

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

(٢) كفاية الطالب، ص ٢٩٨ - ٣٠١، باب ٧٨، ٨٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المجلسي، محمد باقر (ت ١١١١هـ)، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، ط ٢ (بيروت - ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ٤٣/١٣٣، ١٣٤.

ثم أضاف الإمام علي عليه السلام بعد ذلك قائلاً:

«فوالله ما أغضبته ولا أكرهتها على أمر حتى قبضها الله عز وجل ولا أغضبته ولا عصت لي أمراً ولقد كنت أنظر إليها فتتكشف عني الهموم والأحزان»^(١).

ومن الشبهات التي أثارها المستشرق (درمنغهم) حول العلاقة الزوجية بين الإمام علي والسيدة فاطمة الزهراء عليهما السلام، هو محاولة الإمام علي عليه السلام المزعومة في الزواج من جويرية بنت أبي جهل^(٢)، وجاءت هذه القصة طبقاً لرواية مُسَوَّر بن مخرمة^(٣).

وقد أثبت أحد الباحثين بالأدلة المقنعة بأن هذه الرواية موضوعة^(٤)، تضاف إلى جملة روايات أخرى لوّثت بعض مروياتنا الإسلامية، الهدف منها تشويه سيرة الإمام علي والسيدة فاطمة الزهراء عليهما السلام.

ويضيف هذا الباحث القول بأنه من الطبيعي جداً أن يحصل شيء ما يكدر صفو ما بين أعز الأصدقاء أو بين أي زوجين، ولكن لا يمكن تصور ذلك من وجهة نظر العقيدة الشيعية بحق الإمام علي والسيدة فاطمة عليهما السلام، إذ إن لهما مقام العصمة ومنزلتها، وما ينسب لهما من

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ١٣٤/٤٣.

(٢) للاطلاع على هذه الرواية انظر، البخاري، الصحيح، ١٣٦٤/٣ حديث ٣٥٢٣.

(٣) ابن نوفل القرشي الزهري، روى عن الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة، اشترك مع ابن الزبير في الثورة ضدّ الأمويين، فأصابه حجر من حجارة المنجنيق في حصار مكة عام (٦٦٤هـ)، مات على أثره، انظر في ترجمة، العسقلاني، ابن حجر أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتاب العربي، (بيروت - د. ت)، ٣/٣١٩، ٤٠٠، الزركلي، الأعلام ٧٥/٢٢٥.

(٤) مشهدي، جعفر، حياة السيدة فاطمة الزهراء، ترجمة رياض الأخرس، (بيروت - ١٤٢٢/

٢٠٠٢)، ص ١١٠ - ١١٢.

اختلاف يستدعي تدخل النبي محمد ﷺ بينهما لا يتناغم ولا يتفق مع تلك المنزلة والمقام^(١).

وأشار باحث آخر إلى أن ما ذكر من إقدام علي عليه بأن يخطب بنت أبي جهل، عدو الله المعلن بكفره، وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنه حديث مفتعل وموضوع، أرادوا بذلك الحط من منزلة رسول الله ﷺ^(٢).

اما المستشرق الأمريكي (أرفنج) فقد تطرق إلى زواج الإمام علي عليه السلام من السيدة فاطمة عليها السلام بالقول:

«تم زواج فاطمة، البنت الصغرى للرسول، من المؤمن الصالح علي بن أبي طالب وكانت فاطمة في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها، على جانب كبير من الجمال، ويذكر المؤرخون العرب أنها واحدة من أربع نساء باركهن الله. (آسيا زوجة فرعون التي أنقذت موسى ومريم أم عيسى، وخديجة زوجة محمد، وفاطمة ابنة محمد)^(٣).

وواصل (أرفنج) وصف مراسيم الزواج، فذكر بأن السماء والأرض قد شاركتا في الاحتفال بهاتين الزيجتين المباركتين، وازدانت المدينة بالأنوار ومظاهر الابتهاج، وفي ليلة الزفاف صحب النبي محمد ﷺ ابنته إلى بيت زوجها، وأرسلت السماء ملائكة للمشاركة في الاحتفال، فوقف جبرائيل عليه السلام عن يمينها وميخائيل عليه السلام عن شمالها، وتابع (أرفنج) التفصيل في نوع الطعام الذي قدم للمدعوين وفراش الزوجين وغيرها من الأمور، وختم كلامه بوصف هذا الزواج بأنه كان يتفق مع بساطة البيت العربي^(٤).

(١) انظر، مشهدي، حياة السيدة فاطمة، ص ١٠٨.

(٢) معاش، كمال (الشيخ)، فاطمة بين النبوة والإمامة، (بيروت - ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص ١٢٠.

(٣) محمد وخلفاؤه، ص ١٣٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٤.

وحاول مستشرق آخر أن يجعل من شجاعة الإمام علي عليه السلام وإيمانه وتفانيه في الدفاع عن الرسول محمد صلى الله عليه وآله السبب في موافقته على زواج الإمام علي عليه السلام من ابنته فاطمة عليها السلام التي عدها هذا المستشرق بأنها واحدة من أربعة نساء في العالم لا يباريهن أحد بالتقوى وهن امرأة فرعون ومريم العذراء وخديجة الكبرى وفاطمة الزهراء عليهن السلام ^(١).

وركز المستشرق الإنكليزي (شترن Stern) على مهر السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام وذكر في بداية حديثه بأنه ليس من السهل الوصول إلى رأي مقنع حول المهر الذي دفعه علي عليه السلام لفاطمة عليها السلام على الرغم من وجود أحاديث أشارت إلى هذا الموضوع، لكن هذه الأحاديث ذات اختلافات كثيرة بسبب التحيزات السياسية والدينية لأولئك الذين نقلوا تلك الأحاديث، ويذكر أحد الأحاديث إنَّ علياً عليه السلام باع جملاً بمبلغ (٤٨٠) درهماً واستغل هذا المبلغ كمهر لفاطمة، وقام باتباع تعليمات النبي محمد صلى الله عليه وآله في صرف المبلغ، حيث أنفق ثلثي المبلغ لشراء عطور والثلث الباقي لشراء التجهيزات المنزلية أو الملابس، وأورد شترن رواية أخرى عن عكرمة بن أبي جهل ^(٢) حدد فيها المهر بـ (٤) دراهم وهو ثمن درع

(١) بون، جان ديون، الاعتذار محمد والقرآن، ترجمة عباس الخليلي، مطبعة الإقبال، ١٣٧٥هـ، ص ٤٢.

(٢) عكرمة بن أبي جهل (ت ١٣هـ)، هو أبو عثمان عكرمة بن أبي جهل عمرو بن هشام القرشي، كان أبوه يكنى بالجاهلية أبا الحكم فكناه رسول الله أبا جهل، وكان عكرمة وأبوه من أشد الناس عداوة للإسلام، فقتل أبوه يوم بدر كافراً، أما عكرمة فقد أسلم بعد الفتح بقليل، ولما كان يوم فتح مكة أمّن رسول الله الناس إلا أربعة كان عكرمة أحدهم، فقال الرسول: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، فاضطر إلى الهروب عن طريق البحر. وتعرضت السفينة التي يستقلها إلى عاصفة، فقال أصحاب السفينة للركاب: اخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً، حينها قرر عكرمة الدخول في الإسلام والاعتذار من النبي محمد حال نجاته من المأزق الذي حاق به، ولكن ذلك لم يتم إلا بعد أن وصل اليمن ولحقت به زوجته بعد أن حصلت على الأمان له من النبي محمد وجاءت به وأسلم وحسن إسلامه واستعمله النبي محمد على صدقات هوازن عام حجة الوداع، وشارك في المعارك ضد أهل الردة في زمن الخليفة أبو بكر، وقتل في أجنادين عام =

الإمام علي عليه السلام، وتابع (شترن) عرض روايات أخرى ليصل في نهاية نقاشه لهذه المسألة إلى القول: «وبناءً على هذه المعلومات المضطربة، يحتمل أن مهر فاطمة كان أكثر من (٤) دراهم ولكن أقل بكثير من (٤٨٠) درهم»^(١).

أما المستشرق الإنكليزي (وليم ميور William Muir) فقد تطرق إلى زواج الإمام علي عليه السلام من السيدة فاطمة عليها السلام فيذكر إنها، عندما بلغت السابعة عشر من عمرها تزوجها أبوها عليه السلام من الإمام علي بن أبي طالب الذي كان عمره آنذاك خمسة وعشرين عاماً، وأنجبت له خلال سنة الإمام الحسن عليه السلام وبعد ذلك بسنة أنجبت الإمام الحسين عليه السلام، اللذين قال عنهما (ميور) بأنهما من الشخصيات المشهورة في الإسلام وذكر (ميور) بأن السلالة المحمدية قد دامت من خلال فاطمة عليها السلام^(٢).

وكان المستشرق الفرنسي (الفريد جيوم A. Guillaume) قد خص موضوع زواج الإمام علي عليه السلام من السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام بقوله: «وتزوجت فاطمة علياً، وتزوجت أم كلثوم عتبة، وأهم هذه الزوجات هو زواج فاطمة بعلي. إذ إن أحفاد الرسول من هذا الفرع يُبجلون بصفة خاصة، كما أن الشيعة ينظرون إلى سلالة علي وفاطمة على أنهم الورثة الحقيقيون للخلافة، بما يستتبعه هذا المنصب من ميزات دينية ودينية»^(٣).

= (١٣هـ)، انظر في ترجمة كل من، النووي، أبو زكريا محيي الدين (ت٦٧٦هـ)، تذهيب الأسماء واللغات، دار الكتب العلمية، (بيروت - د. ت)؛ ٣٣٨/١، المزي، جمال الدين أبو الحجاج يوسف، تذهيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، (بيروت - ١٤٢٢ هـ/٢٠٠٢م)، ٢٤٧/٢٠، الزركلي، الاعلام، ٢٤٤/٤.

(١) Gertrude, H. Stern, Marriage in Early Islam, London. W. I, 1934, P. 47, 49, 89.

(٢) Sir William Muir, Muhomet and Islam, The Religious Tract Society, 56 Pa-teenoster, 63 sr, Paul's Cruceryasd, P. 87, 89, 103.

(٣) الإسلام، ترجمة محمد مصطفى، (القاهرة - ١٩٥٨)، ص ٢٨.

«المبحث الثالث»

الإمام علي عليه السلام وجمع القرآن

هناك جانب آخر قد ذكره بعض المستشرقين يتعلق بدور الإمام علي عليه السلام في مسألة جمع القرآن وترتيبه، فقد أشار المستشرق (غوستاف لوبون) إلى أنّ القرآن لم يجمع نهائياً إلا بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وآله، وحاول توضيح ذلك بقوله: «وبين الأمر أن محمداً كان يتلقى في حياته عدة نصوص عن الأمر الواحد، فلما انقضت عدة سنين على وفاته حمل خليفته الرابع علي عليه السلام قبول نص نهائي للقرآن مقابلاً ما جمعه أصحاب الرسول»^(١).

وأشار المستشرق الإنكليزي (دونلدسن D. M. Donaldson) إلى موضوع يتعلق بجمع القرآن وهو أنه كان عند الإمام علي عليه السلام نسخة من القرآن، جمعها ورتبها بنفسه وعلق عليها بعض الحواشي، وهذه الحواشي التي على نسخته هي كما يعتقد (دونلدسن) كل «ما ادعاه علي» مما أوصى الرسول صلى الله عليه وآله ولم يكن عنده غيرها، وكانت حقيقة هذه الصحيفة التي كان الإمام علي عليه السلام يراجعها تأثيراً على اعتقاد الشيعة بوجود كتاب سري يسمونه (الجفر).

(١) حضارة العرب، ص ١١٧.

ويناقش (دونلدسن) موضوع كتاب (الجفر)^(١) بقوله: «إذا كان عُمرُ علي بين العشرة والخامسة عشرة عند أول إسلامه وإنه كان يعرف الكتابة كما تذكر الروايات، فليس ببعيد الاحتمال أن يكون عنده قرآن علق حواشيه بما حدثه به الرسول. وإن ما جاء في هذه الحواشي قد بينته الروايات بصورة عامة، فهي عبارة عن بعض تفاصيل للأحكام وغيرها لا غموض أو سر فيها ولا علاقة لها بما يدعيه الشيعة من الادعاءات المرتبة في الأزمنة المتأخرة عن كتابة الجفر»^(٢).

ومن الروايات المتأخرة التي نقلها (دونلدسن) ما ذكره الكليني (ت ٣٢٨/٣٢٩هـ) من أن «النبى ﷺ علّم علياً باباً يفتح له منه الف باب» وإن طول هذه الصحيفة، وهي بخط الإمام علي عليه السلام، سبعون ذراعاً بذراع الرسول ﷺ وفيها توضيح كل ما هو حلال وحرام وكل شيء يحتاجه الإنسان^(٣).

وحاول المجري (جولد تسيهر IGNAZ Goldziher) أن يقف موقفاً مناقضاً لما ذكره (غوستاف لوبون) حيث قال: «وبناءً على حديث صنعه الشيعة، رتب علي القرآن على سبع مجموعات» وعلى رأس هذه

(١) الجفر: هو عبارة عن العلم الإجمالي بلوح القضاء والقدر، المحتوي على كل ما كان وما يكون كلياً وجزئياً، وهو علم توارثه أهل البيت ومن ينتمي إليهم، وكانوا يكتمونونه عن غيرهم كل الكتمان، ويذكر أن هذا الكتاب لا يقف على حقيقته إلا المهدي المنتظر (عجل الله فرجه)، لغرض معرفة أكثر بهذا الموضوع، انظر، طاش كبري زاده، أحمد بن مصطفى (ت ٩٦٨هـ)، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار الكتب العلمية، ط ٢ (بيروت - ١٤٢٢/٢٠٠٢م)، ٥٥٠/٢؛ العاملي، محسن الأمين، أعيان الشيعة، (بيروت - ١٩٦٠)، ٢٤٤/١، مغنية، محمد جواد، الشيعة في الميزان، دار التعارف، (بيروت - د. ت)، ص ٥٦.

(٢) دوايت م. دونلدسن، عقيدة الشيعة، ترجمة، ع. م، مكتبة السعادة، (مصر - د. ت)، الصفحات، ٦٣، ٦٤، ٦٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٥.

المجموعات سورة البقرة، والمجموعات هي^(١):

١ - سورة البقرة ٢ - سورة آل عمران ٣ - سورة النساء ٤ - سورة
المائدة ٥ - سورة الأنعام ٦ - سورة الأعراف ٧ - سورة الأنفال.

وتطرق المستشرق (كونسلمان) إلى الموضوع نفسه بقوله: «ويروى أن «علياً» قام بترتيب بيت النبي ﷺ مباشرة بعد موت النبي المفاجئ فقد كانت ورقات من القرآن مبعثرة على الموائد والرفوف. وقد أحسّ علي بأنه مسؤول عن ترتيب وتأمين هذه الأوراق»^(٢).

وللإمام علي بن أبي طالب ؑ أثرٌ في جمع القرآن لم يغفله علماء الحديث والتاريخ الإسلامي، فهو الذي كتب القرآن وخطه بيده ودوّن آياته على عهد الرسول محمد ﷺ وبإشرافه وهو الذي اختاره الرسول ﷺ كاتباً له، وكان يتلو عليه الآية بعد الآية ويكرر قراءتها ويسأله علي ؑ عن مؤداها وسبب نزولها وأين نزلت^(٣). وقال الإمام علي ؑ بعد ذلك: «ما من آية إلا وقد علمت فيمن نزلت وأين نزلت في سهل أو جبل وإن بين جوانحي لعلماً جماً سلوني قبل أن تفقدوني فإنكم إن تفقدوني لم تجدوا من يحدثكم مثل حديثي»^(٤).

وذكر ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) بسنده عن عبد الرحمن بن بشر الأنصاري قال: كنا جلوساً مع النبي ﷺ إذ قال: «ليضربنكم رجل على تأويل القرآن كما ضربتكم على تنزيله»، فقال أبو بكر: أنا هو يا

(١) أجنس، جولد تسيهر، مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي، (القاهرة، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م)، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٢) سطوع نجم الشيعة، ص ١٥.

(٣) انظر، الساعدي، نعمة هادي، الإمام علي ومدرسة القرآن، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ج ٢/ص ١٩.

(٤) الشيخ المفيد، محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣هـ)، الأمالي المطبعة الحيدرية، ط ٣ (النجف - ١٣٨٠هـ/١٩١٦م)، ص ٩٨.

رسول الله، قال: «لا»، فقال عمر: أنا هو يا رسول الله، قال: «لا ولكن خاصف النعل»، فانطلقنا فإذا علي يخصف نعل رسول الله ﷺ في حجرة عائشة فبشرناه»^(١).

وهناك اختلاف واضح في مصادرنا الإسلامية حول مَنْ جمع القرآن، مما جعل بعض الباحثين المحدثين يتقصى هذا الموضوع اعتماداً على أدلة مادية بالرجوع إلى النصوص الأصلية أو الحكم على ذلك بالأدلة العقلية.

فقد أشار القمي إلى النصوص الدالة على أن أول من جمع القرآن هو الإمام علي عليه السلام، اعتماداً على ما ورد من رواية جاء فيها: «إن رسول الله ﷺ قال لعلي: «يا علي، القرآن خلف فراشي في المصحف والحريير والقراطيس، فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة»، فانطلق علي فجمعه في ثوب أصفر، ثم ختم عليه في بيته، وقال: لا أرثدي ردائي حتى أجمعه، فإنه كان الرجل ليأتيه فيخرج إليه بغير رداء حتى جمعه»^(٢).

وروى المتقي الهندي عن ابن سيرين^(٣) (ت ١١٠هـ) قال:

«لما توفي النبي ﷺ أقسم علي أن لا يرتدي برداء إلا الجمعة، حتى يجمع القرآن في مصحف ففعل»^(٤).

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٢/٣٩٢.

(٢) تفسير القمي، ج ٢/٤٥٥ عند تفسيره لسورة الناس.

(٣) هو محمد بن سيرين البصري، الأنصاري بالولاء، تابعي، ولادته ووفاته في البصرة، روى الحديث واشتهر بالورع وتفسير الرؤيا له كتاب ينسب له بعنوان (تعبير الرؤيا) وآخر عنوانه (منتخب الكلام في تفسير الأحلام)، وينسب له أيضاً، انظر في ترجمته، الزركلي، الأعلام، ٦/١٥٤.

(٤) المتقي الهندي، كنز العمال، ١٣/٥٦.

وحدد أحد الباحثين أربعة معانٍ لكلمة الجمع، الأول هو الحفظ في الصدور، والثاني هو جمع القرآن بمعنى الكتابة والثالث بمعنى الحفظ مكتوباً خشية الضياع أما المعنى الرابع فهو الجمع ضمن مصحف واحد. وقد اختلف الباحثون في ذلك، فيرى أغلب علماء الجمهور أنّ هذا الجمع قد تمّ في عهد الخلفاء الراشدين، مع اختلاف بينهم في تحديد الخليفة الذي تمّ الجمع في عهده، اعتماداً على عدد من النصوص التي رووها في مصادرهم.

وخلص هذا الباحث إلى القول: (ويبدو من مجموعة النصوص أنّ توحيد المصاحف قد تحقق في عهد عثمان بن عفان بعد أن تعددت مصاحف الصحابة وتميزت بعد وفاة النبي ﷺ)^(١).

وهذا ما دفع باحث آخر إلى القول بأن: «كل هذه الامتيازات بما فيها ما أكده المستشرقون تتضمن تلويحاً خفياً، بل تصريحاً جلياً بأن القرآن قد مرت عليه عهود وعصور وهو بعد لم يدون، وإنما دُوّن بعد ذلك اعتماداً على نصوص قد تكون ناقصة أو ممزقة، وعلى روايات شفوية قابلة للخطأ والسهو والنسيان، للقول من وراء هذا بالتحريف، وهو ما نرفضه جملةً وتفصيلاً»^(٢).

ومن الجدير بالملاحظة والانتباه ما قاله المستر كرينكو الإنكليزي الجنسية والأستاذ في إحدى الجامعات الهندية بشأن كتاب نهج البلاغة الذي عده أخصاً صغيراً للقرآن عندما أجمع الأساتذة والأدباء حوله في

(١) الحكيم، رياض، علوم القرآن دروس منهجية، المركز الإسلامي المعاصر للدراسات والترجمة والنشر، (بيروت - ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م)، ص ٢١٤ - ٢١٩.

(٢) الصغير، محمد حسين (الدكتور)، تاريخ القرآن، دار المؤرخ العربي، (بيروت - ١٤٢٠م/١٩٩٩م)، ص ٨٤.

حفلة وسألوه عن إعجاز القرآن فأجابهم: «إنّ للقرآن أخاً صغيراً يسمّى نهج البلاغة، فهل في إمكان أحد أن يأتي بمثل هذا الأخ الصغير، حتى يسوغ لنا البحث عن الآخر الكبير، وإمكان أن يأتي أحداً بمثله»^(١).

(١) بيضون، لبيب (الدكتور)، الإعجاز العددي في القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، (بيروت - ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م).

المبحث الرابع

الصفات الشخصية للإمام علي عليه السلام

من الموضوعات المهمة التي أولاها المستشرقون عناية هو بيان صفات الإمام علي عليه السلام وتقييم شخصيته، فقد عبّر المستشرق الفرنسي (هنري ماسيه) (Masse. H) عن ذلك بقوله: «لقد كان دور علي وصفاته، ولا يزالان، موضع مناقشة. فالبعض [يعده] شجاعاً والبعض الآخر كرجل عادي جداً وعلى كل حال فإن سياسته معتدلة كسياسة جميع أفراد ذريته، وحبه للسلم قد أضاعه كما أضاع كثيرين من غيره فقد ترك ملكه ينتزع منه بسبب التشدد وعدم المهارة ولكن صفات الفارس المنزه عن الخوف واللوم والمزاج المثالي الذي أسبغه التقليد عليه، والشقاء الذي أرهقه - بدون أن يضاف إلى ذلك المآسي التي حاقت بذريته - إن كل هذا الأمر قد ظفر له إكليل شهيد - ويجب أن لا نندهش من الإسلام الشيعي الذي يعتبره قديساً، بينما الصوفيون يحيطونه بحبهم وبعض الهراطقة يذهبون إلى تأليهه»^(١).

إن أهم ما يمكن تشخيصه من خلال كلام (ماسيه) حول الإمام علي عليه السلام، هو أنه حاول إبراز فضائل الإمام علي وكان ذلك واضحاً في كثير من عبارته التي ساقها لنا، ولكن هذا لا يمنع من وقوعه في بعض

(١) الإسلام، ترجمة بهيج شعبان، (بيروت - ١٩٦٠م) ص ٦٦.

الأحكام المخطوءة التي تحسب عليه وكان من أبرزها وصفه للإمام علي عليه السلام بعدم المهارة وإنّ حبه للسلم هو الذي أضع منه ملكه، ولا نستغرب هذا الوصف لأن المستشرقين ينظرون إلى الإمام علي عليه السلام كأى فرد يكون معرضاً للنقد، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن جنوح الإمام علي عليه السلام للسلم كان بدافع الحفاظ على وحدة المسلمين، في الوقت الذي كانت تمر بمرحلة حرجة من حياتها، ولو كانت غاية الإمام علي عليه السلام المُلْك لما سكت عن حقه في الخلافة لغيره.

وحاول المستشرق (دونلدسن) الوقوف على بعض فضائل الإمام علي عليه السلام، فبصدد ذلك قال: «ولسوء الحظ إنه لما صُنفت كتب الحديث من الصحاح الستة أو الكتب الشيعية الأربعة، كان مركز علي في الأَقاصيص الشيعية قد أحاطت به هالة من الأساطير ولناخذ مثلاً ما جاء من شجاعته في الحروب، فيروى أنه قتل في صفين (٥٢٣) رجلاً في يوم واحد»^(١).

ويواصل (دونلدسن) حديثه عن الإمام علي عليه السلام بقوله: «لابدّ لنا أن نتهياً لسماع روايات مبالغ فيها تختص بمزايا علي الأخرى»، ونقل لنا قول ابن حنبل (ت ٢٤١هـ) في حق الإمام علي عليه السلام: «لم ترد رواية بفضل أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله بقدر ما ورد في فضائل علي»^(٢).

وذكر (دونلدسن) أن فضائل الإمام علي عليه السلام كانت من الكثرة ما أثارت حسد بني أمية وكرههم له، أما أمر اعتماد النبي محمد صلى الله عليه وآله عليه اعتماداً خاصاً فيعترف به الجميع، ويروى أن النبي صلى الله عليه وآله عندما خرج إلى غزوة تبوك أبقاه في المدينة وقال له: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى»^(٣).

(١) دونلدش عقيدة الشيعة، ص ٦١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٢.

وعلى كل حال والكلام (لدونلدسن)، فإن الإمام علياً عليه السلام إذا كُلف ببعض الواجبات الإدارية الخطيرة كانت أجوبته تفضح عن شعور الشباب وتردد التواضع. وساق (دونلدسن) مثلاً لذلك وهو حادثة بعث الرسول ﷺ الإمام علياً عليه السلام ليكون قاضياً على اليمن، وكيف أن الإمام عليه السلام قد تردد في بداية الأمر ولكن دعاء الرسول ﷺ له قد دفعه لتولي هذا الأمر. وذكر (دونلدسن) أن عمر بن الخطاب نفسه كان يُعد علياً أفضى أهل المدينة وأقرأهم للقرآن^(١).

وأكد (دونلدسن) بالقول: (لم يكن ما بلغه علي في الأساطير من المنزلة السامية يرجع إلى شجاعته في الحروب ولا لعلمه ولا لعقله وحكمته. فهو لا يقاس بالقدسيين وله كرامات لا يتردد شيعته من مقارنتها بالمعجزات... وقد رد الله له الشمس في الصهباء بعد أن غربت ليتمم صلاة العصر. ورد الإمام عليه السلام في مسجد الكوفة يد عبد أسود قطعت بأمر منه حين يقتضيه الشرع للسارق... وأحيا ميتاً، وظهر بعد وفاته بقرون عديدة في المنام ومسح على عيون بعض الناصبيين فأعماهم)^(٢).

وكانت أغرب حوادث تمجيد الإمام علي عليه السلام في نظر (دونلدسن) هي قصة الإسراء والمعراج، فبشأن ذلك قال:

«إن هذا الحادث هبى لخيال الرواة مجالاً خصباً لا روع الوصف لما رآه النبي وسمعه. ومن الظلم الفاضح أن نعتبر هذه المبالغات أموراً اعتقادية ضرورية. وإن العلماء البارزين في مدرسة الإسلام الحديثة لا يرون في المعراج إلا رؤياً»^(٣).

(١) دونلدش عقيدة الشيعة، ص ٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٧.

(٣) المصدر نفسه، لغرض الاطلاع على طبيعة بعض التناقضات التي دارت حول موضوع الإسراء والمعراج، انظر على سبيل المثال لا الحصر، الشمري، عباس وهب، الإسراء والمعراج بين العقل والوحي، دار القارئ، (بيروت - ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م)، ص ٥٩ - ١٢٩ =

ولو قيمنا ما ذكره (دونلدسن) نجد أن ظاهرة الشك كانت هي السائدة في كتاباته المتعلقة بالإمام علي عليه السلام أو في بعض حوادث الإسلام، مثل حادثة الإسراء والمعراج التي حاول أن يصفها على أنها مجرد رؤيا متأثراً بآراء بعض العلماء المسلمين الذين لم يحدد أسماءهم. ومن المحتمل أن (دونلدسن) أخذ برواية الرؤيا في الإسراء دون الجسد لأنها أقرب إلى عقيدته إذ إن غالبية المسلمين يعتقدون أن الإسراء بالروح والجسد.

أما أهم الأمور التي أصاب فيها (دونلدسن) ما ذكره بأن فضائل الإمام علي عليه السلام كانت من الكثرة ما أثارت حسد بني أمية وكرههم له.

وكان المستشرق الألماني (فلهوزن) قد وصف الإمام علياً عليه السلام بهذه العبارات: «أما علي فقد كان لاصقاً به أن مصدر خلافته يرجع إلى الثورة، ولم يكن لديه لا الزمن الكافي ولا المقدرة على التغلب على هذا النقص بصفات شخصية ممتازة. ولم ينس أهل العراق أنهم هم الذين رفعوه إلى منصبه وكانوا أبعد عن روح النظام، أو هم كانوا أكثر تديناً من أن يطيعوا خليفتهم حيثما يوجههم»^(١).

إن التحليل المنطقي لما قاله (فلهوزن) يوضح بأنه حاول أن يجعل من الإمام علي عليه السلام السبب الرئيس في الثورة على الخليفة عثمان بن عفان، وبذلك فهو يخالف الحقائق التاريخية التي وردت على لسان أغلب المؤرخين المسلمين أو بعض المستشرقين، والتي أكدت بأن السياسة التي اتبعتها الخليفة عثمان وكانت من بين سماتها الأساسية هي محاباته لأقربائه

= انظر، قانصو، هنادي مشهور، الإسراء والمعراج رحلة الرسول إلى السماوات والأرض، تحقيق الشيخ محمود قانصو، دار التيار الجديد، (بيروت - ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص ٢٤.

(١) فلهوزن، يوليوس، تاريخ الدولة الإسلامية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو ريذة، مراجعة حسين مؤنس، لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة - ١٩٥٨م)، ص ٥٧.

الأمويين واستثنائهم بالسلطة هي سبب النعمة عليه^(١)، هذا من جانب ومن جانب آخر فقد حاول (فلهوزن) تجريد الإمام علي عليه السلام من الصفات الشخصية الممتازة وذكر أن أهل العراق هم الذين أوصلوه إلى الخلافة، والآنكى من ذلك فقد وصفهم بأنهم كانوا على درجة من التدين تفوقوا فيها على خليفتهم الذي حاول توجيههم حيثما شاء، وكانما من أجل مصالح الشخصية لا من أجل تطبيق مبادئ الإسلام، وكل ما قاله (فلهوزن) لا يمت إلى الحقيقة بشيء والدليل على ذلك ما جرى في معركة (صفين) التي سنحاول إيضاح أحداثها في فصل لاحق من الأطروحة، حيث نزل الإمام عليه السلام فيها عند رغبة أهل العراق رغم قناعته بأن مصلحة المسلمين تتجه نحو مواصلة الحرب وعدم اللجوء إلى التحكيم.

اما المستشرقة الإيطالية (فاجليري Veccia Vaglirei) فقد وصفت الإمام علياً عليه السلام وصفاً يحمل صوراً واقعية فذكرت بأن ليس هناك أي دليل يمكن من خلاله الحكم على أن الإمام علياً عليه السلام كان متطرفاً، بل على العكس كان معادياً للسبئية، وهم اتباع عبد الله بن سبأ، الذين رفعوا الإمام علياً عليه السلام فوق مستوى البشر، وحينها قام الإمام عليه السلام بالتخلص منهم، وأكدت (فاجليري) بأن الإمام علياً عليه السلام حاول أن يبقى بعيداً عن الثوار ومناصريهم الذين حاصروا بيت عثمان، حالما سمحت إليه الظروف أن يقوم بذلك^(٢).

وأضافت (فاجليري) بأن الإمام علياً عليه السلام كان متمسكاً بالإسلام بشدة

(١) لمعرفة جانب من محاباة الخليفة عثمان لأقربائه، انظر، الطبري، تاريخ، ٣٤٨/٤، وللإمام بأسباب نعمة الناس على الخليفة عثمان، انظر، الشيخ المفيد، أبو عبد الله محمد بن النعمان العكبري (٤١٣هـ)، الجمل - النصر لسيد العترة في حرب البصره - ، تحقيق علي مير، ط٢ (قم - ١٤١٦هـ)، ص ١٧٥ - ١٨٥.

(٢) L. Veccia vaglieri, the Encyclopaeda of Islam New Editiom, V. 1, P. 382.

وحصل على ميزة السبق في الإسلام وقدم خدمات للإسلام في أيامه المبكرة بالإضافة إلى سمو مولده ﷺ ومقدرته السياسية والإدارية، ومن خلال صراعه مع الحكومة كان يبغى تطبيق القرآن واتباع سنة النبي محمد ﷺ التي أهملت في رأيه، وبهذه السياسة أو بسبب هدفه بالدفاع عن حق البيت الهاشمي بالخلافة كان ملزماً بمعارضة المبدأ الذي يعطي هذا الحق إلى كل قبيلة النبي محمد ﷺ وجعل قريش تقف ضده رغم أنه منها.

وفي موضوع آخر نجد (فاجلييري) قد نقلت قول لامنس حينما وصفت الإمام علي ﷺ بعبارات قاسية تستحق أن تهمل^(١).

وعادت (فاجلييري) لتبين أنه من الصعب تعريف شخصية الإمام علي ﷺ، لأن الكاتب التاريخي لا يجد موجهاً مؤكداً في أفعال وخطب أو بيانات الإمام التي تزودها المصادر، وتصف (فاجلييري) بأن إدارة الإمام علي ﷺ كانت مشلولة أو معدلة وفقاً للأحداث أو مقيدات أنصاره، وتبدو خطبه غامضة وليس من السهل تمييز الأصلي من المزور، وعزت (فاجلييري) ذلك إلى الصراعات التي اشترك فيها الإمام علي ﷺ، وآثارها التي كانت خالدة لقرون مما يجعل المصادر متحيزة ولذا تكون أقل مثالية، أو عدائية مما تم التأكيد عليه أو قد تكون أكثر تحفظاً^(٢).

وحاولت (فاجلييري) انتقاد غيرها من المستشرقين أمثال الإيطالي (كيتاني)^(٣) أو (لامنس)^(٤)، فقد قالت: «يعتبر الحكم العدائي (للامنس)

(١) L. Veccia vaglieri, the Encyclopaeda of Islam V. 1, P. 385.

(٢) Ibid, V. 1, P. 385.

(٣) كيتاني (Leone Caetane 1869 - 1935)! مستشرق إيطالي وأمير من آل كيتاني وهي أسرة من كبار الأمراء في تاريخ إيطاليا الحديثة، واشتهر بكتابه (حوليات الإسلام)، الذي تناول فيه عصر النبي محمد والخلفاء الراشدين، قام برحلات إلى البلاد العربية. انظر، بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ٤٩٣.

(٤) لامنس (Henri Lammens 1862 - 1937)! مستشرق بلجيكي، وراهب يسوعي شديد =

خاصة فيما يتعلق بفاطمة ومعاوية الأول، والذي يصل إليه عن طريق انتزاع النصوص عُنوة، يعتبر حكماً مرفوضاً. بينما (كيتاني) الذي يعتبر أكثر اعتدالاً، عندما يقوم بعرض نقاط ضعف علي، يعطي أهمية لثقل الظروف عليه، لكن حُكْمَه يبقى يكتنفه الغموض، بشكل عام. لم يوضح كل من (لامنس، ولا كيتاني) تقوى علي (تَدَيِّنُ علي) وانعكاساتها على سياسته^(١).

وتسترسل (فاجلييري) في كلامها عن الإمام علي عليه السلام وتذكر إن هنالك الكثير من الملاحظات حول تقشفه (= austerity) ومراعاته الدقيقة جداً للطقوس الدينية (الشعائر الدينية) وانعزاله عن المتع الدنياوية (المنافع الدنياوية)، وتردده فيما يخص الغنائم والثأر (الانتقام).

بعد ذلك تواصل فاجلييري تقييمها لشخصية الإمام علي عليه السلام بالقول:

«ليس هناك أسباب لاعتبار هذه الصفات مخترعة أو مغالى بها لأن كل أفعاله كان يحكمها روح الدين، ولا يمكن تجاهل إخلاصه للإسلام بأي حال وما كان له من أثر في نفسيته، لقد انشغل في حروب مع المسلمين الضالين واعتبره مسألة واجب لتقوية عرى الايمان والفوز بالهدى... وتكمن حقيقة سلوكه في طاعة الأمر الإلهي، لكن أفكاره كان يحكمها ثقته المفرطة. ويحتمل أن يكون هذا هو السبب الذي دعا أعداءه أن يصفوه بالـ (Mahdud محدود) أي ضيق الأفق. إن علياً لا يستطيع أن يطبع نفسه مع الوضع الجديد والذي كان مختلفاً جداً عن الوضع في عهد محمد. لذا فهو تنقصه المرونة السياسية التي تعتبر من الصفات المبرزة لمعاوية»^(٢).

= التعصب ضد الإسلام، يفتقر إلى النزاهة في البحث والأمانة في نقل النصوص وفهمها، ويُعد نموذجاً سيئاً جداً للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين. انظر، بدوي، موسوعة المستشرقين ص ٥٢٠.

(١) Vaglieri, the Encyclopaeda, V. 1, P. 385.

(٢) Vaglieri, Ency, V. 1, P. 385

وذكرت (فاجلييري)، بأنه من المحتمل أن الإمام علي عليه السلام قد اكتشف استحالة تحقيق برنامجه اليوطوبيا (فاضلاً أو مثالياً) عندما صارت السلطة في يده، وقد أسهم هذا الإحساس وبلاشتراك مع الأحداث الخارجية في تثبيط عزمته خلال سني حياته الأخيرة^(١).

ونقلت (فاجلييري) وجهة نظر المستشرق (كايتاني Caetani) التي تقول بأن الهالة نصف السماوية التي ميزت شخصية الإمام علي عليه السلام ليس نتيجة علاقته مع النبي محمد صلى الله عليه وآله فحسب بل من الانطباع الشخصي الذي تركه علي معاصريه. وانتقدت (فاجلييري) كيتاني بأنه لم يشر إلى الصفات التي جعلت من شخصية الإمام علي عليه السلام شخصية ملحمية^(٢).

وختمت (فاجلييري) حديثها عن الإمام علي عليه السلام بالوصف بأنه كان يمتلك روحاً دينية بشكل عميق وإنه قام ومن خلال سلطته بدعم برنامج للإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية، واضعاً في الوقت نفسه هذه الإصلاحات على أساس ديني^(٣).

من خلال ما كتبه (فاجلييري) بخصوص الإمام علي عليه السلام، يمكننا انتقادها من زوايا مختلفة أهمها:

١ - حاولت (فاجلييري) في حديثها أن تبرز الجوانب الموضوعية في شخصية الإمام علي عليه السلام بوصفه ليس متطرفاً، ولكن الدليل الذي ساقته لم تكن موفقة فيه لأن شخصية عبد الله بن سبأ هي شخصية خيالية ورد ذكرها في أبحاث عدد من المؤرخين^(٤).

(١) Ibid, P. 386.

(٢) Ibid, P. 386

(٣) Ibid, V. 1, P. 386.

(٤) انظر، العسكري، مرتضى، الأسطورة السبائية كما تخيلها واختلقها سيف بن عمر، (بيروت ١٤٢٤هـ)، ص ٢٩ - ٦٢؛ أما من يؤيد إن ابن سبأ حقيقة فانظر، عبد الحميد، صائب، تاريخ الإسلام السياسي والثقافي، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، (بيروت - ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ص ٥٧٨ - ٥٩٣.

٢ - حاولت أن تبين بأن موقف الإمام علي عليه السلام تجاه الثورة على الخليفة عثمان كان محايداً فيه، والواقع يشير إلى أن الإمام عليه السلام أراد الحيلولة دون ذلك بوساطته بين الثوار والخليفة عثمان، ولكن لم تنجح بسبب عدم التزام الخليفة عثمان بالوعود التي قطعها للثوار، يضاف لذلك أن الإمام علي عليه السلام قد أرسل ولديه الحسن والحسين عليهما السلام من أجل حماية الخليفة ولكن سارت الرياح بما لا تشتهي السفن. وهذا ما تؤكد بعض مصادر التاريخ^(١).

٣ - بعد ذلك حاولت (فاجليري) إبراز بعض الخصائص المميزة للإمام علي عليه السلام عن غيره من الصحابة، ومن بينها مقدرته السياسية والإدارية، بينما تجدها في موضع آخر تصف إدارة الإمام علي عليه السلام بأنها كانت «مشلولة أو معدلة وفقاً للأحداث أو مقتضيات أنصاره».

٤ - انتقدت (فاجليري) غيرها من المستشرقين من أمثال لامنس وكيثاني.

٥ - ذكرت في أثناء حديثها عن الإمام علي عليه السلام أنه دخل في صراع مع «المسلمين الضالين»، وقد يكون في هذا القول تعميم على كل المسلمين، أو يفهمها البعض بهذا القصد، والأحرى بها أن تسميهم بالخوارج إسوة بغيرها من المستشرقين أو مؤرخينا المسلمين.

٦ - وصفت فاجليري الإمام علي عليه السلام بأنه تنقصه المرونة السياسية التي ميزت معاوية بن أبي سفيان عنه، في حين أن الإمام علياً عليه السلام نفسه

(١) لمعرفة دور الإمامين الحسن والحسين في الدفاع عن الخليفة عثمان، انظر، ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، الإمامة والسياسة، تحقيق علي شري، (بيروت - ١٩٠م)، ص ١٥٨، المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق يوسف البقاعي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت - د. ت)، ٤٩٣/٢. الهيثمي، ابن حجر (ت ٩٧٤هـ)، الصواعق المحرقة، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٤٢٠هـ/١٩٩٩)، ص ١٨٢.

قد أكد بأن معاوية ليس بأدهى منه، ولكنه استخدم الغدر والفجور، وهذا ما لا يتلاءم مع خط الإمام عليه السلام في تعامله مع الخصوم، ولا سيما أنه لا يداهن في تطبيق مبادئ الإسلام حتى مع نفسه، وإن مقولة الإمام عليه السلام بالمقارنة بينه وبين معاوية توضح سياسته وتضع معاوية على حقيقته.

قال الإمام علي عليه السلام:

«ما معاوية بأدهى مني لكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس ولكن كل غدرَة فُجْرَة، وكل فُجْرَة كُفْرَة ولكل غادر لواء يُعرف به يوم القيامة، والله ما استغفَلُ بالمكيدة، ولا استغْمزُ بالشديدة»^(١).

إنّ هذه المثالية الإنسانية والواقعية قد تحلى بها الإمام عليه السلام في قبال الميكافيلية والغدر والإبادة التي كان عليها معاوية، فكيف إذاً لنا أن نساوي بين خصمين متناقضين في العقيدة والسلوك والإنسانية.

وحاول المستشرق (أميل آيسن Emel Esin) وصف الإمام علي عليه السلام وصفاً معتدلاً، فقد قال:

«يمثل علي شخصية معقدة، ففارس الأمة كما يسمى كان قد قدم تضحيات لا تُعدّ ولا تحصى من أجل القضية التي آمن بها واعتنقها وقد كان عمره عشر سنوات، فقد كان بطلاً وشجاعاً، وقد سماه محمد مرة أبي تراب، وكان علي صوفياً ومن حفظة القرآن وتميز بصوته العالي في الصلاة ولا يزال الكثير من الناس يقلّدونه في هذا بينما يقلّد آخرون أبو بكر بصوته الواطئ. إن هناك ميلاً فتياً إلى علي فقد اتّخذه الرسامون في العصور الوسطى زبوناً، وهناك مجلدات من الشعر الصوفي الذي ينسب

(١) نهج البلاغة، الخطبة، ٢٠٠، عبده، محمد، شرح نهج البلاغة دار المعرفة، (بيروت - د.

ت)، ١/١٨٠، ١٨١.

إليه، عندما بويح علي للخلافة كان يبلغ من العمر خمسة وخمسين عاماً، وهو داكن الشعر سمين، أصلع ذو عينين واسعتين ولامعتين وكان يرتدي دائماً السواد ربما كإشارة لحزنه على محمد^(١).

إنّ بداية كلمات المستشرق آيسن التي وصف فيها الإمام علي^{عليه السلام} بأنه ذو شخصية معقدة، باعتقادنا أنه لم يقصد التقليل من شأنه وإنما كان يقصد بذلك هو التزامه وتمسكه الشديدين في تطبيق مبادئ الدين الإسلامي، وغالباً ما يطلق صفة التعقيد على بعض الأشخاص المتدينين في مجتمعاتنا الإسلامية.

ويطلّ علينا المستشرق (صموئيل كراهام Samuel Graham) حاملاً صورة مشوهة عن الإسلام وعن الشيعة بالخصوص، فهو في الوقت الذي يتهم المسلمين بتأليههم النبي محمد^ﷺ، فهو يتهم الشيعة بتأليههم الإمام علي^{عليه السلام}، فقد قال بصدّ ذلك ما يلي:

«في الإسلام الشيعي يرفع علي والأئمة الآخرين إلى مرتبة الإلهية لكن الإسلام الرشيد لا يقنع إلا بتأليه محمد...، وهكذا فإن ما تراه يحدث في بلاد فارس بالنسبة لعلي تراه يحدث في كل أرجاء العالم الإسلامي بالنسبة لمحمد^(٢)».

حقيقة ما يصوره إكراهام عن المسلمين وعن الشيعة ما هو إلا خيال من صنع أفكاره ولا يمت إلى مبادئ الإسلام أو معتقدات الشيعة النابعة من الإسلام بصلة، حيث لا يوجد في الدين الإسلامي ما يشير إلى إن المسلمين قد ألّهُوا النبي محمد^ﷺ، وكذلك لم نقرأ في كتب التاريخ أن

(١) Emel Esin, Mecca the Blessed Madina, the Radian, Paul Eleck productions, Limited 1963, Istituto, Geografic De Agostini S. P. A, November 1963, Print in Italy, P. 124.

(٢) Graham, Samuel Wilson, Modern Movements among Moslems, London and Edinburgh, 1916. (copyright, 1916, by Fleming H. Revell Company), P. 27, 29.

الشيعة الموجودين في بلاد فارس قد ألهوا الإمام علي عليه السلام ، لذلك ما ذهب إليه كراهام هو افتراءً على الحقائق التاريخية. وكان على هذا المستشرق أن يدخل بين صفوف الشيعة ويقف على معتقداتهم وآرائهم حول الأئمة وعند ذلك يتاح له الكتابة، ولكنه قد اعتمد على مصادر معادية للفكر الشيعي وقد روج لها السلفيون في كتبهم وهي عارية عن الصحة.

المبحث الخامس

شجاعة الإمام علي وفروسيته عليه السلام

أولى المستشرقون اهتماماً ملحوظاً بشجاعة الإمام وفروسيته من خلال تطرقهم لبعض مواقفه مع الرسول الكريم محمد ﷺ أو قيادته واشتراكه في الغزوات والمعارك التي دارت بين المسلمين والمشركين من جانب أو مع اليهود من جانب آخر، لذلك سنبين في هذا المبحث الجوانب التي ركز المستشرقون عليها في كتاباتهم، المتعلقة في شجاعة الإمام علي عليه السلام في المعارك التي اشترك فيها لنشر الدين الإسلامي في الفترة التي سبقت توليه الخلافة.

في مقدمة المواقف البطولية التي أشار إليها بعض المستشرقين هو مبيت الإمام علي عليه السلام في فراش النبي محمد ﷺ، في أثناء هجرته من مكة إلى المدينة، وقد أشار المستشرق الفرنسي (جان بروا) إلى هذا الموضوع بقوله:

«ترك [النبي ﷺ] على فراشه نهباً لسيوف المؤامرة البطل المضجعي والمؤمن الشاب ابن عمه وربيه علي بن أبي طالب»^(١).

وتطرق المستشرق (أرفنج) إلى أنّ هناك روايات كثيرة تدور حول

(١) محمد نابليون السماء، ترجمة، محمد صالح البندق، دار الإنصاف للطبع والترجمة والنشر، (بيروت - ١٩٤٧م)، ص ٥٤.

خروج الرسول محمد ﷺ بعد أن ترك مكانه ابن عمه المخلص علي بن أبي طالب ؑ الذي بات في فراشه^(١).

وذكر الكثير من مؤرخينا المسلمين حادثة مبيت الإمام علي ؑ في فراش النبي محمد ﷺ مما يجعله في مقدمة الذين كان لديهم الاستعداد للتضحية في سبيل الإسلام ونيبه ﷺ^(٢).

ومن بين المستشرقين الذين خصصوا حيزاً في مؤلفاتهم لبيان بعض المعارك التي خاضها الإمام علي ؑ إلى جانب أصحاب رسول الله ﷺ الآخرين، المستشرق (بودلي) فقد تطرق إلى ذكر معركة بدر الكبرى، وبدأ بوصف الاستعداد للمعركة والسجال الذي دار بين بعض المشركين والمسلمين، ثم قال: «فما إن انتهى القرشيون من تعبيرهم [دَمَّ المسلمين] حتى برز من صفوف المسلمين علي يتألق في درعه وخوذته، وتبعه عبيدة بن الحارث ابن عم لمحمد، وحمزة... وبذلك كان الصناديد الثلاثة أقرب أقرباء محمد، وإنهم لأكفاء لإطفاء عطش قريش إلى دماء الهاشميين»^(٣).

وأشار بودلي إلى أنّ طلحة بن أبي طلحة حامل لواء المشركين في معركة أحد كان أول من برز للنزال، وما إن خرج من صفوف جيش أبي سفيان حتى خرج له الإمام علي ؑ وابتدأ النزال، وما كان لطلحة فرصة لأنّ سيف علي ؑ قد تألق في شمس الصباح وطار رأس حامل اللواء طلحة عن كتفيه وأخذ يتدحرج على الرمال، فصاح النبي محمد ﷺ «الله أكبر»^(٤).

(١) انظر، محمد وخلفاؤه، ص ١١٧.

(٢) للاطلاع على تفاصيل هذه الحادثة، انظر على سبيل المثال لا الحصر، المسعودي، مروج الذهب، ١٨/٣، ابن الأثير، الكامل، ٤/٢.

(٣) انظر، حياة محمد، ص ١٩٠، انظر، الواقدي، المغازي، ٦٨/١ لمطابقة هذه الرواية.

(٤) حياة محمد، ص ٢١٦، انظر، الواقدي، المغازي، ٢٢٥/١، ٢٢٦.

وأضاف بودلي القول، في بداية معركة أحد تمكن المسلمون من دق أسفين في قلب جيوش قريش وكان كل من الإمام علي عليه السلام وحمزة عليه السلام وسيفيهما البتارين يجولان في كل مكان مما اضطر العدو إلى الإنسحاب^(١).

ولكن وبسبب الظروف التي رافقت سير المعركة فقد خسرها المسلمون واستشهد فيها الحمزة عليه السلام إلى جانب مجموعة من الشهداء.

وتطرق (بودلي) إلى معركة الخندق فوصفها بأنها كانت حرجة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ورجاله، قد تقود إلى الهزيمة ولكن تمكن الإمام علي عليه السلام ومجموعة من المسلمين من سد الثغرة أمام المهاجمين، وبرز الإمام علي عليه السلام لنزال عمرو بن عبد ود العامري، الذي قال عنه بودلي:

«فلما رأى المقاتل المحنك من برز له، ضحك، فقد كان يعرف علياً مذ كان طفلاً، وإنه لا زال يعتبره غلاماً، ولكن علياً لم تداخله رهبة بل هجم على المكي الذي كان قد ترجل ووقف ينتظر...»^(٢).

وتابع بودلي وصف وقائع النزال الذي دار بين الإمام علي عليه السلام وعمرو بن عبد ود، بالاعتماد على المصادر الإسلامية ولكن دون الإشارة إلى أي مصدر، فذكر بأن عمرو بن عبد ود أدار رأسه معتقداً أن هناك من يهاجمه من خلفه، وما استغرق ذلك ثانية، لكنها كانت كافية للإمام علي عليه السلام، الذي قال عنه بودلي: «فقد اندفع إلى الإمام فأصبح في منخفض، وبضربة خاطفة من سيفه، أطاح رجل عمرو... ثم تناول العضو المبتور، وألقى به على علي بكل قوته، وكان هذا آخر حركة آتاهما، وكاد علي يُصرع، ولكنه أفاق في لحظة، وأغمد سيفه في جسم عمرو»^(٣).

(١) حياة محمد، ص ٢١٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥١.

(٣) المصدر نفسه.

وذكر بودلي معركة خيبر ودور الإمام علي عليه السلام في الهجوم على الحصن بعد أن عجز أبو بكر وعمر بن الخطاب عن تحقيق ذلك، وفصل (بودلي) في وصف ما كان يرتديه الإمام علي عليه السلام من مستلزمات القتال ومن بينها سيفه ذو الفقار الذي أعطاه أياه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك في صراع الإمام عليه السلام مع المقاتل اليهودي (مَرْحَب) الذي كان مسلحاً تسليحاً يفوق تسليح جميع المحاربين، حيث كان يلبس درعين ويتقلد سيفين، وتميز عليهم بمميزات أخرى، وقال بودلي:

«وقد هجم مرحب أولاً وقد صوّب إلى علي رمحه الثلاثي الشعب فانسحب علي لحظة فما كان معتاداً على مثل هذا السلاح، ثم استعاد رباطة جأشه وراح يبارز اليهودي، وبمهارة وحذق تمكن من أن يُطَيِّر رمح مرحب من يده، وقبل أن يتمكن مرحب من سحب سيف من سيوفه، كان سيف علي شق المغفر والحجر الذي تحته والعمامتين وفلق هامته حتى أنها تهدلت على كتفيه»^(١).

وعلى الرغم من إشادة بودلي بالمقدرة الحربية للإمام علي عليه السلام في معركة خيبر، إلا إنه حاول أن يدس السم بالعسل بقوله:

«فلما رأى اليهود قتل بطلهم انسحبوا إلى مدينتهم، فأصدر أمره بالهجوم العام، فتدفق المسلمون، وراح علي يقود القتل والفتك»^(٢).

وفي هذا القول إشارة إلى أن ما قام به الإمام علي عليه السلام يُعدّ فتكاً، والفتك باعتقادنا يوجه ضدّ الناس الأبرياء أو أن يطال العقاب المسيئ والبريء دون تمييز، في حين أن ما جرى في معركة خيبر كان عقاباً لليهود الذين وقفوا موقفاً كان هدفه ضرب الإسلام وإشعال الفتنة بين المسلمين في مرحلة حرجة من مراحل التاريخ الإسلامي. وقد تناسى هذا المستشرق

(١) حياة محمد، ص ٢٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٧.

الروح الإنسانية التي جاء بها الإسلام في تعامله مع أهل الذمة من اليهود والنصارى.

ووصف بودلي الإمام علي عليه السلام بأنه: «خطيب غير حاذق على قدر ما كان جندياً باسلاً»^(١). وجاء قول بودلي هذا بالإشارة إلى حادثة إرسال الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم الإمام علياً عليه السلام إلى اليمن ليكون قاضياً.

وختم (بودلي) حديثه عن شجاعة الإمام علي عليه السلام بهذه الكلمات التي قال فيها: «وعلي الجندي الأمين الباسل، كان محمد بطله، وكان القتال هوايته، إنه رجل العسكر والقتال، ولكنه ما كان يصلح للرئاسة، وعلى الرغم من أن ذلك سيصبح في يوم من الأيام خليفة»^(٢).

ولم يكن القتال يوماً من الأيام هواية يمارسها الإمام علي عليه السلام كما يدعي (بودلي) ولكنه كان مجبراً على ذلك، من أجل الدفاع عن عقيدته.

أما المستشرق الروماني (جورجيو) فقد تحدث من خلال المعارك التي ذكرها عن جوانب من مهارات الإمام علي عليه السلام الحربية، ففي صد معركة بدر الكبرى، قال (جورجيو) ما يلي: «كان علي يجيد المبارزة بالسيف، ويضرب بأسرع من ضربات خصمه الوليد، لذا لم تطل الحرب بينهما أكثر من دقائق، إذ سرعان ما لقي الوليد ضربة قتلت من سيف علي»^(٣).

وفي معركة أُحد نقل جورجيو قول الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم لابنته فاطمة عليها السلام حينما أمرها أن تذهب إلى علي عليه السلام لتضميد جراحه، فقال لها عليها السلام: «اذهبي يا فاطمة وضمدي جراح علي إنها أحوج إلى العناية من جراحي». وبعد ذلك تحدث (جورجيو) عن أبي عبيدة بن الجراح عندما

(١) حياة محمد، ص ٣٨١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤١٢.

(٣) نظرة جديدة في سيرة الرسول، ص ٢٢٤.

ذهب إلى الإمام علي عليه السلام ووجده مصاباً بثمانين جرحاً فقال له أبو عبيدة متعجباً: «أرى أن أضمدك يا علي من رأسك إلى قدمك، وأحملك إلى المدينة لأنني لم أرَ طيلة حياتي شخصاً واحداً أُصيب في ميدان الحرب بمثل ما أُصبت به، وإني لأعجب كيف صبرت على جراحك، وتابعت حربك»^(١).

وعن معركة الخندق وضح جورجيو الدور المشهود الذي مارسه الإمام علي عليه السلام للقضاء على أبرز مشركي قريش في حينه والتمثل بـ (عمرو بن عبد ود)^(٢) الذي وصفه جورجيو بقوله: «فبالإضافة إلى شجاعته كان ذا جسم ضخم، وقد استطاع في أثناء محاولته أن يجرح علياً بسيفه مرتين، بيد أن علياً لم يكن ذلك الرجل الذي ينسحب من ساحة الحرب بسبب جرحين... عندئذ دنا علي منه وضربه بسيفه ضربة قضت عليه، وقد كان يرتدي درعاً ثمينة بحلقات ذهبية، ففكها عنه، وأرسلها إلى أخت عمرو حتى لا يظن أحد إنّه قتله ليربح هذا الدرع»^(٣).

وفي ذكر معركة خيبر فقد بين (جورجيو) أحداثها مبرزاً الدور القيادي للإمام علي عليه السلام فيها بعد أن عجز غيره من الصحابة حسم نتيجة المعركة، حيث أنتخب الإمام علي عليه السلام من بينهم وسُلم اللواء لشجاعته وصبره، وكان أرمداً العينين حين بلغه أمر القيادة ومع ذلك فقد وافق وأقدم على محاصرة قلعة خيبر^(٤).

وتابع جورجيو حديثه بالقول: «ومع إنَّ عيني علي مريضتان، ولم

(١) نظرة جديدة، ص ٢٦٤.

(٢) عمرو بن ود العامري من بني لؤي من قريش، فارس وشجاع في الجاهلية، أدرك الإسلام ولم يسلم، قتل في معركة الخندق سنة (٥٥هـ) على يد الإمام علي، انظر، الزركلي، الأعلام، ٨١/٥.

(٣) نظرة جديدة، ص ٢٩٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٣١.

يكن على جسمه درع، فإنه بارز هذا المدجج [مَرْحَب] بالحديد وقتله وبعد ذلك أمر علي أن يحطّموا باب القلعة... وبعد يومين سقطت قلعة نطاة... وهكذا الثانية واسمها «ناعم» ولم تمض عشرة أيام إلا وعلي قد ذلّ أربع قلاع. وقد بارز علي في هذه الأيام العشرة ستة عشر مبارزاً، فقتل فيها خصومه أو جرحهم جراحاً منعتهم من الاستمرار في المبارزة»^(١).

وأضاف جورجيو، حين سقطت آخر قلعة من قلاع خيبر كان النبي محمد ﷺ قد بلغه ما أحرزه الإمام علي ﷺ من انتصار باهر، فقَبَّله بحضور المسلمين ودعاه بـ «أسد الله» وغدا ذلك لقباً له^(٢).

ويمكن الإشارة إلى نقطة واحدة في كلام (جورجيو)، فقد ذكر بأن عيني الإمام علي ﷺ كانتا مريضتين في أثناء المعركة بينما ذكرت بعض مصادرنا الإسلامية بأن عينيه قد شفيتا قبل نزوله المعركة، بعد أن مسح عليهما النبي (محمد ﷺ) ودعا له^(٣).

وذكر (جورجيو) حادثة يهود بنو قريضة الذين نقضوا العهد مع المسلمين وحاولوا التآمر عليهم بمساعدة مشركي قريش في معركة الخندق بالالتفاف من خلف المسلمين، ولكن حين رأى بنو قريضة إنَّ المشركين رحلوا، وتفرغ لهم المسلمون، أحسو بالخطر يداهمهم من المسلمين لخيانتهم لهم، فتحصنوا في قلاعهم ومنازلهم. وتفرس النبي ﷺ في وجه ابن عمه علي ﷺ فرأى فيه إخلاصاً صادقاً، وبطولة نادرة أثبتتها في معركة أُحُد والخندق، لذا أوكل إليه أمر بني قريضة، فاتجه إليهم ومعه كوكبة من المجاهدين، وبعد أن حاصرهم علي ﷺ عرض عليهم أن يدخلوا في دين الله، فاجابوه:

(١) نظرة جديدة، ص ٣٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٣٣.

(٣) انظر، الواقدي، المغازي، ٦٥٤/٢؛ الطبري، تاريخ، ١٢/٣.

«نحن لا نعترف محمد نبياً ولن ندخل في دينه لأنه عربي ولا يكون النبي من العرب، بل يكون من بني إسرائيل»، واستمر حصار يهود بني قريظة أربعة أسابيع ويروى ستة، مما جعل أغذيتهم تنفذ، فنادى كعب بن أسد، رئيس بني قريظة من وراء قلعته: «يا علي، يفتقد أبناؤنا إلى اللبن، لأن أئداء إمهاتهم جافة، لعدم وجود ما يأكلنه»^(١).

ومن المستشرقين الآخرين الذين حاولوا الوقوف على شجاعة الإمام علي عليه السلام هو (أميل درمنغهم)، فقد ذكر دور الإمام علي عليه السلام في معركة أحد من خلال القول الآتي: «مما حدث إن أبا سعد بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين تحدى المسلمين... فخرج إليه علي بن أبي طالب، فاختلفا ضربتين فضربه علي فصرعه، ثم انصرف عنه ولم يجهز عليه لأنه استقبله بعورته فعطفته عنه الرِّحْمُ»^(٢).

ثم أشار (درمنغهم) إلى المنازلة التي دارت بين الإمام علي عليه السلام وعمرو بن عبد ود العامري أثناء معركة الخندق وكيف تمكن الإمام عليه السلام من التخلص منه بمهارة^(٣).

وأهم ما يمكن ملاحظته على ما كتبه (درمنغهم) بصدد الموضوع هو إنه لم يتطرق إلى كل المعارك التي اشترك فيها الإمام علي عليه السلام من أجل نشر الدعوة الإسلامية، كذلك لم يشر إلى المصادر التي استقى منها معلوماته.

وكان المستشرق الفرنسي (آتين دينيه) قد ذكر معركة واحدة فقط كان الإمام علي عليه السلام قد اشترك فيها من بين المعارك التي خاضها للدفاع عن الإسلام وهي معركة خيبر، وقد وصفه فيها بأنه لم يَخَفْ ولم يضطرب رغم غرور خصمه (مرحب)، بل تقدم متحدياً إياه قائلاً:

(١) جورجيو، نظرة، ص ٣٠٠ - ٣٠١.

(٢) حياة محمد، ص ٢٥٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧١.

انا الذي سمتني أمي حيدرة ضرغام أجام وليث قسورة^(١)

وعرض (دينيه) تفاصيل النزال الذي دار بين الإمام علي عليه السلام ومرحب، وهذا جانب مما قاله: «ولم يترك علي لعدوه فسحة من الوقت لانتشال سيفه، بل أمسك عن ترسه، الذي أصبح ولا فائدة منه، ثم حمل علي غريمه بضربة قوية كسرت مغفر مرحب، ونفذت إلى عمامته فشقتها وإلى رأسه فهشمته، وانتشر مَحَّه على الأرض ولم يتوقف السيف إلا عندما بلغ الأضراس، فَخَّرَ العملاق صريعاً»^(٢).

أما المستشرق (ميور) فقد خصص جانباً مما كتبه للحديث عن معركة بدر الكبرى ومعركة أحد ولكن باختصار، حيث بدأ بتوضيح عملية الاستطلاع لمعركة بدر التي قام بها مجموعة من المسلمين بقيادة الإمام علي عليه السلام وتمكنهم من الإمساك برجلين من المشركين حصلوا من خلالهم على المعلومات المتعلقة بأعداد المشركين ومعداتهم، بعد ذلك تحدث عن سير المعركة ودور الإمام علي عليه السلام والحمزة عليه السلام فيها^(٣).

وأشار (ميور) إلى موقف الإمام علي عليه السلام في معركة أحد، بهذه العبارة:

«سقط حامل لواء المشركين صريعاً بسيف علي، وسقط كذلك ابنه وإخوته، وعددهم خمسة، واحداً تلو الآخر، بسيف علي، عندما كانوا يتصارعون لحمل اللواء»^(٤).

(١) ذكر الطبري بيت الشعر هذا على النحو التالي:

أنا الذي سمتني أمي حيدرة أكيلكم بالسيف كيل السُنْدَرَة

والسندرة مكيال كبير، انظر، الطبري، تاريخ، ٥٨٠/٢.

(٢) محمد رسول الله، ص ٣٠٥.

(٣) SiR. William Muir, Mahomaet and Aslam, P. 103

(٤) Ibid, P,108.

وعلق (ميور) في نهاية حديثه بقوله: «وكان علي متألماً ورائعاً بريشته البيضاء الطويلة»^(١).

وحاول مستشرق آخر الإشادة بالموقف البطولي للإمام علي عليه السلام في معركة خيبر، عندما تمكن من اقتحام حصن خيبر في الوقت الذي لم يتمكن غيره من الصحابة من دخول الحصن، عند ذلك أعلن النبي محمد صلى الله عليه وسلم أنه سوف يعطي الراية غداً (لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله)، وكان هذا الرجل هو الإمام علي عليه السلام، وعلق هذا المستشرق على قول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بحق الإمام علي عليه السلام بأنه يظهر ميلاً شيعياً^(٢).

وتابع كلامه بأن الإمام علياً عليه السلام قام بقتل رئيس جماعة اليهود ويعني به (مرحب)، بضربة سيف واحدة، وقال أيضاً:

«وأثبت علي مرة أخرى قوته البدنية الاستثنائية. حيث عندما فقد ترسهُ قام باقتلاع أحد أبواب الحصن من مفاصله ودافع عن نفسه به وكان الباب ثقيلًا جداً إلى درجة أنه احتاج إلى ثمانية رجال لكي يتعاملوا معه. وأظهر علي بسالة وشجاعة في بدر وأحد [ويقصد قبل معركة خيبر]، لكن هذه الحقائق أذهلت المسلمين، وكان هذا أحد الأسباب التي جعلت الفتوة من علي نموذجاً أصلياً وجعلته من الأبطال»^(٣).

وكتبت المستشرقة (فاجلييري) بحثاً عن الإمام علي عليه السلام وخصصت جانباً من هذا البحث لمآثره العسكرية، وذكرت بأن الإمام علياً عليه السلام قد اشترك في كل الحملات العسكرية تقريباً كحامل لواء خلال حياة النبي صلى الله عليه وسلم وكان دائماً مظهراً من مظاهر الشجاعة وفيما بعد أصبحت شجاعته نموذجاً ملحمياً وقام في معركة بدر بقتل عدد كبير من القرشيين،

Ibid, P. 109

(١)

The Encyclopedia of Aslam, New Edition, Vo,V1. P. 1140

(٢)

Ibid, Vo, VI. P. 1140

(٣)

وفي معركة خيبر استعمل أحد الأبواب الثقيلة كدرع له، وكان نصر المسلمين على اليهود نتيجة لحماسته، وفي (حينين) سنة ٨هـ / ٦٣٠م كان أحد أولئك الذين دافعوا عن الرسول ﷺ بشجاعة^(١).

أما المستشرق (تور أندريه Tor Andrae) فقد مر مرور الكرام على أحداث معركة بدر الكبرى، إذ ذكر أن المسلمين قد ربحوا هذه المعركة وانهزم القرشيون، وسقط منهم تسعة وأربعين قتيلاً، كان اثنان وعشرون منهم على يد الإمام علي عليه السلام بمفرده أو بمساعدة أفراد آخرين، وتم أسر عدد مساوٍ لعدد القتلى، فيما خسر المسلمون أربعة عشر رجلاً^(٢).

وعلى ما يبدو أن (تور أندريه) قد أخذ برواية ابن هشام فيما يتعلق بإحصائية عدد القتلى من الطرفين^(٣).

وكان المستشرق كونسلمان قد ذكر بأن الإمام علي عليه السلام قد أثبت حنكة وصلابة في حياة الرسول محمد ﷺ، وكان مقاتل يعرف كيف يستخدم سيفه ذا الفقار^(٤).

وأغفل المستشرق (أرفنج) بشكل ملحوظ ذكر المعارك التي شارك فيها الإمام علي عليه السلام في دفاعه عن الإسلام، سوى معركتي خيبر والخندق، وكانت الإشارة إليهما عابرة، فعند حديثه عن معركة الخندق وإشارته إلى تمكن المشركين من اختراق نقطة ضعف في الخندق وتحديدهم للمسلمين، ذكر بأن أول من قبل التحدي هو الإمام علي عليه السلام وسعد بن معاذ^(٥)، وبدأ علي عليه السلام المبارزة مع عكرمة بن أبي جهل على

(١) Vaglieri, the Encyclopedia of Aslam, Vo. 1. p. 381

(٢) Andrae, Tor, Mohammed the man and his faith, London, 1935, p. 195.

(٣) انظر ابن هشام، السيرة، ٧٠٨/٢ - ٧١٤، لمعرفة تفاصيل الموضوع.

(٤) انظر، سطوع نجم الشيعة، ص ٢٥.

(٥) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس الأوسي الأنصاري، أسلم على يد الصحابي مصعب بن عمير، وكان من الأبطال وشهد بدرًا، وأحدًا وكان ممن ثبت فيها، استشهد في معركة الخندق سنة (٥٥هـ) أثر إصابته بسهم، وروي إن العرش اهتز لموته وقيل =

ظهور الخيل ثم ترجلا، ثم بالأيدي إلى إن تمكن الإمام علي عليه السلام من خصمه ففر هارباً، وانتهت المعركة بانسحاب المشركين، وفي أثناء ذلك عثر حصان المُشرك نوفل بن عبد الله القرشي وسقط في الخندق فهاجمه المسلمون بالتبادل لكنه تحداهم بالمبارزة ففاز الإمام علي عليه السلام فوراً إلى داخل الخندق ليسقط نوفل سريعاً بسيفه بعد مبارزة قصيرة، بعد ذلك عاد الإمام علي عليه السلام ليشارك قواته بملاحقة فلول خصومه المنهزمة^(١).

وعندما تحدث أرفنج، عن معركة خيبر وضح الصعوبة التي واجهت المسلمين في اختراق الحصن لعدة أيام فقد ذكر بأن أبا بكر قد هجم ولكنه اضطر إلى التراجع بعد قتال جريء، وتبعه في اليوم الثاني عمر بن الخطاب الذي قاتل حتى غياب الشمس دون تحقيق نجاح أفضل، أما الهجوم الثالث فقد قاده الإمام علي بن أبي طالب حاملاً بإحدى يديه سيف الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ذا الفقار وبيده الأخرى العلم الإسلامي المقدس، فوصفه الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم «برجل يحبه الله ورسوله لن يرجع حتى يفتح الله له»^(٢).

وقال أرفنج بعد فتح خيبر: «والمؤرخون العرب ذهبوا إلى تضخيم حدث فتح «خيبر» فضخموا بطلهم المختار لهذا الفتح فوصفوه... وهو يتسلق مع أتباعه الصخور الشاهقة التي يقع الحصن بأعلاها، ثم ركز رايته على قممتها، مصمماً على عدم التراجع حتى تسقط القلعة. فخرج إليه اليهود لرد هجومه، واشتبكوا مع جماعته بقتال السلاح الأبيض، فقاتل

= فرحاً من الملائكة بقدمه، وكان عمره قد بلغ السبع والثلاثين ودفن بالبقيع، انظر، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن (ت ٥٩٧هـ)، صفة الصفوة، تحقيق، إبراهيم رمضان وسعيد اللحام، دار الكتب العلمية، ط ٤ (بيروت - ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م)، ١/ ٢٣٦؛ النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ١/ ٢١٤.

(١) انظر، أرفنج، محمد و خلفاؤه، ص ٢٨٣، ٢٨٢

(٢) المصدر نفسه، ص ٢ - ٣.

«علياً» ﷺ قائدهم «الحارث» وصرعه، فتقدم أخاه «مرحب» ليثأر لقتله»^(١).

وواصل أرفنج حديثه عن النزال الذي دار بين الإمام علي ﷺ و(مرحب) وكيف استطاع الإمام وبشجاعة أن ينتصر عليه وأن يجعل من باب الحصن درعاً له بعد أن فقد درعه^(٢).

ومن الأمور الأخرى التي ناقشها (أرفنج) هو بعثة الإمام علي ﷺ إلى اليمن ليتولى الولاية والقضاء هناك، فقد ذكر بأن هذا القائد الشاب ويعني به الإمام علي ﷺ كان يواجه مهمة صعبة وكان تحت أمرته رجال أكبر منه سنّاً، ولم يكن له ممارسة في القضاء، لذلك دعا له الرسول ﷺ الله سبحانه وتعالى أن يهدي لسانه ويثبت قلبه، وعندما وصل إلى منطقة الهراطقة في اليمن، «بدأت قواته تغزو وتدمر على الطريقة العربية، لولا أن «علياً» ﷺ وجههم إلى اعتقال الفارين من وجههم من السكان لشرح الإسلام لهم، ولأن لسانه استمد هديه من دعاء الرسول ﷺ له، انطلق بالدعوة لهم بالبينه، لكن بعضهم اجابه بالرمح والسيف، مما اضطره إلى إعمال السيف بهم حتى يعطوا آذاناً صاغية، وكان علي ﷺ بارعاً بهذا الأمر براعته بتأكيد القول بالفعل، وقد بدأ بقتل عشرين من المعارضين، تبعه بمثل هذا المنهج حتى استطاع أن يخضع أسمعهم إلى ما سوف يقول، وبذلك تُسمع كلمة الحق بإزاء عناد الإنسان، وبذلك فقط يتمكن الإيمان من الوصول إلى الاسماع، وهذا هو منهج الإسلام بالسيف في نشر العقيدة؟!»^(٣).

ويمكن لنا مناقشة ما قاله (أرفنج) من وجهين :

الأول فيما يتعلق بقوله: «بدأت قواته [أي قوات الإمام علي ﷺ]

(١) انظر، أرفنج، محمد وخلفاؤه، ص ٣٠٢ - ٣٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٠٨، ٤٠٩.

تغزو وتدمر على الطريقة العربية»، ففي هذا القول تعميم على أن الطابع المميز للفتوحات الإسلامية هو الغزو والتدمير، وفيه مجانبة للحقيقة التي أشار إليها (أرفنج) نفسه في نهاية كلامه عن بعثة الإمام علي عليه السلام إلى اليمن، أما الوجه الثاني فيمكن أن نصف قول (أرفنج) بأنه كان يحمل تناقضاً ملحوظاً، فلو دققنا في قوله: «وبذلك تسمع كلمة الحق إزاء عناد الإنسان، وبذلك فقط يتمكن الإيمان من الوصول إلى الأسماع. وهذا هو منهج الإسلام بالسيف في نشر العقيدة؟!»، فنجد إنَّ أرفنج قد أعطى المبرر لاستخدام السيف في حالة عناد الإنسان وعدم انصياعه لأمر الحق.

وكان المستشرق (جان بروا) قد تطرق إلى شجاعة الإمام علي عليه السلام ومقدرته الحربية في معركة خبير بأسلوب قصصي مشوّق، بعد أن وضع عدم مقدرة كل من أبي بكر وعمر في الوصول إلى قلاع خبير، فحين ذاك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم حسب تعبير (بروا): «غداً أعطي الراية لفتى يحبه الله ورسوله، ليس بفرار يفتح الله عليه الحصن»، فاضطجع المجاهدون في مضاربهم، وكل يحلم بفتح الحصن على يديه، وكل يأمل أن يكون هو ذلك الرجل الذي يحبه الله ورسوله، وما إن انتهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم من صلاة الفجر، فاتّجهت العيون صوبه ينتظرون من سيجعل الله على يديه فتح الحصن^(١) بعد ذلك يقول بروا:

«- علي! علي! ينظر المسلمون جميعاً شطر أبي الحسن ويتجه علي صوب النبي وقد وضع يده على عينيه لشدة وطأة الرمد، فيعطيه الراية ويشره بالفتح ويأمره بالذهاب وعلي يستمع، ولما تزل يده على عينيه، ثم طلب إليه أن يدنو منه فمسح له على عينيه، فارتد كأحسن ما كانت عيناه جلاءً وصفاء فيستطير أبو الحسن (أسد الله) فرحاً ويمتطي سهوة جواده»^(٢).

(١) انظر، محمد نابليون السماء، ص ٨٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٨.

بعد ذلك يستغرب (بروا) مما جرى للحصن على يد الإمام علي،
بالقول:

«ما بال الحصن يبدو في هذا اليوم متظامناً منخذلاً قد انكمش على
نفسه فرقاً؟؟!!»، لقد تراءى جناحا النسرين يسدان فضاء الحصن بالشكيمة
والبأس، ويملأنه رعباً ويرجاناه رجّةً عنيفة كادت تكبّه على قرنيه، رجه
زلزلته زلزالاً»^(١). بعد ذلك يضيف:

«اقترب البطل علي وملئ ثوبه العزيمة ومعجزة النبوة وبشرى الفتح،
اقترب بهديره وزئيره وجنوده من خلفه والراية ترفرف في يديه، راية النصر
المؤكد والفتح المبين»^(٢).

أما المستشرق الفرنسي (كاراديفو) فتراه قد اهتم بذكر وقائع بعض
المعارك التي خاضها الإمام علي عليه السلام ودوره في حسم نتائجها، وفي
مقدمتها معركة بدر الكبرى التي قال عنها كاراديفو:

«كان علي وهو في العشرين من عمره، يشطر الفارس القرشي
شطرين اثنين بضربة واحدة من سيفه»، أما عن معركة أحد التي خسرها
المسلمون قال كاراديفو: «تسلح بسيف النبي ذي الفقار فكان يشق المغافر
بضربات سيفه ويخرق الدرع»^(٣).

وفيما يتعلق بمعركة خيبر، أشاد بدور الإمام علي عليه السلام فيها بقوله:
«قلقل علي بيديه باباً ضخماً من حديد... ثم رفعه فوق رأسه متخذاً
منه ترساً مجناً»^(٤).

(١) انظر، محمد نابليون السماء، ص ٨٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج ٥/٢٣٦.

(٤) المصدر نفسه.

ما ذكره كاراديفو من قول بشأن معارك الإمام علي عليه السلام لا يتلاءم مع
أحداثها ولا سيما معركة خيبر على الرغم من أنّ ما ذكره كان ذو دلالة
واضحة على إنصافه وإعجابه بفروسية الإمام علي في الحروب.

الفصل الثالث

موقف المستشرقين من الخلافة

مدخل

لا يختلف اثنان على أهمية موضوع الخلافة في التأثير على مسار التاريخ الإسلامي، ولا نبالغ إذا ما قلنا بأن إثارةها قد امتدت لآفاق المعرفة لتسهم بشكل أو بآخر في رسم إطار العلاقة فيما بين المسلمين أنفسهم، إذ إن تأثيرها السلبي أكثر وضوحاً في حياة المسلمين من تأثيرها الإيجابي وذلك لأن مفهوم الخلافة اختلط بمفهوم السلطة والسيطرة على شؤون الدولة منذ أحداث السقيفة التي كان من نتائجها وضع أسس للخلافة أضرت تاريخياً بالإسلام والدليل التاريخي على ذلك هو الأحداث التي شهدتها الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة وما أعقب ذلك من أحداث.

انطلاقاً من هذه الأهمية أولى الباحثون في التاريخ الإسلامي عرباً أو غربيين هذا الموضوع اهتماماً يستحق الوقوف عنده والبحث فيه، ولا سيما المستشرقون الذين حملوا انطباعاً عن الخلافة قد يكون مستمداً من رؤية بعض مؤرخينا المسلمين، أو أنه ناجم عن خلفيات مسبقة حملها هؤلاء المستشرقون وألقت بظلالها على نتائج بحوثهم في هذا الاتجاه.

ولغرض الوقوف على مواقف بعض المستشرقين إزاء موضوع الخلافة فقد خصص الباحث هذا الفصل الذي يتضمن عرضاً وتحليلاً لبعض نتاجات هؤلاء، ومقارنة ذلك مع ما ورد في بطون بعض مصادر التاريخ الإسلامي ومراجعته، للخروج بالنتائج المرجوة التي يمكن من خلالها تقييم موقف هؤلاء المستشرقين من الخلافة بشكل واضح.

تمهيد الخلافة مفهوماً وممارسة

يرى الباحث محمد جواد مغنية أنّ حاجة الناس إلى قائد يتولى إدارة شؤونهم العامة لا يحتاج إلى دليل، لأن الإنسان اجتماعي بطبعه ولا يمكن لأي فرد في المجتمع أن يؤدي دوره في الحياة بمعزل عن الآخرين. ويمكن تلمس بعض مظاهر هذه الصفة حتى عند الحيوانات والطيور والنحل، فضلاً عن الحشرات كالنمل، وهذه الحاجة واضحة للعيان ويحس بها الإنسان كإحساسه بالحاجة إلى الطعام والشراب، ولهذا يكون الاستدلال عليها ضرباً من الفضول على حدّ تعبير هذا الباحث، وبصرف النظر عن شكل الحكم الذي ينبثق عنه القائد، سواء كان دينياً أم زمنياً، جمهورياً أم ملكياً^(١).

وذكر الباحث محمد المري كلاماً يندرج في إطار المضمون نفسه مفاده: إن لكل إنسان حقوقه الطبيعية في الحياة ومنها حق الحصول على الطعام والشراب وحق السكون والحركة والمشي والجلوس والنوم، كذلك إنّ له حقوقاً سياسية كإبداء الرأي وحق اختيار من يمثله في الحكم، وكل هذه الحقوق وغيرها ضرب من الحرية، وهي حقوق ثابتة ومقدسة ما لم تصل إلى حدّ الاعتداء على حرية الغير، ويضيف هذا الباحث قائلاً:

«إنّ حكم إنسان لإنسان وحده من حريته وتسلطه عليه وإدارته شؤونه

(١) انظر، إمامة علي والعقل، دار نشر السجدة، (قم - ٢٠٠٣م)، ص ٥٦.

العامّة أمر مخالف للحقوق الطبيعيّة التي هي ثابتة لكل فرد ولن يصح ذلك إلا بإذن من مالك تلك الحقوق وتوكيله إياه في إدارة شؤونه وتسليطه إياه على نفسه ومصالحه وأمواله وحقوقه»^(١).

وأهم ما يمكن تشخيصه من الكلام المتقدم للباحث الأول هو أنّ الحاجة إلى الحاكم هي ضرورة اجتماعية مُلِحّة، ولما كان الخليفة قد جمع السلطتين الدنيوية والدنيوية فإن مهمته بلغت أقصى واجبات الحكم.

أما أهم ما يمكن استخلاصه من كلام الباحث الثاني هو أنّ اختيار الحاكم يجب أن يتم على وفق رغبة الرعية، ويمكن التعبير عن هذه الرغبة بأفضل ما يمكن باختيار الشخص المؤهل والأمين على إدارة شؤون الناس الدنيوية والدنيوية، الحريص على مصالحهم، وهذا الكلام ينطبق عندما يتم اختيار خليفة للمسلمين قبل غيره من الحكام الدنيويين، الذين يتم اختيار أغلبهم على وفق المعايير الاجتماعية التي قد تتماشى مع المبادئ الإسلامية.

والجدير بالقول أنّ توضيح مفهوم الخلافة يقودنا بالضرورة إلى توضيح مفهوم الإمامة، بوصفهما مفهومين متداخلين، يعينان في واحد من معانيهما المشتركة؛ أن يحلّ شخص ما محلّ شخص آخر عند الوفاة ليتولى إدارة أمور المسلمين، ويمكن أن تكون الخلافة دنيوية أمّا الإمامة فهي دينية خالصة.

فالخلافة في اللغة من (خلف - يخلف - أخلف) ومصدرها خلافة، فيقال: (خلفه خلافة، أي أصبح خليفته وبقي بعده، والجمع خلائف أو خلفاء)^(٢).

(١) انظر، الخلافة في الدستور الإسلامي، مطبعة الاتحاد، (بيروت - ١٩٤٦م)، ص ٧، ٨.

(٢) انظر، الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ). القاموس المحيط، دار

الجيل، (بيروت، د.ت)، ص ١٤٢.

أما في الاصطلاح فقد أخذت الخلافة عند اللغويين والمفسرين معاني متعددة، أهمها، قول الفراهيدي (ت ١٧٥هـ): «الخليفة من استخلف مكان من قبله، ويقوم مقامه»^(١).

وذكر الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) بأن الخلافة هي: «النيابة عن الغير إما لغيبه المنوب عنه وأما لموته، وأما لعجزه، وأما لتشريف المستخلف»^(٢).

في حين نقل ابنُ منظور (ت ٧١١هـ/١٣١١م) وجهة نظر غيره عن الخلافة بقوله إنها: «الإمارة، قال الزجاج^(٣) جاز أن يقال للأئمة خلفاء الله في أرضه، وقال غيره: الخليفة: السلطان الأعظم»^(٤).

والخلافة في نظر ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) عند تفسيره الآية الشريفة:

﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾^(٥).

(١) الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ)، العين، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي، مؤسسة دار الهجرة، مطبعة الصدر، (قم - ١٤١٠هـ)، ج ٤/٢٦٧.

(٢) أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة للطباعة، (بيروت - د. ت)، ص ١٥٦.

(٣) الزجاج، هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سري بن السهل الزجاج النحوي، كان من أهل العلم والأدب، صنف كتاباً في معاني القرآن، وله كتاب «الألمالي» وغيره، وكان يخرط الزجاج، ثم تركه واشتغل بالأدب فنسب إليه، توفي يوم الجمعة، التاسع عشر من جمادى الآخرة سنة عشر وقيل سنة إحدى عشر، وقيل سنة ست عشرة وثلاثمائة للهجرة، انظر، ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٤١٩هـ)، مجلداً، ص ٧٤، ٧٥.

(٤) جمال الدين أبو الفضل (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، (بيروت - ٢٠٠٥م)، مجلد ٤٩٧.

(٥) سورة ص، الآية: ٢٦.

قال: «هذه وصية من الله ﷻ لولاية الأمور»^(١). فهذا يعني أنّ ابن كثير قد فسّر كلمة خليفة بولي الأمر.

وقال ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م): «الخلافة: نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به، والقائم به خليفة»^(٢).

وتطرق بعض الباحثين المحدثين إلى ما يعنيه مصطلح الخلافة، فقد قال أحدهم بأن الخليفة هو الشخص الذي يتولى إدارة شؤون المسلمين ورياسة دولتهم بعد وفاة الرسول محمد ﷺ، وسمي خليفة كونه قد خلف الرسول ﷺ بهذه المهمة^(٣).

وأهم ما يمكن استنتاجه من التعريفات السابقة لمصطلح خلافة أو خليفة هو أنّ البعض وهم الأكثرية يعتقدون بأن الخلافة تتم في حالة وفاة الشخص المخلوف أو غيابه في مهمة ما، أما البعض الآخر وهم القلة، فقد اعتقدوا بأن مهمة الخليفة تبدأ بعد وفاة المخلوف.

من جانب آخر وجدنا أنّ الخلافة قد أخذت عند ابن منظور معنى الإمارة أو السلطان الأعظم، أو خليفة الله في الأرض^(٤)، وهذا يعني أنه جعل للخليفة السلطتين، الدينية والدينيوية.

أما مصطلح الإمامة، فهو عند اللغويين والمفسرين قد احتمل الدلالات الآتية:

فكلمة إمام في اللغة عند ابن منظور، من أمّ في الأصل، ومعناها:

-
- (١) إسماعيل (ت ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، (بيروت - ١٤٠٦هـ)، ٣٥/٤.
 - (٢) عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)، المقدمة، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٤١٣هـ)، ص ١٥١.
 - (٣) انظر، يعقوب، أحمد حسن، النظام السياسي في الإسلام، مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر، (قم - ١٤١٢هـ)، ص ١٧.
 - (٤) لسان العرب، مجلد ٤٩٧.

الرئيس، أو الدليل الذي يقود القافلة، وهي مرادفة لكلمة الهادي، ومنها كل شخص أو شيء يتخذ دليلاً أو قدوة^(١).

وفي الاصطلاح، فيرى ابن منظور أن الإمام: «كل من ائتم به قوم... وسيدنا رسول الله ﷺ إمام أمته، وعليهم جميعاً الائتتمام بسنته»^(٢).

وقال الفراهيدي: «كل من اقتدي به، وقدم في الأمور فهو إمام، والنبي ﷺ إمام الأمة، والخليفة إمام الرعية»^(٣).

والإمام عند الراغب الأصفهاني: «المؤتم به إنساناً كان يقتدى بقوله أو فعله، أو غير ذلك محققاً كان أم مبطلاً، وجمعه أئمة»^(٤).

وهناك قول للإمام علي بن موسى الرضا ﷺ (ت ٢٠٢هـ/٨١٧م)، يوضح فيه فحوى الإمامة بأنها: «منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء، أنّ الإمامة خلافة الله ﷻ وخلافة الرسول ومقام أمير المؤمنين وميراث الحسن والحسين ﷺ أنّ الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين... أنّ الإمامة أسس الإسلام النامي وفرعه السامي...»^(٥).

وأوضح الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ/١٠٦٧م) معنى كلمة إمام بقوله: «وقولنا: إمام يستفاد منه أمران: أحدهما إنه مقتدى به في أفعاله

(١) انظر، لسان العرب، مجلد ٧، ص ٢٣، ٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢، ٢٣.

(٣) العين، ج ٨/٤٢٨.

(٤) المفردات في غريب القرآن، ص ٢٤.

(٥) الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين (ت ٣٨١هـ) عيون أخبار الرضا، تحقيق الشيخ حسين الأعلمي، منشورات مؤسسة الأعلمي، (بيروت - ١٩٨٤م)، ج ٢/١٩٦، ١٩٧؛ الحراني، أبو محمد الحسن بن علي (ت القرن الرابع الهجري)، تحف العقول عن آل الرسول، تحقيق حسين الأعلمي، منشورات مؤسسة الشريف الرضي، مطبعة شريعت، (قم - ١٤٢١هـ)، ص ٣٢٣.

وأقواله من حيث قال وفعل... والثاني إنه يقوم بتدبير الأمة وسياستها»^(١).
ووردت كلمة إمام من حيث الاصطلاح في القرآن الكريم لتدل على
معانٍ متعددة منها، القدوة والطريق المبين الواضح. والمقتدى وكذلك
بمعنى اللوح المحفوظ^(٢).

وخلاصة ما تقدم من قول بشأن الإمامة فإنها تعني القدوة وأن
القائم عليها يجب أن يكون قدوة في كل شيء، لا كما ذهب الراغب
الأصفهاني بأن الشخص المؤتم به يجب أن يقتدى بأقواله وأفعاله سواء
كانت حقاً أو باطلاً.

فالإمامة أو الخلافة في رأي أحد الباحثين المحدثين هي النظام
الذي جعله الإسلام أساساً للحكم بين الناس، لاختيار الأصلح من
المسلمين لتتجمع حوله كلمة الأمة وتتحده به صفوفها وتقام به أحكام
الشرعية^(٣).

(١) أبو جعفر محمد بن الحسين (ت ٤٦٠هـ)، الرسائل العشرة، مؤسسة النشر الإسلامي،
جامعة المدرسين، (قم - ١٤٠٣هـ)، ص ١١١، ١١٢.

(٢) انظر على التوالي، سورة البقرة/١٢٤، الحجر/٧٩، الفرقان/٧٤، يس/١٢.

(٣) انظر، مهران، محمد بيومي (الدكتور)، الإمامة وأهل البيت، مركز الغدير للدراسات
الإسلامية، ط ٢ (قم - ١٩٩٥م)، ج ١/٢٧ - ٢٨.

الإمامة والخلافة عند أهل السنة

إنَّ السمة المميزة لمفهومي الخلافة والإمامة عند علماء أهل السنة يغلب عليها الطابع السياسي والتنظيمي الذي يرمي إلى جعل كل شيء ممهداً لرئيس الدولة الإسلامية^(١). ونجد هذا المفهوم واضحاً عند الماوردي، فيشمل إقامة الحدود وتدير أمور الأمة، وتنظيم الجيوش، وتحصين الثغور، ورد المظالم، وحماية المظلوم، وقيادة المسلمين في حجهم وغزوهم وتقسيم الفيء فيما بينهم^(٢).

ومن جانب آخر يبين الماوردي الدور الخطير للإمام بشأن حراسة الدين بقوله: «فليس دين زال سلطانه إلا بدلت أحكامه، وطمست أعلامه، وكان لكل زعيم فيه بدعه، ولكل عصر فيه وهية أثر. كما أنَّ السلطان إن لم يكن على دين تجتمع به القلوب، حتى يرى أهله الطاعة فيه فرضاً، والتناحر عليه حتماً، لم يكن للسلطان لبث، ولا لأيامه صفو، وكان سلطان قهر ومفسد دهر، ومن هذين الوجهين وجب إقامة إمام يكون سلطان الوقت، زعيم الأمة، ليكون الدين محروساً بسلطانه، والسلطان جاريّاً على سنن الدين وأحكامه»^(٣).

(١) انظر، العوا، محمد سليم، في النظام السياسي للدولة الإسلامية، المكتب المصري الحديث، ط٦، (القاهرة - ١٩٨٣)، ص١٢٦ - ١٢٧.

(٢) انظر، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠هـ)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، (بيروت - د. ت)، ص١٨.

(٣) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠هـ)، أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، (بيروت - د. ت)، ص١١٣.

وعلى الرغم من هذا التزاوج الواضح بين سلطات السلطان الدنيوية وبين ما يجب أن يعتقده من دين، عند الماوردي إذ إنّ صلاح أحدهما لا يكون إلّا بصلاح الآخر، إلّا أنّ مسألة النظر في ولاية أمر المسلمين المتمثلة بالخلافة أو الإمامة لا تنسجم مع أهميتها العظمى هذه. فعندما صنف العلماء القدماء من أهل السُنّة فروع الدين وأحكامه، فلم يعدّوا الخلافة أو الإمامة من فروع الدين، والأنكى من ذلك إنهم كانوا دائماً يحثون على عدم الخوض فيها والكلام عليها، بحجة أن ذلك قد يجلب النقد، بحق الخلفاء ولا سيما الأوائل منهم^(١).

يقول الغزالي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م) بصدد ذلك: «اعلم إنّ النظر في الإمامة ليس من المهمات، وليس أيضاً من فنّ المعقولات، بل من الفقهيات، ثم إنها مثار للتعصبات، والمعرض عن الخوض فيها أسلم من الخائض وأنّ أصاب، فكيف إذا خطأ؟»^(٢).

وللامدي (ت ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م) رأي في ذلك مطابق لرأي الغزالي، يقول فيه:

«واعلم أنّ الكلام في الإمامة ليس من أصول الديانات، ولا من الامور الأبديّات بحيث لا يسع المكلف الإعراض عنها أو الجهل بها، بل لعمرى إنّ المعرض عنها أرجى من الواغل فيها، فإنها قلما تنقل عن التعصب، والأهواء، وإثارة الفتن، والشحناء، والرجم بالغيب في حق الأئمة والسلف بالإزراء، هذا مع كون الخائض فيها سالكاً سبيل التحقيق، فكيف إذا كان خارجاً عن سواء الطريق؟»^(٣).

(١) انظر، قاسم، أسعد (الدكتور)، أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة، مركز الغدير للطباعة والنشر، (بيروت - ١٩٩٧م)، ص ٣٣.

(٢) أبو حامد (ت ٥٠٥هـ)، الاقتصاد في الاعتقاد، تحقيق الدكتور علي بوملحم، دار الهلال، (بيروت - ٢٠٠٢م)، ص ٢٥٣.

(٣) أبو الحسن علي بن محمد بن سالم التغلبي (ت ٦٣١هـ)، غاية المرام في علم الكلام، =

ويمكن أن نستشف من هذه الأقوال السالفة بأن دور الإمامة أو الخلافة عند فقهاء أهل السنة كان ثانوياً وليس جوهرياً، والاعتقاد السائد لديهم هو عدم الخوض حتى في الكلام بهذا المضمون، لأن تعيين الخليفة أو الإمام متروك للناس في كل عصر ليختاروا من يشاؤون، استناداً إلى قوله تعالى: ﴿وَأْمُرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾^(١).

فهم يجوزون على الخليفة أو الإمام الجهل والخطأ إذا كان في الناس من هو يقوّم خطأه ويرده إلى الصواب ويهديه. وقد تصل التنازلات عن الشروط حدّاً لا يبقى معه شيئاً، وربما صيغت الشروط متأخرة كي تنطبق على الواقع المفروض^(٢)، كما لاحظنا ذلك فيما أورده الماوردي وغيره من كلام تعرضوا فيه لهذا الموضوع.

الإمامة والخلافة عند الشيعة الإمامية

يولي الشيعة للخلافة أو الإمامة اهتماماً واضحاً لارتباطه بالجانب الديني والديني في آنٍ واحد، ويبدو هذا الكلام واضحاً من خلال قول الإمام علي عليه السلام بشأن الإمام، الذي جاء فيه: «وإنما الأئمة قوام الله على خلقه، وعرفاءه على عباده، لا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه»^(٣).

وأوجب الإمام علي عليه السلام وجود الخليفة أو الإمام، فعندما نادى الخوارج بمقولتهم المشهورة «لا حكم إلا لله»، رد عليهم الإمام علي عليه السلام

= تحقيق، أحمد فريد المزيدي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م)، ص ٣٠٩.

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

(٢) انظر، العاملي، مصطفى قصير، الشورى والبيعة ودورها في انعقاد الإمامة الكبرى، المركز الإسلامي للدراسات، (بيروت - ١٤١٤هـ/١٩٩٦م)، ص ٢٧.

(٣) نهج البلاغة/الخطبة ١٥٢.

قائلاً: «كلمة حق يراد بها باطل، نعم إنه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلا لله، وإنه لا بدّ للناس من أمير»^(١).

فتعامل الشيعة الإمامية مع الإمامة أو الخلافة ينطلق من كونهما التكليف الإلهي الذي يتابع مسيرة النبي محمد ﷺ، ويؤدي الوظائف جميعها الملقاة على عاتقه، باستثناء مهمة الوحي الرسالي، باعتبار أنّ الرسالة قد اكتملت على عهد النبي محمد ﷺ، فيكون دور الإمام أو الخليفة هو تطبيق وتوضيح وتذكير الناس بما ورد في مضمون الرسالة، والإمام هو القدوة للأمة في كل ما للكلمة من معنى، والمرجع لها في جميع أمورها وشؤونها الدينية والدنيوية، ويجب أن يكون للإمام أو الخليفة معرفة تامة بالكتاب والسنة وفي إقامة الدين والعدل، والدفاع عن حرمة الإسلام^(٢).

ووصف أحد أعيان مؤرخي الشيعة الإمام بأنه «أمين الله في أرضه وحجته على عباده وخليفته في بلاده، الداعي إلى الله، والذاب عن حرم الله، الإمام المظّهّر من الذنوب، المبرّأ من العيوب، مخصوص بالعلم... ولا يعادله عالم... مخصوص بالفضل كله من غير طلب منه ولا اكتساب بل اختصاص من المفضّل الوهاب فمن ذا الذي يبلغ معرفة الإمام، ويمكنه اختياره؟ هيهات هيهات...»^(٣).

لذلك وانطلاقاً مما تقدم فإن الشيعة الإمامية يعدون الإمامة أصلاً من أصول الدين ولا يكتمل إيمان الفرد إلاّ بالاعتقاد التام بإمامة الأئمة أو الخلفاء المعينين من الله سبحانه وتعالى عبر رسوله الكريم ﷺ.

إنّ الاعتقاد السائد عند الشيعة الإمامية هو أنّ الإمام يجب أن

يكون:

(١) نهج البلاغة/الخطبة ٤٠، محمد عبده، شرح نهج البلاغة، ٩١/١.

(٢) انظر، العاملي، الشورى والبيعة، ص ٢٧ - ٢٨.

(٣) الصدوق، عيون أخبار الرضا، ١/٢، المجلسي، بحار الأنوار، ١٢٤/٢٥.

«أعلم الرعية وأفضلهم في خصال الفضل، لأن الله تعالى علل تقديمه عليهم بكونه أعلم وأقوى فلولا إنه شرط وإلا لم يكن له معنى»^(١).

ويجب على الإمام بالإمام بالسياسة لأن أمره ونهيه منوط بها. وكونه عالماً ليس مما يقتضيه مجرد العقل من غير استناد إلى شرع، إذ يجب أن يكون عالماً بجميع ما جعل إليه الحكم فيه^(٢).

ويذكر الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ) صفة مهمة يجب أن يتحلى بها الإمام وهي أن يكون معصوماً من القبائح والإخلال بالواجبات لأنه لو لم يكن كذلك لكانت الحاجة قائمة منه إلى إمام آخر، لأن الناس إنما يحتاجون إلى الإمام، كونهم غير معصومين^(٣).

وذهب الإمامية إلى أن الأئمة كالأنبياء في وجوب عصمتهم من جميع القبائح والفواحش من الصغر إلى الموت، عمداً وسهواً، لأنهم «حفظوا الشرع والقوامون به، حالهم في ذلك كحال النبي ولأن الحاجة إلى الإمام إنما هي لانتصاف المظلوم من الظالم ورفع الفساد»^(٤).

والإمامة عند باحث آخر هي أيضاً منصب إلهي كالنبوة، فيما أن الله سبحانه وتعالى يختار من يجده مناسباً للنبوة ويؤيد بالمعاجز، كذلك يختار للإمامة من يشاء ويأمر نبيه بالنص عليه، للقيام بالوظائف التي كان على النبي القيام بها باستثناء الوحي، وإنما يتلقى الأحكام منه مع تسديد

(١) الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)، التبيان في تفسير القرآن، تصحيح وترتيب، أحمد شوقي الأمين وأحمد حبيب قصير، المطبعة العلمية، (النجف - ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م)، ٢/٢٩٢.

(٢) انظر، الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)، تلخيص الشافي، مراجعة السيد حسين بحر العلوم، مطبعة الآداب، (النجف - ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م)، ١/٢٤٥.

(٣) انظر، الحكيم، حسن عيسى (الدكتور)، الشيخ الطوسي، مطبعة الآداب، (النجف - ١٣٩٥/١٩٧٥م)، ص ٤٣٢.

(٤) المظفر، محمد حسن (الشيخ)، دلائل الصدق، (قم - ١٣٩٥هـ)، ص ٣.

إلهي، فالنبي مبلغ عن الله تعالى، والإمام مبلغ عن النبي^(١).

والإمامة عند الشيعة الاثني عشرية متسلسلة في اثني عشر إماماً كل سابق بالنص على اللاحق ويشترط أن يكونوا معصومين من الخطأ، وبخلاف ذلك تزول الثقة بهم^(٢).

وبين أهم ما تعتقده الشيعة الاثنا عشرية هو أن الله سبحانه وتعالى لا يخلي الأرض من حجة على العباد، نبياً كان أو وصياً، ظاهراً أو مستتراً، وقد نص النبي ﷺ وأوصى إلى الإمام علي عليه السلام، ليوصي بدوره إلى ولده الإمام الحسن عليه السلام ثم أخاه الإمام الحسين عليه السلام، وهكذا حتى الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر (عجل الله فرجه)^(٣).

وعلى وفق رؤية الشيعة الإمامية للإمامة والخلافة فإن هناك تداخلاً واضحاً بين ما يقوم به الإمام والخليفة من واجبات وحقوق تجاه الناس عامة ويأتي في مقدمة تلك الواجبات دفع الظلم عنهم والحرص على إقامة العدل في الأرض تطبيقاً لشرائع السماء.

(١) انظر، كاشف الغطاء، محمد حسين، أصل الشيعة وأصولها، المكتبة الحيدرية، ط ٧

(النجف - د. ت)، ص ٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٥.

المبحث الأول

الدراسات الاستشرقية التي قالت بعدم استخلاف النبي ﷺ من بعده

من بين المستشرقين الذين ناقشوا موضوع الخلافة وتبنوا الموقف الذي يؤيد عدم استخلاف النبي محمد ﷺ، مقتنعين بهذا الموقف أو أنهم تأثروا بميول بعض مؤرخي الإسلام، هو المستشرق الفرنسي (سيديو) الذي ذكر بأن النبي محمد ﷺ لم يضع نظاماً لخلافته، مما أدى بالأطراف الطامحة لنيل الخلافة تفسير سكوته لمصلحة كل منهم، إلى الحد الذي دفع بعضهم إلى الاعتقاد بأن النبي محمد ﷺ قصد بعدم تعرضه لأمر خلافته أن يكون صهره وابن عمه علي بن أبي طالب ؑ خليفة له، وقيم (سيديو) هذا الموقف بالقول: «ولو قبل ذلك لحال دون ظهور ما ضَرَجَ القرن الأول من الهجرة بالدماء»^(١). وكان على هذا المستشرق مراجعة الأحاديث التي وردت عن الرسول محمد ﷺ فيما يتعلق بالخلافة.

وأضاف سيديو بأن الإمام علياً ؑ خشي أن يعارض نتائج ما آلت إليه الخلافة لحدائثة سنّه ولذلك لم يبرز في الميدان [المنافسة]، وتابع

(١) انظر، تأريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، (القاهرة - ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م)، ص ١٢٥.

سيديو ذكر أحداث خلافة أبي بكر، وادّعى أنّ «المصلحة العامة» هي التي أملت على الخليفة أبي بكر استخلاف عمر بن الخطاب الذي بدوره قد عهد إلى خمسة من الصحابة لانتخاب الخليفة من بينهم، وأقصى الإمام علي عليه السلام من الخلافة بـ (خدعة) ولم يتم اختيار الأجدر بها في سنة ٦٤٤م^(١).

وأكد سيديو أن اختيار الخليفة عثمان بن عفان كان من عمل بني أمية الذين وصفهم سيديو بأنهم سادة قريش الذين ناهضوا رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم عشرين سنة ولم يسلموا إلا لمصلحة، وشخص سيديو الخلل في أثناء خلافة عثمان بن عفان بالقول: «فلم يعرف عثمان كيف يدبر أمور سلطته بالحقيقة فنجم عن تراكم أغاليظه حدوث الكارثة التي أودت بسلطته وبحياته في سنة ٦٥٥م...، فاشتعلت الفتن في كل ناحية، ولم تكن لعلي ضلع في تلك المؤامرة، فلم يعارض أحد في اختياره للخلافة»^(٢).

وختم سيديو كلامه بوصف جميل للإمام علي عليه السلام، قائلاً: «وعلي هو من تعلم حرية الضمير وحضور المجالس المدينة مع ميله إلى القيام بشؤون حياته المنزلية الهادئة...، جمع زوج فاطمة في شخصه حقوق الوراثة وحقوق الانتخاب، ووجب على كل واحد أن ينحني أمام صاحب هذا المجد العظيم الخالص»^(٣).

وجاءت المستشرقة البولندية (يوجينا غيانة شتيسفسكا) لتأخذ بما جاء في كتابات غيرها حيث ذكرت بأن الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم عندما توفي بالمدينة بعد هجرته إليها لم يوص بالخلافة لأحد قبل موته، ولذلك وقع نزاع عقب موته بين المهاجرين والأنصار حتى قال بعضهم، منا أمير ومنكم أمير، فرأى عمر بن الخطاب أنّ الأمر سيشتد فبايع أبا بكر،

(١) انظر، سيديو، تاريخ العرب العام، ص ١٢٥، ١٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٦.

(٣) المصدر نفسه.

وذكرت (شتيسفسكا) خطبته ثم قالت: «لما حضرته الوفاة أوصى بالخلافة بعده لعمر وذلك لأنه رأى أنه [أي أبو بكر] صاحب الأمر ورئيس الأمة فله أن يستخدم بعده من يشاء، لأن الخلافة أمانة تحت يديه يجب أن يؤديها إلى من هو أهلٌ لها وقد فعل... وخاف على المسلمين أن يتفرقوا ويختلفوا إن هو ترك الأمر للشورى لأن كثيراً منهم يرون أنفسهم أهلاً للخلافة، فأراد أبو بكر أن يفصل في الأمر ليحمي المسلمين من الفتن فكان عمله هذا من السياسة الرشيدة الحكيمة»^(١).

ويمكننا مناقشة (شتيسفسكا) في مضمون رأيها هذا من خلال النقاط

الآتية:

١ - ذكرت بأن الخليفة أبا بكر قد استخلف لأنه كان صاحب الأمر ورئيس الأمة فله أن يستخدم بعده من يشاء. فهل إنَّ الخليفة أبا بكر أولى بالأمر والنبى محمد ﷺ لم يكن كذلك؟

٢ - قالت (شتيسفسكا) بأن الخلافة كانت أمانة تحت يدي الخليفة أبي بكر وعليه أن يؤديها إلى من هو أهلٌ لها. فهل يُعقل أن هذه الحقيقة كانت غائبة عن نبي الإسلام محمد ﷺ، أو أنه لم يجد الشخص المؤهل الذي يسلمه الأمانة؟

٣ - بينت (شتيسفسكا) إن سبب تعيين الخليفة عمر بن الخطاب خليفة لأبي بكر، هو خوفه على المسلمين أن يتفرقوا ويختلفوا إن ترك هو الأمر للشورى، وأراد أبو بكر بعمله هذا أن يحمي المسلمين من الفتن. وباعتقادنا إنَّ أول من وحد المسلمين وحرص على ضرورة إبعادهم عن كل الفتن، هو الرسول محمد ﷺ، لذلك من الإجحاف بحقه ﷺ أن يقال بأن غيره كان حريصاً على هذا الأمر أكثر منه. وهذا أمر غريب أن أبا بكر يؤشر على من يستخلفه خلافاً للشورى ويعين عمر من بعده ولا يخشى النبي هذا الجانب.

(١) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص ٣٧ - ٤٢.

وتابعت شتيفسكا التفصيل في موضوع الخلفاء الراشدين، فعندما تطرقت إلى خلافة الإمام علي عليه السلام ذكرت بأنه رابع الخلفاء الراشدين وترى في بيت النبوة وزوجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ابنته فاطمة عليها السلام ومع ذلك لم يرشحه للخلافة إبعاداً له عن السلطة الشخصية عن ساحة الإسلام، بل ترك أمر الخلافة شورى بين المسلمين يختارون من يريدون^(١).

ويبدو أن شتيفسكا في قولها هذا قد أوقعت نفسها في تناقض تام، ففي الوقت الذي أكدت في قولها السابق أن الخليفة أبا بكر لم يلجأ إلى الشورى عند تعيينه الخليفة عمر بن الخطاب خوفاً على المسلمين من الاختلاف والفرقة، تجدها تذكر فيما بعد بأن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم قد ترك أمر الخلافة شورى بين المسلمين يختارون من يريدون. فهل أن الشورى التي لم يستخدمها الخليفة أبو بكر قد اختلفت عن الشورى التي استخدمها الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟

وواصلت شتيفسكا الحديث عن خلافة الإمام علي عليه السلام. فقد ذكرت أن مصدر خلافته كانت الثورة على عثمان وإن بعض الثوار مالوا إلى توليته وعلى رأسهم عبد الله بن سبأ الذي وصفته بأنه أحد يهود اليمن الذين أسلموا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، الذي قام بدعاية منظمة لإحداث الفرقة في صفوف المسلمين في مدن واسعة من الدولة الإسلامية مثل مصر والبصرة والكوفة^(٢). ولا بد أن نذكر بأن شخصية عبد الله بن سبأ هي شخصية أسطورية، وأورد ذلك عدد من دارسي التاريخ^(٣).

(١) انظر، تأريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص ٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(٣) لغرض الوقوف على تفاصيل هذا الموضوع، انظر، حسين، طه، الفتنة الكبرى، دار المعارف، ط/٩ (القاهرة - ١٩٧٦)، ج ٤٦/٢؛ الوائلي، أحمد (الدكتور)، هوية التشيع، دار الكتب للمطبوعات، (بيروت - ١٩٨٧)، ص. العسكري، مرتضى، عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى، منشورات كلية أصول الدين، (بغداد - ١٩٦٨)، ص ٣٧ - ٥٦.

وفي محور أخير فَصَّلت (شتيسفسكا) في ذكر الأحداث السياسية والإدارية في عهد الإمام علي عليه السلام ومنها الإجراء الذي اتخذه بعزل الولاة الذين ولاهم الخليفة عثمان من قَبْل، ممن كانوا سبباً في الثورة واستياء الناس، رغم تحذير البعض له من اتخاذ مثل هذا الإجراء، ثم مبادرته باسترداد الإقطاعات التي كان الخليفة عثمان قد منحها لبعض المقربين منه، وكذلك اتباع الإمام علي عليه السلام الآلية التي طبقها الرسول صلى الله عليه وآله في توزيع العطاء، وقد وصفت (شتيسفسكا) هذه الإجراءات بقولها: «وكل هذا راجع إلى شدته في الحق وعدم المرونة السياسية التي يتبعها غيره من الرؤساء السياسيين. من أجل ذلك كان عهده عهد اضطراب في البلاد الإسلامية»^(١)

من الجدير بالذكر إنَّ إقدام الإمام علي عليه السلام على عزل ولاة عثمان كان من باب المسؤولية الإسلامية التي تفرض عدم المداهنة في الحق.

ولم يختلف المستشرق الإنكليزي (روم لاندو) عن سابقه في القول بأن وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وآله قد تركت الإسلام الوليد من دون قائد، مما أدَّى إلى تنافس ثلاث جماعات في مكة على الخلافة، وأولى هذه الجماعات قد أيدت الإمام علياً عليه السلام صهر محمد صلى الله عليه وآله وَعَدَّتْه الخليفة الشرعي الوحيد، ومما زاد أتباع الإمام علي عليه السلام أو العلويين تشبهاً بدعواهم على حدِّ تعبير (روم لاندو)، هو إيمانهم بأنَّ منطق الأشياء يحتم أن يكون الله (سبحانه وتعالى) قد قضى بأن يخلف النبي محمد صلى الله عليه وآله خلفاء من أقربائه الأذنين.

أما الجماعة الثانية الطامعة في الحكم التي ذكرها (روم لاندو) فهم الفرع السفيناني الذين سعوا لاستعادة ثروتهم القديمة ونفوذهم السابق عن طريق الدين الجديد، والجماعة الثالثة الطامعة في الوصول إلى الخلافة

(١) تاريخ الدولة الإسلامية، ص ٥٨.

هي التي أكدت على العرف السائد القاضي بأن يختار «أرشدهم وأرجحهم عقلاً» كي يكون «زعيماً وقائداً»، وكانت نتيجة المنافسة بين هذه الجماعات الثلاث بأن أختير الخليفة أبو بكر^(١).

وأهم ما يمكن استنتاجه من كلام المستشرق (روم لاندو) هو أنه كان ناقلاً لأحداث الخلافة والصراعات التي رافقتها دون أن يكون له رأي محدد في أحقية من من الأطراف الطامحة لتولي الخلافة.

وحاول مستشرق آخر وهو (بيتر ما نسفلد peter Mansfield) التطرف لموضوع الخلافة، فقد ذكر بأنه عندما توفي النبي محمد ﷺ في المدينة في الثامن من حزيران عام (١١هـ/ ٦٣٢م) بعد مرض شديد، لم يترك تعليمات حول من سيخلفه كونه لم يكن لديه أولاد، وعلى الرغم من الميزة التي يحظى بها كل من صهره وزوج ابنته علي بن أبي طالب ﷺ، وصاحبه أبو بكر ووالد زوجته عائشة، ولكن لم يكن هناك سبب تقليدي أو قانوني يجوز أن تؤول الخلافة بموجبه لأحدهما، وبعد جدل طويل بين المسلمين حصل أبو بكر على الخلافة، وقد بايعه علي ﷺ على مضض منه بعد عدة أشهر، وعلى أية حال والكلام لـ (مانسفلد)، فإن العديد من الناس بقوا على اعتقادهم بالخلافة الحقيقية هي من حق الإمام علي ﷺ وذريته، وإن معاوية وورثته من بني أمية هم معتصبون دنويون للخلافة^(٢).

لقد أغفل المستشرق مانسفلد أحقية الإمام علي ﷺ في خلافة الرسول محمد ﷺ إما جهلاً منه بالحقائق التاريخية أو إنه غصّ بصره عن تبيان الحق الذي أوضحه الرسول محمد ﷺ في أكثر من مناسبة.

أما المستشرق الألماني (كارل بروكلمان) فقد انساق وراء الروايات الضعيفة التي حاول واضعوها النيل من الرسول محمد ﷺ، بابتعادهم عن الحقائق التاريخية، فقال بروكلمان:

(١) روم لاندو، الإسلام والعرب، ص ٥٨، ٥٩.

(٢) peter Mansfield, the great Arab Explosion, p. 35 - 38.

«ألحَّ المرض على النبي ﷺ واشتد، فصار يهذي في حال وعيه، وفي يوم الأحد، ٧ تموز، حاول إن يملي وصيته الأخيرة، ولكن عمر رأى من الخير أن يمنعه من ذلك خشية أن يكون في صدور بعض الأوامر عن النبي ﷺ في تلك الحال التي لا تساعد على التفكير الصافي، ما يهدد بالخطر قضية المسلمين»^(١).

والباحث في مصادر التأريخ الإسلامي يجد البخاري قد ذكر هذه الحادثة التأريخية بأسلوب آخر خفف فيه من حدة قول عمر بن الخطاب الذي وصف فيه الرسول محمد ﷺ بأنه كان يهجر، فقد نقل البخاري قولاً لابن عباس ؓ أكد فيه أن الرسول الكريم ﷺ عندما حضرته الوفاة كان في بيته رجال بينهم عمر بن الخطاب، فقال النبي ﷺ، «هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده» فقال عمر: «إنَّ النبي ﷺ قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله»^(٢).

لكن المستشرق الفرنسي (رسلر) (z. s. Restler) تناول موضوع الخلافة بطريقة مختلفة عن (بروكلمان) فقد ذكر أن الرسول محمد ﷺ قبل وفاته لم يعين أحداً خليفة له، وحدث ما يحدث عادة حينما تصبح عملية اختيار الحاكم مرهونة بالموافقة الشعبية، فتشكلت أحزاب مختلفة، يعارض بعنف بعضها بعضاً، وأشار (رسلر) إلى أحد هذه الأحزاب الذي أسماه بحزب الصحابة المهاجرين وحزب الأنصار الذين وصفهم بأوفياء الرسول محمد ﷺ، وأضاف لهم حزباً آخرأ أسماه بالمدافعين عن الحقوق الشرعية، المعارضون لمبدأ التعيين بالانتخاب، أنصار الحق الإلهي الذين تمسكوا بالإمام علي ؓ بوصفه أحد السابقين إلى الإسلام وزوج السيدة فاطمة ؓ، أما آخر حزب ذكره (رسلر) فهو حزب الأمويين

(١) كارل، تأريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط ٢ (بيروت - ١٩٥٣)، ص ٧٩.

(٢) الصحيح، باب قول المريض قوموا عني، ص ١٠٣٣.

الذين هم آخِر من اعترف بالإسلام، وأنهى حديثه عن الخلافة بهذه العبارة:

«ولم توجد قضية سياسية أراقت كثيراً من الدم الإسلامي مثل مشكلة الخلافة هذه، وهي المشكلة الأولى التي طُرحت أمام الإسلام، ولم تُحل بعد قانوناً»^(١).

ومما يجدر الإشارة إليه إنّ موقف (رسلر) من الخلافة لا يختلف عن سابقه المستشرق (روم لاندو)، واستعمل الأسلوب نفسه في عرضه لمجريات الصراعات التي رافقت عملية الاستئثار بها. من جانب آخر فقد استعمل مصطلح (الحزب) وهو من المصطلحات التي استخدمها المؤرخون المحدثون، أما من اصطلاحات المؤرخين الأوائل فقد استخدم لفظ (الجماعة)، مثل جماعة المهاجرين أو جماعة الأنصار^(٢).

أما المستشرق الفرنسي (آتين دينيه) فقد أعطى لموضوع اختيار خليفة رسول الله أهمية أكبر من موضوع دفن الرسول محمد ﷺ ويبدو ذلك واضحاً من خلال قوله: «كان على المؤمنين قبل التفكير في دفن الرسول ﷺ أن يفكروا في صدّ الخطر المحقق بالإسلام الذي فقد زعيمه الملهم، الذي ضم تحت لواء التآخي في الدين أسراً وقبائل فرقت بينها قرون من العدا، فما عسى أن يكون مصير هذا التآخي؟»^(٣).

ومن خلال القول المتقدم لـ (دينيه) يتضح لنا أنه اراد أن يعطي فكرة إيجابية عما جرى في السقيفة بوصف ذلك ضرورة مُلحة فاقت حتى مسألة دفن الرسول محمد ﷺ، وإنّ ما أقدم عليه الصحابة لا تشوبه شائبة وحدث في الوقت المناسب.

(١) انظر، رسلر، جاك س، الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبد عون، مراجعة الدكتور أحمد فؤاد، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (القاهرة - د. ت)، ص ٣٨.

(٢) انظر علي سبيل المثال، اليعقوبي، أحمد بن يعقوب (ت ٢٩٢هـ)، تأريخ اليعقوبي، دار صادر، (بيروت - د. ت)، ص ١٢٦.

(٣) محمد رسول الله، ص ٣٠٥.

وأضاف (دينيه) إن القتال الدموي من أجل الاستحواذ على الخلافة كان أقرب من حبل الوريد، ولم يتمكن المسلمون من تجنبه لولا حكمة الخليفة عمر بن الخطاب، الذي أسكت الأطراف المتنازعة وأبان لهم إن النبي محمد ﷺ في أواخر أيامه قد عين أبا بكر يصلي بالناس بدله، ولو كان عين أحداً للخلافة لما عين إلا أبا بكر^(١).

والخطأ الذي وقع فيه دينيه هو اعتماده على مصادر أحادية النظرة التي تؤكد بأن النبي محمد ﷺ لم يستخلف أحداً، وهذه باعتقادنا أهم سلبية تؤثر على الباحث التاريخي، لأن الأخذ بروايات أحد أطراف المشكلة يُعدّ خللاً واضحاً يعترض سبيل الوصول إلى نتائج منصفة.

ولم يتجاوز المستشرق الإنكليزي (أرنولد Arnord ١٨٦٤ - ١٩٣٠) هذه السلبية حينما تطرق إلى الخلافة، فقد تبني وجهة نظر المستشرق المسيحي الكاثوليكي (لامنس Lammens) ومفادها، أن مجرد وصول خبر وفاة الرسول محمد ﷺ إلى أذان أخص أصحابه «فقد عملوا حالاً على تأمين انتخاب أبي بكر طبقاً للخطط التي رسموها بكل تأكيد عندما توقعوا قرب أجل مؤسس عقيدتهم والتحاقه بالرفيق الأعلى»^(٢).

ووفقاً لوجهة النظر هذه فإن انتخاب الخليفة أبي بكر كان على وفق مخطط قد أعد له مسبقاً ويبدو إن الكثير من المستشرقين لم يهضموا حالة النص وإنما كان الاختيار هو الأرجح عندهم وفق المصادر المؤيدة للخلافة.

وأشار (أرنولد) أيضاً إلى وجهة نظر أخرى للمستشرق الايطالي (كايتاني Caetani) بشأن تعيين الخليفة عمر بن الخطاب لخمس من

(١) انظر، محمد رسول الله، ص ٣٠٥.

(٢) انظر، أرنولد، السيدتوماس، الخلافة، ترجمة حسن حيدر الشيباني، مطبعة دار التضامن، ط ٢ (بغداد - ١٩٦١م)، ص ١٥.

الصحابة على أن يتم اختيار الخليفة من بينهم من بعده، إذ وصف (كايتاني) هذا الإجراء بالقول: «إن تعيين عمر لجماعة من الناخبين إنما كان بدعة الأزمنة المتأخرة لتبرير العملية التي سيطرت طوال العصر العباسي وهي إعلان صلاحية ولي العهد»^(١).

ومن بين المستشرقين الذين أخضعوا الروايات التاريخية المتعلقة بالخلافة إلى التحليل والنقد، هو الروماني (كونستانس جورجيو)، فقد ذكر أن النبي محمد ﷺ طلب قبيل وفاته كاتباً يسجل له وصاياه، وكان أحداها تعيين خليفة له، وقد علم بهذا الموضوع كل من الإمام علي عليه السلام وأبو بكر وعمر، وعند حضور هؤلاء الثلاثة مجلس النبي ﷺ شعر بالإحراج ولم يستطيع تعيين خليفته، وقد علق (كونستانس) على هذه الرواية التي أستقى إطارها العام من مصادرنا التاريخية، بقوله: «لكن هذه الرواية ضعيفة جداً، لأن النبي أقوى من أن يتراجع عن تعيين خليفته، لأن هذا الأمر ذو أهمية كبيرة لدين الإسلام، فلا حاجة للتردد، ولا يمكن أن يتراجع عن إبداء رأيه، مع العلم أن نفوذ كلامه في المسلمين كبير جداً، ومقبول لديهم جميعاً، ومحمد ﷺ الذي اشترك في ثمانين معركة صغيرة وكبيرة، وعين قواداً لهذه المعارك دل على عزم وجرأة، وهو في هذا المقام أقوى من تعيينه القواد لتلك المعارك، ولهذا نرفض هذه الرواية»^(٢).

أما المستشركة (فاجلييري Vaglieri) فقد تناولت جوانب عدة تتعلق بالإمام علي عليه السلام ومنها موضوع الخلافة وموقفه منها ودوره في الأحداث التي أدت إلى إنهاء خلافة عثمان، والإجراءات الإدارية التي اتخذها عقب توليه خلافة المسلمين.

(١) انظر، أرنولد، السيدتوماس، الخلافة، ترجمة حسن حيدر الشيباني، مطبعة دار التضامن، ط ٢ (بغداد - ١٩٦١م)، ص ١٦.

(٢) نظرة جديدة، ص ٣٨٦.

وأول المواضيع التي أشارت إليها (فاجلييري) هو، حادثة بقاء كل من الإمام علي عليه السلام وطلحة والزبير وعدد من الصحابة في بيت النبي صلى الله عليه وآله لمعاينة جسده والترتيب لعملية الدفن في الوقت الذي تم فيه اختيار أبو بكر خليفة، وعلقت فاجلييري على ذلك بالقول: «ومن المشكوك فيما إذا كان علي يأمل بخلافة محمد صلى الله عليه وآله»، وحجتها (فاجلييري) في ذلك أن العرب لديهم «قانون» ينتخبون بموجبه رؤسائهم من ذوي الأعمار الكبيرة، وواصلت القول: «في سنة ١١هـ / ٦٣٢م كان لعلي أكثر من الثلاثين من العمر بقليل وليس لديه ميل لتولي السلطة الشرعية. أما الشيعة فوفقاً لمعتقداتهم المخترعة أو المؤولة فإن النبي قد نوى أن يعطي الخلافة بعده إلى صهره علي، ولكن ما هو مؤكد أن النبي في أيام مرضه الأخير لم يوضح هذه الرغبة»^(١).

وأضافت (فاجلييري) القول أنه على وفق المراجع العربية، كان الإمام علي عليه السلام مستشاراً قيماً للخلفاء الذين سبقوه ولكن من المشكوك فيه فيما إذا كانت نصائحه في القضايا السياسية مقبولة من جانب عمر، إذ إنه كان يسأله النصيحة في المسائل القانونية [الشرعية] وذلك لمعرفته الممتازة بالقرآن والسنة، وكان الإمام علي عليه السلام ذا وجهة نظر تتعارض بشكل تام مع وجهة نظر الخليفة حيث كان يرى ضرورة توزيع مصادر الدخل الحكومي دون إبقاء أي شيء احتياطي وهذا ما كان يعارضه الخليفة عمر^(٢).

وركزت (فاجلييري) على بعض عوامل الخلاف بين الإمام علي عليه السلام والخليفة عثمان بن عفان، وفي مقدمة هذه العوامل هو اتهام الخليفة عثمان بالحيود عن القرآن والسنة وخاصة في إقامة حدود الله، حيث أصر

(١) Vagliere. the Encyclopadia of Aslam, New Edition, p. 382

(٢) Vagliere, the Encyclopedia, new, p. 382.

الإمام علي عليه السلام على تطبيق القانون الإلهي، وحدث ذلك بعد إدانة الوليد بن عقبة عامل الخليفة عثمان على الكوفة، بجريمة شرب الخمر^(١).

يُذكر أنّ المسعودي (ت ٣٤٦هـ) قد وصف حال الوليد بن عقبة أنه كان يشرب الخمر مع ندمائه ومغنيه من أول الليل إلى الصباح، وفي أحد الأيام صلى بجمع من المسلمين صلاة الصبح أربع ركعات وقال: أتريدون أن أزيدكم؟ وشاع هذا الفعل بين أهالي الكوفة، فهجم عليه جماعة في بيته فوجدوه سكران ومضطجعاً على سريريه لا يعقل، فانتزعوا خاتمه من يده وخرجوا إلى المدينة يقصدون الخليفة عثمان، فشهدوا عنده إنّ الوليد قد شرب الخمر، فسألهم عثمان ما يدريكم أنه شرب الخمر؟ فأجابوه: هي الخمر التي كنا نشربها في الجاهلية. ثم أخرجوا الخاتم ودفعوا به إلى الخليفة. بعد ذلك خرجوا إلى الإمام علي عليه السلام وأخبروه بما جرى، فأتى عثمان ليقول له: «دفعت الشهود وأبطلت الحدود، فقال له عثمان: فما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إلى صاحبك فتحضره»^(٢)، وبعد أن أقيمت الشهادة ضده فألقى الخليفة السوط إلى الإمام علي لينفذ عقوبة الجلد بالوليد، ولكن الإمام قد كلف ابنه الإمام الحسن عليه السلام للقيام بذلك^(٣).

والعامل الآخر في الخلاف بين الإمام علي عليه السلام والخليفة عثمان حسب ما ذكرته فاجليري هو قيام الخليفة عثمان بنفي الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري من المدينة بعدما وعظ الناس حول الأعمال الشريرة للجبابرة، عند ذلك قام الإمام علي عليه السلام وأولاده بتوذيعة عند رحيله رغم منع الخليفة عثمان ومعارضته^(٤).

(١) Vaglieri, the Encyclopedia, new, p. 382

(٢) انظر، مروج الذهب، ٤٨٧/٢؛ ابن كثير، أبو الفداء الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تحقيق، الدكتور أحمد بو ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية، (بيروت - د. ت)، ١٦١/٧.

(٣) صحيح مسلم، ص ٧٦٦، كتاب الحدود، باب حدّ الخمر.

(٤) Vaglieri, the Encyclopedia. p. 382.

ومن الأمور المهمة التي أولتها (فاجلييري) اهتماماً هو الثورة على الخليفة عثمان، فقد اتهمت الإمام علياً عليه السلام بالمشاركة أو المساعدة أو التشجيع على الثورة التي أدت إلى قتل الخليفة، ويبدو ذلك واضحاً من خلال قولها:

«عندما جاء الثوار من مصر إلى المدينة ليتفاوضوا مع عثمان، كان علي وسيطهم أو واحد من وسطائهم، وعندما عادوا إلى المدينة مرة أخرى وحاصروا بيت عثمان طلبوا من علي أن يكون قائدهم، ورغم أنه رفض، إلا أنه بسلكه شجع الثوار خلال الحصار. وهناك أسباب للشك كونه على اتفاق معهم بالمطالبة من الخليفة التنحي عن الخلافة، الوقت نفسه فإن أي مشاركة منه في العمل الدموي مستبعداً»^(١).

وحاولت (فاجلييري) تثبيت التهمة على الإمام علي عليه السلام من خلال القول الآتي:

«ما هو مؤكد أنّ علياً سمح لنفسه أن يُعين كخليفة من قبل الثوار الذين تلطخت أيديهم بدم عثمان، وكان هذا خطأ لأنه عرض لتهامات باشتراكه بالجريمة، رغم أنّ بعض الأحاديث تمثل كيف أنه كان يسعى، ولو عبثاً للتخلص من أتباعه الأكثر إثارة للشقاق، ورغم نصائح ابن عباس له بالتمهل إلا أنّ علياً وبدون تأخير قام باتخاذ بعض الإجراءات التي طلبتها المعارضة من عثمان، حيث قام بتنحية الحكام (الولاة) الذين ولاهم عثمان واستبدلهم قدر التمكن بولاة من حزبه وقام باسترضاء العامة عن طريق توزيع الأموال عليهم بمساواة جدية بالثناء»^(٢).

وأبدت فاجلييري اعتقادها أن الأحاديث الواردة بخصوص أسلوب انتخاب الإمام علي عليه السلام ورغبته في قبول الخلافة كان يكتنفها الغموض،

Vagliere, the Encyclopedia, p, 382.

(١)

Ibid, p, 382.

(٢)

ومن جانب آخر، أعطت معاوية بن أبي سفيان المبرر الذي يجعله يحتج على أن انتخاب الإمام علي عليه السلام لم يكن صحيحاً كونه قد تم بالأقلية بسبب مغادرة المدينة بعض الأفراد ومنهم طلحة (ت ٣٦هـ/٦٥٦م) والزبير (ت ٣٦هـ/٦٥٦م)، محمد بن مسلمة (ت ٤٣هـ/٦٦٣م)، المغيرة بن شعبة (ت ٥٠هـ/٦٧٠م)، أسامة بن زيد (ت ٥٤هـ/٦٧٣م)، سعد بن أبي وقاص (ت ٥٥هـ/٦٧٤م) وعبد الله بن عمر (ت ٧٣هـ).

ولو حاولنا تقييم ما ذكرته (فاجليري) بشأن اتهامها للإمام علي عليه السلام بالاشتراك في الثورة على الخليفة عثمان، أو أن انتخاب الإمام علي عليه السلام خليفة للمسلمين كان بسعي من الثوار، نجد أن في هذا القول تجنياً على الحقائق التاريخية، ويمكن إدانة فاجليري من خلال قولها آنف الذكر، فقد ذكرت بأن انتخاب الإمام علي عليه السلام لم يكن صحيحاً كونه قد تم بالأقلية بسبب مغادرة المدينة بعض الأفراد وكان على رأسهم طلحة والزبير وعبد الله بن عمر. وأحداث التاريخ تؤكد بأن هؤلاء كانوا فتيل الثورة على الخليفة عثمان بل كانوا الأداة التي نفذت مآرب الثوار، ولو أنهم على اتفاق مسبق مع الإمام علي عليه السلام لالتزموا ببيعتهم له عندما قُبِل بالخلافة على مريض منه، ولم يغادروا المدينة.

ولم يختلف المستشرق (مرجليوث D. S. Margoloth) عن فاجليري في محاولته إلقاء تبعات الثورة التي أدت إلى مقتل الخليفة عثمان على عاتق الإمام علي عليه السلام، حيث ذكر هذا المستشرق بأن الإمام علياً عليه السلام قد حصل على الخلافة بدعم من المتمردين الذين قتلوا الخليفة عثمان، وأن الإمام علياً عليه السلام أُجبر بعد ذلك على أن يبدي مقتته واشتمئزازه لذلك العمل، فجلب بذلك لنفسه عداوة المتآمرين على قتل الخليفة عثمان عندما قبل التحكيم في صراعه ضد معاوية، وانتقاماً منه قام أحد الناجين من معركة النهروان التي حدثت سنة (٣٨هـ) باغتياله بعد فترة من المعركة^(١).

Margoliouth D. S., Encyclopedia of Religion and Ethics, V. II, P. 693.

(١)

وبشأن موضوع الفتنة التي أودت بحياة الخليفة عثمان، ذهب المستشرق (مورغان)، إلى القول: «وبدا - فترة ما - إن الرأي منصرف لمناصرة علي، أحد كبار الصحابة وأوائل الذين دخلوا في الإسلام، وابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته ووالد أحفاده، وكان رجلاً متقشفاً متعبداً محارباً مبعجلاً. ولكن القوات التي خرجت من الفتنة متوزعة الأهواء لم يكن بالإمكان - وآسفاً - السيطرة عليها، وقد دفع علي الثمن كاملاً لموقفه وتحفظه [في] أثناء الهجوم على سلفه يوم لم يتقدم علناً للدفاع عن القانون وحفظ النظام، وألقى بعضهم المسؤولية عليه في مقتل عثمان وراحوا يطالبونه بإقامة البيّنة على عدم مشاركته في المؤامرة بأن يقع القصاص بالجنة المعتدين، ولكن ذلك لم يكن باستطاعة علي، لا لأنه كان متورطاً معهم بل لأن مسؤولية ما وقع كانت متوزعة هنا وهناك»^(١).

ويمكن أن يكون (مورغان) قد أصاب فيما قاله إلا في نقطة واحدة وهي أن الإمام علياً قد تحفظ في أثناء الهجوم على الخليفة عثمان ولم يتقدم علناً للدفاع عن القانون وحفظ النظام، وحقيقة الأمر ليس كما يدعيه (مورغان)، لأن الإمام علياً ﷺ حاول بكل الوسائل الحيلولة دون وقوع ذلك، فأرسل ولديه الحسن والحسين ﷺ إلى بيت الخليفة عثمان لتهدئة الموقف مع الثوار وكانا يحملان الماء إلى الخليفة المحاصر في داره، ومن جانب آخر فإن الدفاع عن القانون وحفظ النظام كانا بيد الخليفة عثمان بوصف إن السلطة كانت بيده، وربما كونه لم يوفق في تطبيق القانون وحفظ النظام بشكل تام، فقد أثار بذلك حفيظة الناس إلى الدرجة التي لم يتوقع الإمام علي ﷺ أن تصل الأمور إلى حدّ القتل، بل حسبَ بأنها عملية ضغط على الخليفة من أجل الوفاء بوعوده التي قطعها للمعارضين، من أجل تصحيح مسار الخلافة وما آلت إليه الأوضاع في عهده.

(١) كينيث و. مورغان، الإسلام السراط المستقيم، ص٧٦.

وناقش المستشرق الألماني (فلهوزن) بشكل مستفيض موضوع الخلافة، حيث عدّ موت النبي محمد ﷺ وبروز مشكلة الخلافة من أهم المصاعب التي واجهت المسلمين، كون النبي ﷺ لم يتلاف ترك رعيته دون راع، على حدّ تعبير (فلهوزن)، رغم وجود القرآن والسنة، ولكن لم يرد فيهما من هو الخليفة، على أن ذلك لم يكن معناه الاستغناء عن الخليفة، بل كان لابدّ من تعيين إمام يؤم الناس في الصلاة ويرأس الحكومة، والمشكلة لا توجد طريقة للانتخاب المنظم ولم يكن هناك حق وراثه النبوة^(١).

وذكر (فلهوزن) الأحداث التي رافقت اختيار الخليفة أبو بكر والدور الذي مارسه عمر بن الخطاب في الضغط على الأطراف الطامعة في الخلافة للتنازل إلى أبي بكر، وكيف أنه عين من بعده الخليفة عمر بن الخطاب.

وقال فلهوزن بحق خلافة كل من أبي بكر وعمر: «وكان أبو بكر وعمر يعلمان إنهما لم يتوليا الخلافة بفضل حق شرعي، بل من طريق الاغتصاب، وهما لم يستطيعا أن يسبغا على رئاستهما، التي كانت غير شرعية في أول الأمر، ثوباً شرعياً إلا فيما بعد، وذلك بأن سارا في الحكم على المبادئ التي تقضي بها الحكومة الشيوقراطية»^(٢).

وأصبحت خلافة كل من الخليفتين أبي بكر وعمر شرعية بنظر المستشرق فلهوزن، لأنهما كانا يرجعان إلى القرآن والسنة في الحكم على الأشياء^(٣).

وأضاف فلهوزن إن مقتل الخليفة عمر قد أعاد مشكلة الخلافة من

(١) انظر تاريخ الدولة العربية، ص ٣٢ - ٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢ - ٣٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٨.

جديد، فلم يكن الخليفة قد أوصى بأن يكون الأمر من بعده للإمام علي عليه السلام، بحكم كونه ابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته، الذي كانت لديه «مطامع» في الخلافة، بل لديه شعور بأنه قد تُخطي من قبل، أما الذي فعله الخليفة عمر، فقد أوصى بأن يكون تعيين الخليفة من بعده عن طريق مجلس الشورى، وقد تخطى أعضاء هذا المجلس الإمام علياً عليه السلام أيضاً، لأنهم لم يعترفوا له بأنه صاحب الحق الأول، فانتخبوا الصحابي المسن عثمان بن عفان، ولكن النتيجة جاءت مخيبة لظنهم، لأن ما كان عليه الخليفة عثمان من ضعف لم يجد نفعاً لهم، بل كان مفيداً لبني أمية^(١).

وتعرض (فلهوزن) إلى ممارسات الخليفة عثمان تجاه أقاربه مما كان سبباً في الثورة عليه، وقد فصل في أحداث هذه الثورة، وحمّل كبار الصحابة مسؤوليتها بقوله: «أما كبار الصحابة الذين كانوا يحملون الوزر في اندلاع نار الثورة، وهم علي وطلحة والزبير، فإنهم لم يبذلوا أي جهد لإخمادها، وربما كان موقفهم من الخليفة، هو إنهم أظهروا أسفهم إنهم لا يستطيعون مساعدته لأن أيديهم مقيدة، ولكونهم إنما كانوا يُظهرون غير ما يُبطنون، أما الحقيقة فهي إنهم لم يعملوا على إيقاف سير الحوادث أملين أن تنتهي بفائدة لهم»^(٢).

ومن الممكن أن يكون المستشرق (فلهوزن) قد شخص السبب الدافع لبعض الصحابة في الثورة على الخليفة عثمان، ولكن ليس كل الصحابة الذين أشار إليهم في قوله المتقدم، فقد جعل الإمام علياً عليه السلام واحداً منهم، والحقيقة غير ذلك تماماً، لأن الإمام علياً عليه السلام لو كانت غايته الخلافة بعد مقتل الخليفة عثمان، لما رفض تسلمها بادئ الأمر بعد أن تحقق له ما يريد، حسب اعتقاد فلهوزن.

(١) انظر تاريخ الدولة العربية، ص ٣٨، ٣٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٨، ٤٩.

لذلك نجد في قول الإمام علي عليه السلام ما يفند كلام المستشرق فلهوزن وغيره، فقد ذكر الإمام علي في إشارة منه إلى دفاعه عن الخليفة عثمان، فقال: «والله، لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً»^(١).

يضاف إلى ذلك وحينما أرسل الخليفة عثمان بطلب إلى الإمام علي عليه السلام بالتدخل من أجل تزويده بالماء عندما حاصره طلحة وجماعته، فقال عثمان: «إن فلاناً يعني طلحة - قد قتلني بالعطش أو القتل بالسلاح أجمل من القتل بالعطش»، فخرج الإمام علي عليه السلام إلى دار الخليفة عثمان، وأمر طلحة بأن يزوده بالماء، ولكنه لم يستجب، فدار سجال بين الإمام وطلحة، وخرج الإمام علي عليه السلام وأرسل براوية من الماء إلى الخليفة المحاصر^(٢).

ولا يمكن أن نُعد موقف المستشرق الإنكليزي (مونتغمري واط (Montygomery Wat) من الخلافة مختلفاً عن سابقيه، إذ ذكر بأن في عصر ما قبل الإسلام لم يكن هناك قانون يحق للابن البكر أن يستخلف أباه في رئاسة القبيلة، ولكن من النادر جداً أن يموت شيخ قبيلة ما قبل أن يصبح ابنه الأكبر في السن إذا كان ذا كلمة مبكرة، هو الذي يقود العشيرة، وهذا على حدّ قول (واط) ربما ينطبق على الخلفاء الراشدين الذين حكموا الدولة الإسلامية إذا ما أُعتبر المهاجرون الأوائل على أنهم عائلة منفردة أو قبيلة منعزلة، وأضاف (واط) أنه من الخير لهذه الجماعة أن يكون الخليفة هو الشخص المؤهل، وقال واط بعد ذلك: «ورغم أن الشيعة فيما بعد بالغوا في حقيقة إنّ علياً يعود نسبه إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقبيلة هاشم، إلا أن هذا ليس بالضرورة ما أهله لأن يُنصّب خليفة في عام

(١) نهج البلاغة/الخطبة ٢٤٠، محمد عبده، شرح نهج البلاغة، ج ٢/٢٣٣.

(٢) انظر، الطبري، تاريخ، ٣٥٨/٤، محمد عبده، شرح نهج البلاغة، ١٤٨/٢، ١٥٣،

٦٥٦م، وتم اختياره فيما بعد لأنه كان من أبرز المهاجرين الذين بقوا على قيد الحياة»^(١).

وأضاف (واط) أن المسلمين المتواجدين في المدينة قد انتخبوا علياً عليه السلام وكان انتخابه على أية حال لم يقرّ بالإجماع بسبب رفض معاوية مبايعته يضاف له قليل من المكيين الذي ينحدر منهم أبو بكر وعمر ممن رفعوا السيوف في وجه الإمام علي عليه السلام، وقد غادر الإمام علي عليه السلام المدينة متوجهاً إلى الكوفة ليكون قريباً من العمليات العسكرية، وختم (واط) كلامه عن الإمام علي، بقوله:

«ولم تزد الخلافة علياً شرفاً ولا منصباً»^(٢).

ويبدو لنا من الكلام المتقدم لـ (واط) إنه اراد القول إنّ الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم لم يستخلف أحداً، وإن ما ورد على لسان الشيعة حول صلة القرابة التي بينه وبين الإمام علي عليه السلام لم تكن هي المقياس في انتخابه للخلافة، وبذلك فإن (واط) لم يتعرض للروايات التي أكدت استخلاف الإمام علي عليه السلام مذ كان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على قيد الحياة.

ولم يكن (واط) دقيقاً في قوله أن انتخاب الإمام علي عليه السلام لم يقرّ بالإجماع، ولا نبالغ إذا ما قلنا بأن بيعته في شرعيتها تفوق البيعات الثلاث السابقة، لأنها جاءت عفوية وبالاحاح عامة الناس.

ف نجد عند الطبري ما يشير إلى ذلك بوصفه للبيعة قائلاً:

«أتاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا... لا بدّ للناس من إمام ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك، لا أقدم سابقة ولا أقرب من

(١) Wat, Montgomery, Islam and Integration of Society, London Routled and Kegan Paul, p. 165.

(٢) Wat, Aslam and the integration of society, p. 97, 65.

رسول الله ﷺ، فقال: «لا تفعلوا، فإني أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً، فقالوا: ما نحن بفاعلين حتى نبايعك، قال: ففي المسجد فإن بيعتي لا تكون خفياً، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين... وأبى هو إلا المسجد، فلما دخل، دخل المهاجرون والأنصار فبايعوه، ثم بايعه الناس»^(١).

لقد وصف الشيخ المفيد هذه البيعة قائلاً: «ثبتت البيعة لأمير المؤمنين بإجماع من حوّته مدينة الرسول ﷺ من المهاجرين والأنصار وأهل بيعة الرضوان، ومن إنضاف إليهم من أهل مصر والعراق في تلك الحال، من الصحابة والتابعين بإحسان»^(٢).

أما المستشرق الإنكليزي «بودلي» فقد أشار إلى خلافة الإمام علي عليه السلام فذكر إنه بعدما انتهى المسلمون من دفن الخليفة عمر بن الخطاب اجتمع مجلس الشورى الذي حدد أسماء الخليفة عمر قبل أن يقتل، وعرضت الخلافة على الإمام علي عليه السلام أولاً، على أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرة الشيخين، فقبل الشرطين الأولين ورفض الثالث، وعرضت الخلافة على عثمان بالشروط نفسها، وعلق بودلي على هذه الحادثة بالقول: «ولما كان [عثمان] أقل إخلاصاً من علي فقد قبل الشروط بدون اعتراض»^(٣).

وتطرق بودلي إلى بعض الأحداث في عهد الخليفة عثمان بإيجاز، فبعد ذكره مقتل الخليفة عثمان قال بودلي: إن الإمام علياً عليه السلام قد هباً أمره بسرعة وعرض نفسه من أجل الخلافة، وكانت هناك معارضة طفيفة، إذ إن معاوية بن أبي سفيان كان في دمشق ولا يدري ما يجري في المدينة،

(١) الطبري، تاريخ، ٤/٤٢٧.

(٢) الشيخ المفيد، الجمل، ص ٤٢.

(٣) انظر، حياة محمد، ص ٤٢٠.

في الوقت الذي فرّ كل من الزبير وطلحة ليلتقيا بعائشة التي كانت ترتب الحوادث من مكة، وكان البارزون الآخرون مشغولين بمقتل الخليفة عثمان فلم يكن عندهم الوقت الكافي ليفكروا في أمر الخلافة، فتمكن الإمام علي عليه السلام من أن «يفرض ترشيحه»^(١).

وقال بودلي أيضاً: «وفي خلال أسابيع قليلة من توليه [الخلافة] كان من الواضح أنه سيكون من السهل على المقربين منه إن يحركوه كما كان الحال وعثمان، وإن ذلك فقط ما يبغيه مناصرو خلافة الفاطميين ليأملوا في المناصب الهامة في الإدارة المدنية والعسكرية للدولة الإسلامية»^(٢).

ولا يمكن أن يكون ما قاله المستشرق (بودلي) دقيقاً بل إن في بعضه تناقضاً، ففي الوقت الذي قال بأن الإمام علياً عليه السلام قد رفض الخلافة حينما عرضت عليه أولاً بعد مقتل الخليفة عمر بن الخطاب لاقترانها بشرط العمل بسيرة الشيخين، نجده يقول في موضع آخر بأن الإمام علياً عليه السلام قد هياً وعرض نفسه بسرعة من أجل الخلافة بعد مقتل الخليفة عثمان، وحقيقة الأمر لو كانت غاية الإمام الخلافة، لكان بإمكانه التصرف عندما تهيأت الفرصة له حين عرضت عليه أولاً من دون الالتزام بشرط العمل بسيرة الشيخين، ولكن الإمام علياً عليه السلام أراد خلافة مقرونة بتطبيق مبادئ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة التي تؤكد على احترام العهود والمواثيق.

ومن جانب آخر ذكر بودلي أن الإمام علياً عليه السلام قد فرض ترشيحه للخلافة، في حين ذكرت أغلب المصادر عكس ذلك تماماً، فهو أبدى رفضه تسلم الخلافة لا لأنه لم يجد في نفسه القدرة على تحمل هذه

(١) انظر، حياة محمد، ص ٤٢٢، ٤٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٣.

المسؤولية، بل لتردي أوضاع الدولة إلى الحدّ الذي يصعب معها الإصلاح دون اللجوء إلى الحروب أو المساومة على مبادئ الإسلام، مما جعله ولشدته في الحق أنّ يفضل سلوك الطريق الأول في بداية الأمر.

وقد أشارت بعض مصادرنا الإسلامية إلى عدم رغبة الإمام علي عليه السلام في تسلم الخلافة بعد مقتل الخليفة عثمان.

فقد ذكر الطبري بأن الناس قصدوا الإمام علياً عليه السلام وقالوا له: «نبايعك، فقد ترى ما نزل بالإسلام، ما أبتلينا به من ذوي القربى»^(١)، فقال لهم الإمام علي عليه السلام: «دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول. فقالوا: ننشدك الله، ألا ترى ما نرى! ألا ترى الإسلام! ألا ترى الفتنة! ألا تخاف الله! فقال: قد أجبتمكم لما أرى، واعلموا إنّ أجبتمكم ركبتمكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم، إلّا إني أسمعكم وأطوعكم لمن وهبتموه أمركم»^(٢).

أما المستشرق الفرنسي (ولا ستون Wollaston) فقد وصف ما آلت إليه أوضاع الدولة بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان بأنه اضطراب ليس بالقليل، نتيجة لانقسام المسلمين في اختيار الخليفة، مما أدّى إلى أنّ يتقدم بعضهم إلى الإمام علي عليه السلام لكي يرغبوه في السلطة، ولكنه رفض ذلك، وظلوا يصرون على أن ليس هناك أحداً أصلح منه سواً من ناحية مآثره أم قرابته من النبي محمد ﷺ، وأضاف (ولا ستون) القول:

«لكن يد الله (كما يحلو لبعض المؤرخين أن يسموه بها) كان عنيداً ولم يقبل بالأمر إلّا بعد أن جاءه [الغافقي بن حرب] زعيم المدينة المنورة

(١) تاريخ، ٤/٤٢٧، ابن الأثير، الكامل، ٣/٨٤، النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون العرب، تحقيق عبد المجيد ترميني، دار الكتب العلمية، ط ١ (بيروت - ١٤٢٤هـ)، ج ٩/٢٠.

مستغيثاً بتقواه ومنا شدته بالله أن يتقلد الأمر حفاظاً على الدين. ولكن هل كان علي مدركاً من أن أعداءه ليسوا بالقليلين عدداً ولا بالضعيفين نفوذاً؟ بحكمة أصرّ علي أن تتم مبايعته علناً في المسجد^(١).

وتابع (ولاستون) سير الأحداث بعد تسلم الإمام علي عليه السلام الخلافة، فذكر الإجراء الإداري الذي اتّخذه الإمام علي عليه السلام بعزل الولاة الذين عينهم الخليفة عثمان على الرغم من اعتراضات بعض الأصدقاء المخلصين، وانتقد ولاستون هذا الإجراء بوصفه «طيشاً غير ضروري» تمخض عنه إثارة الخطر المحقق من الأعداء، قبل التمكن من تحصين أركان الدولة، فأعقب عملية العزل السريع حال من التذمر وانبرى عن ذلك ظهور كتلة ساخطة كانت بتحريض رجلين من ذوي النفوذ وهما طلحة والزبير، ومما زاد في إشعال نار الحرب ضدّ الإمام علي عليه السلام هو «سلوك الحاكمة عائشة زوجة النبي المفضلة» على حدّ تعبير (ولاستون)^(٢).

ويبدو أن المستشرق ولاستون قد ردد ما أخذ غيره على الإمام علي عليه السلام فيما يتعلق بتمسكه برأيه في تغيير الولاة السابقين في عهد الخليفة عثمان فوصف ذلك الموقف على أنه عناد.

وبدأ بعض المستشرقين عند حديثهم عن الخلافة بمقدمة عن الشيعة أو السُنّة لارتباطهما الشديد بالموضوع، لذلك ذكر المستشرق الأمريكي (باتون Walter M. Patton) بأن اصطلاح الشيعة هو اصطلاح جمعي ويعني (الحزب) أو (الاتباع)، وهذا الاصطلاح ينطبق على أنصار آل (بيت) علي عليه السلام، ابن عم النبي وصهره، ومنذ الأيام المبكرة للإسلام قاما بتشكيل طائفة، والتسمية الكاملة لها هي شيعة أهل البيت، أي أتباع أسرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأضاف (باتون) بأن هناك اصطلاحاً آخر هو (العلويون)،

(١) نهج البلاغة، خطبة ٩٢.

(٢) Arthur, N. Wallaston, Half Hours with Mohammad, London, co, limited, 3water 10, Pall Mall, s. w. 1892, p. 96

ويحتوي هذا المصطلح على مضمون سياسي كونه يشير إلى «مزاعم» آل (بيت النبي) ﷺ بالخلافة، وعلى الرغم من «مزاعم» الشيعة والأحاديث التي استندوا عليها، إلا أنه ليس هناك أثر يعتمد عليه من النبي ﷺ يشير إلى أن الإمام علياً ﷺ وسلالته هم خلفاء النبي في قيادة الإسلام، ويضيف (باتون) القول: «يزعم الشيعة أن النبي سَمِيَ وبشكل محدد علي وأولاده عند بركة الغدير وأشار في مناسبات مختلفة إلى تفضيله لعلي، وهناك إشارات مستترة في القرآن تضع علياً في مصاف النبي في الفضيلة وترفعه فوق مستوى البشر، وذلك عندما تفسر مجازياً (تأول) بأن النبي هو الشمس وعلي هو القمر»^(١).

ويؤكد (باتون) أن مسيرة الأحداث في زمن النبي ﷺ وما بعده تناقض هذه الحجج مما يؤدي إلى إبطالها «إلغائها»، لذلك يجب دراسة «المزاعم» العلوية في ضوء الحقائق التاريخية، ومن بينها أن النبي محمداً ﷺ رفض أن يسمى خليفته، وأن الخليفتين أبا بكر وعمر قد انتخبهما المجتمع الإسلامي، في حين لم يجمع في تسمية الخليفة الثالث بشكل حاسم، حيث عرضت الخلافة أولاً على الإمام علي ﷺ شريطة أن يتعهد بالولاء للمصالح التقليدية للإسلام، لكنه لم يكن متأكداً من جوابه، وتم اختيار الخليفة عثمان، وعندما قام الإمام علي ﷺ وحزبه بتأييد المتآمرين معنوياً عندما اغتالوا الخليفة عثمان، أخذ معاوية بالمطالبة بدمه، وحتى عندما آلت الأمور إلى الإمام علي ﷺ لأن يكون خليفة منتخبا، فإنه لم يكن راغباً بالمراجعة بأي شيء ضد حقوقه القانونية ولو أمكنه لتخلص من الانتخاب. وتقريباً فإن الثائرين وأصحابه أجبروه على قبول الخلافة»^(٢).

Wallaston, Half Hours, P. 97.

(١)

Walter M. Patton, Encyclopaedia of Religion and Ethics, Edited by James Hastings, Edinburgh. p. 453, 454 (2) I, ibid. p. 453, 454

(٢)

وأراد (باتون) جزافاً أن يُثبت أن عدم رغبة الإمام علي عليه السلام في الخلافة راجع إلى كونه غير مؤمن في الحق الإلهي لأهل البيت في الخلافة، ويضيف (باتون) القول: «ونتيجة لذلك لم يكن هناك شيعة أو حزب يحمل ذلك الاعتقاد (= الإيمان بالحق الإلهي)، والأنكى من ذلك فقد اتّهم (باتون) أتباع الإمام علي عليه السلام بتزوير الحجج المتطلعة لإقامة الحق الإلهي للإمام علي عليه السلام وأهل بيته كي يحكموا المجتمع الإسلامي^(١).

ويبدو أن (باتون) قد انساق وراء الروايات التي تدّعي أن الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم لم يسمّ خليفة من بعده، وبهذا جفاء للإنصاف، يضاف إلى ذلك وصفه روايات الشيعة على أنها مزاعم في حين أخذ بالروايات السنية التي تدعي عدم استخلاف النبي صلى الله عليه وسلم وعدّها حقائق، وبذلك لم يف (باتون) بوعوده التي قطعها على نفسه بالرجوع إلى الحقائق التاريخية وإنما لجأ إلى اقتباس الأحكام الجاهزة، متهماً الشيعة بأنهم قد زوروا الحقائق.

وحول المستشرق الإنكليزي (ترتون A. S. Tritton) قضية أرض (فدك) التي طالبت بعائديتها السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام إلى قضية سياسية ارتبطت بموضوع الخلافة.

قال (ترتون) بصدد ذلك: «كانت لمحمد صلى الله عليه وسلم أرض تدعى (فدك)، وبموته طالبت بها عائلته، تقلبات هذا الجدل لا تعنينا بأي حال من الأحوال، ولكن مضموناً سياسياً قد يقرأ بين سطوره، تقول أحد التقاليد أو الأعراف «بأن الأنبياء لا يورثون، ما يترك يذهب للملكية العامة أو الأعمال الخيرية». المضمون السياسي لهذا القول هو أن نسل علي ليس لهم الحق بالخلافة وإن هذا الحق منوط بالجماعة»^(٢).

I, bid. p. 454

(١)

A. S. Tritton, Islam Belief and practices, Hutchinson.

(٢)

وأضاف (ترتون) بأن الشيعة قد فسروا مضمون هذا النص بشكل مختلف إذ إنهم يعتقدون بأن ما تُرك لأعمال الخير لا يمكن أن يورث ولكن عدا ذلك ممكناً، وهذا ما يدعم ادعاء الشيعة وكان منطلقاً «لادعاء» الإمام علي عليه السلام بالخلافة لأنه أحد أقرباء الرسول محمد ﷺ، ولكن قسماً من أتباعه عدوا هذا الأمر مخالفة لسلطة الله وخرجوا ضده، ومن هنا جاءت تسمية الخوارج^(١).

ويمكننا انتقاد (ترتون) من وجوه عدة، فعلى الرغم من إشارته إلى الارتباط بين الخلافة والإرث، فعندما رُفض الإرث كقضية اقتصادية، رفضت الخلافة كقضية سياسية وكلاهما ينصبان في موضوع النص من النبي محمد ﷺ، إلا أن الإمام علياً عليه السلام لم يحتج بهذا الأمر، من جانب آخر خلط (ترتون) بين أحداث التاريخ، ففي الوقت الذي يتحدث فيه عن «ادعاء» الإمام علي عليه السلام بأنه هو الذي يخلف الرسول محمداً ﷺ، يذكر إن جماعة قد أنكروا هذا الأمر وسموا بـ (الخوارج)، والمتتبع لأحداث التاريخ يعلم بأن نشاط الخوارج بدأ بإنشقاقهم عن الإمام علي عليه السلام بعد التحكيم في معركة صفين (٣٧هـ / ٦٥٧م).

وأطل المستشرق الفرنسي (الفريد جيوم) بكلام أكثر واقعية من غيره حين ذكر أن الإمام علياً عليه السلام حاول إثبات حقه في الخلافة كونه قد عزل عنها عن طريق «الخدبة» وإن كان قد «ظَلَّ» في نظر الجماعة الإسلامية المحافظة.

ويضيف الفريد جيوم القول بأن الإمام علياً عليه السلام كان آخر الخلفاء الراشدين الحقيقيين، ولكنه قد أُقصي عن أهم المناطق التي استولى عليها المسلمون الأوائل، وهي الشام التي تمتلك قوة حربية مدربة إلى حد ما. وختم (الفريد جيوم) كلامه بقوله:

Ibid, p. 33

(١)

«أُغتيل علي بن أبي طالب لسوء الحظ على يد الخوارج سنة ٦٦١م وتنازل ابنه الحسن عن حقه بالخلافة»^(١).

وبشأن موضوع الخلافة أيضاً، أدلى المستشرق الألماني (شبولر Vonbartold Spuler) بقوله :

«لقد كان علي في الحقيقة شخصية شجاعة وشريفة ولكنها فاشلة سياسياً حيث لم يفلح علي بإيجاد تسوية وكان عليه أن يدافع عن حقه بحدّ السيف»^(٢).

وحقيقة الأمر ليس كما يعتقد (شبولر)، لأن الإمام علياً عليه السلام أراد بسكوته عن حقه في الخلافة أن يجنب المسلمين إراقة الدماء، ولا سيما أن الأوضاع التي أعقبت وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كانت حرجة جداً، ليحافظ بذلك على وحدة المسلمين رغم ضياع حقه.

ويحمل المستشرق الألماني شاخت انطباعاً مماثلاً لما أبداه شبولر حول ضرورة استخدام الإمام علي عليه السلام القوة في سبيل الاحتفاظ بالخلافة، إذ يقول شاخت :

«من الصعب وصف علي بن أبي طالب بعد البيعة التي حازها إنه صاحب سلطة، إذ كان عليه أن يحاول انتزاعها، إذا قرر أنّ تلك السلطة هي امتداد لما تمتع به سابقوه التي تجد جذرها المعتقدية انطلاقاً من اعتبار أنه لا يوجد إلّا إله واحد وقانون إلهي واحد، ويجب أن يكون هناك حاكم أعلى واحد على الأرض يمثل الله ويطبّق القانون»^(٣).

(١) الفريد جيوم، الإسلام، ص ١١٣، ١١٤.

(٢) Spuler, Vonbartold, Geschichte Der Islami Chen Lander, Leiden, E. J. Brill, 1952, p. 36.

(٣) شاخت، جوزف، وكليفورد بوزورت، تراث الإسلام، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت - ١٩٩٨م)، ٢١٧/١.

المبحث الثاني

الدراسات الاستشراقية التي قالت باستخلاف الرسول ﷺ للإمام علي عليه السلام

ويتضح من كلام شاخت وصفه للإمام علي عليه السلام أنه غير سياسي وليس برجل سلطة لأن رجل السلطة يجب عليه استخدام كل الأساليب ومنها القوة في سبيل الاحتفاظ بها، وهذا هو المبدأ الذي دعا إليه ميكافيلي، والذي لم يتوافق مع خط الإمام علي ومبادئه إطلاقاً.

يذكر بعض المستشرقين وكان من بينهم إدوارد براون (Edward Browne) وجهة النظر الشيعة التي تؤكد بأن النبي محمداً ﷺ قد عين ابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام كقائد روعي للإسلام كي يخلفه، ويخرج هذا المستشرق بنتيجة فحواها، إن كل من الخلفاء الثلاثة قد اغتصبوا حق الإمام علي عليه السلام بالتوالي، ورغم أنه أنتخب خليفة بعد مقتل الخليفة عثمان إلا أنه أُغتيل بعد فترة وجيزة من الحكم المضطرب الذي استمر خمس سنوات (٦٥٦ - ٦٦١م)^(١).

أما المستشرق (ليونارد بندر Leonard Binder) فقد سلك منهجاً مماثلاً للمستشرق الذي سبقه وهو (ادوارد براون)، فقد قال: «شيعة

Edward. Browne, Encyclopedia of religion and Ethics, vol, II P. 299.

(١)

الإسلام تختلف عن سُنَّة الإسلام في موضوع الخلافة المبكرة بعد وفاة النبي محمد ﷺ... إنَّ الموقف الجوهرى للشيعة ينصبُّ على أن محمداً قد عيّن صهره خليفة له لكن الآخرين الأقل كفاءة دبروا أمر اغتصاب الخلافة، وكان الخليفة الثالث عاجزاً عن كبح جماح أقاربه المرشحين إذ أن عجزه أدّى إلى اندلاع احتجاج عنيف قُتل الخليفة فيه، واعترف بعلي عموماً ليصبح الخليفة الرابع إلا أن خلافته القصيرة الأمد قد سادها النزاع»^(١).

وأضاف (بندر) بأن الخلافة الأموية جاءت بعد استشهاد الإمام علي عليه السلام واستعملت الحزم والقمع مع كل من يطالب بخلافة العلويين، وأفظع حادثة تمثل هذا القمع هي استشهاد الإمام الحسين عليه السلام الابن الثاني للإمام علي عليه السلام مع مجموعة من أنصاره في كربلاء، وفيما يخص الشيعة فإن الخلافة الأموية وبعدها الخلافة العباسية لم يكونا أبداً شرعيتين، وإن الشرعية الحقيقية لجمهرة الإسلام تكون في الأئمة الاثني عشر الذين ينحدرون من سلالة الإمام علي عليه السلام ومن النبي ﷺ عبر السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام^(٢).

وأفرزت دراسة المستشرق الألماني (شتورثمان R. Strothmann) عندما حاول الربط بين التوقيت الذي ظهرت به «الشيعة السياسية» وبين المطالبة بأن يكون الإمام علي عليه السلام خليفة للرسول، عن رأي بعيد كل البعد عن الحقيقة التاريخية، وهو أن الشيعة نظروا إلى الصحابة الذين بايعوا الخليفة أبا بكر على أنهم مرتدون.

وعبر (شتورثمان) عن رأيه هذا بقوله: «وأقدم وقت قامت به الشيعة

(١) Leonard Binder, The Ideological Revolution in the middle east, Department of political science university of chicago. p. 32.

Ibid, p. 32.

(٢)

السياسية وبعبارة أدق شيعة علي هو منذ وفاة النبي ﷺ، أما إذا أخذنا بروايات الشيعة، فإن الشيعة الأولى، كانت تتألف من ثلاثة أشخاص: هم سلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري والمقداد بن الأسود الكندي، فهؤلاء فيما يزعم الشيعة كانوا وحدهم (وبعض الروايات تذكر أسماء أخرى قليلة) الذين دعوا بعد وفاة النبي ﷺ إلى أن يكون علي هو خليفة النبي ﷺ، أي أنهم في رأي الشيعة لم يرددوا عن الدين، وذلك أن مبايعة سائر صحابة النبي أبي بكر عدت في نظر غالبية الشيعة (ردة)»^(١).

وزاد (شتروثمان) بأن أهم ما كان تبغيه الشيعة هو أن تبقى الإمامة في، الإسلام للعليين، باعتبارهم (آل بيت) النبي ﷺ وهذا ما لم يتحقق، فخلافة علي ﷺ القصيرة بين عامي (٣٥ و٤٠هـ) لم تكن سوى خلافة لم يجمع عليها المسلمون وتنازعوا في شأنها تنازعا شديداً، أما ابنه الحسن والكلام لـ (شتروثمان)، فإنه لا يمكن أن يسلك «بحق في عداد الخلفاء»^(٢).

وما ذكره المستشرق (شتروثمان) يُعد كلاماً غير دقيق كونه لم يرد على لسان الشيعة الأوائل أو مؤرخيهم بأن كل من بايع الخليفة أبا بكر هو مرتد، بل إن كلمة رده قد أطلقت على الذين ارتدوا عن الإسلام بعد وفاة الرسول محمد ﷺ.

أما قول شتروثمان بأن الإمام الحسن ﷺ لا يمكن أن يحسب في عداد الخلفاء، فهذا الكلام مرفوض ولا تقره المصادر الإسلامية، لأن الإمام الحسن تولى الخلافة بشرعية كاملة وبويع من قبل المسلمين، وبعد عقد اتفاقية مع معاوية تنازل عن الخلافة (بصفتها الدنيوية) وفق شروط مدونة.

(١) شتروثمان، س، دائرة المعارف الإسلامية، مادة شيعة، ص ٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٩.

أما المستشرق (أميل آيسن Emel Esin) فلم يفصل بخصوص خلافة الإمام علي عليه السلام واكتفى بالقول:

«استلم الأمر علي ابن عم محمد ﷺ وصهره كرايع وآخر الخلفاء الراشدين وبيدوا أن بعض أتباعه بدأوا بتبجيله هو وأبناءه كأصحاب الحق المقدس بالخلافة إيماناً قاد إلى اختلاف دائم في العالم الإسلامي»^(١).

وأطل المستشرق (سودر بلوم أو سودر لوم N. Soderblom) بوجهة نظر أشار فيها إلى أن الخلافة عند الشيعة المعتدلين لا تأخذ صفة التجسيد (incarnation) بمعناه التام، ولكن اعتقادهم بأن حق الخلافة يعود إلى أسلاف الإمام علي عليه السلام، وهو ابن عم النبي محمد ﷺ وزوج فاطمة عليها السلام، يستند إلى صلة قرابة الدم والأمر الإلهي وليس كما يعتقد السنة بأن الخلفاء يجب انتخابهم أو تعيينهم من عامة الناس^(٢).

وأضاف (سودر بلوم) القول بأن نظرية الأئمة تستند على العديد من الركائز، وإن التعاقب السماوي لهؤلاء الأئمة نابع ليس من كونهم ينحدرون من عائلة النبي ﷺ، ومواهبهم فوق البشرية فحسب، بل لامتلاكهم جوهر نور سماوي، وهي قوة إلهية أو جزء من الله - سبحانه وتعالى - ، وإنها روح الله التي انحدرت من آدم عليه السلام إلى سلسلة من الرجال الإلهيين ووصلت إلى سلف النبي محمد ﷺ وعلي عليه السلام عبر فاطمة عليها السلام، لتنتهي هذه السلسلة بالإمام الغائب (عجل الله فرجه)، الذي سيظهر آخر الزمان^(٣).

ويذهب المستشرق (فلهوزن) إلى الاعتقاد بأن أهل البيت يمتلكون علماً غزيراً مستمداً من علم النبوة، وقد أوضح اعتقاده هذا خلال حديثه عن يوم المباهلة الذي قال فيه:

Emel Esin, Mecca the Blessed Madinah the Radiant, p. 124 (١)

N,Soderblom, Encyclopaedia of religion, and Ethics, vol,Vii,p. 183 (٢)

Ibid, p. 183 (٣)

«ولهذه المحاكمة - المباهلة - التي فيها إظهاره الوحيد لإخلاصه المطلق، جمع النبي أهله - الخمسة - الذين دثرهم بدثاره وهم حفيدها وابنته وزوجها، رهائن على إيمانه برسالته النبوية. ومنذ ذلك الحين تحول عند بعض صحابة النبي ما كانوا يحملون من مودة نحو الخمسة إلى حب عباده»^(١). وجانب الحقيقة فلهوزن بوصفه للعلاقة بين الرسول ﷺ وآل بيته ﷺ بأنها قد تحولت عند محبيهم إلى «حب عبادة».

ويُعد المستشرق (دونلدسن) واحداً من أبرز المستشرقين الذين أولوا موضوع الخلافة اهتماماً في كتابه (عقيدة الشيعة)، لأنه اعتمد في دراسته مصادر ومراجع متعددة واستعمل آليات البحث التاريخي للوصول إلى النتائج المقنعة، وقد احتلت الروايات الشيعية عنده المقام الأول، ففي قضية الخلافة بدأ كلامه بقول أكد فيه بأن دراسة أحداث التاريخ بأمانة يتطلب فحص الأخبار التي حيكت في سدى التاريخ عند المسلمين، وهو يرى في المقام الأول أن الشيعة يعلقون أهمية كبرى على الخبر الوارد عن النبي محمد ﷺ عند عودته من حجة الوداع. حيث نزل مكاناً يعرف بـ (غدير خم) وفيه أعلن لمن كان معه رغبته في جعل الإمام علي ﷺ خليفة من بعده، ونقل (دونلدسن) رواية لليعقوبي الذي وصفه بأنه مؤرخ عربي قديم اشتهر برواية الأخبار المؤيدة للعلويين وميله إليهم^(٢).

قال في هذه الرواية: «وخرج ﷺ منصرفاً إلى المدينة فصار إلى موضع بالقرب من الجحفة يقال له غدير خم لثمانية عشرة ليلة خلت من ذي الحجة وقام خطيباً وأخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فمن كنت مولاه فعلي مولاه...» ثم قال ﷺ: «أيها الناس أنني فرطكم وأنتم واردون عليّ

(١) ماسنيون، لويس، سلمان الفارسي والبواكير الروحية للإسلام في إيران، ترجمة، الدكتور عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، (الكويت - ١٩٧٨م)، ص ٤٥.

(٢) دونلدسن، عقيدة الشيعة، ص ٢٢.

الحوض وإني سائلكم حين تردون عليّ عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»، قالوا: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: «الثقل الأكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم فاستمسكوا به ولا تضلوا ولا تبدلوا، وعترتي أهل بيتي»^(١).

وذكر (دونلدسن) رواية يقول إنها للمسعودي مفادها أن الرسول محمداً ﷺ وعند انصرافه من غزوة الحديبية وقبل النزول (بغدير خم) بأربع سنوات كاملة قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»^(٢) ولم يجد الباحث في كتاب المسعودي ما يشير إلى هذه الرواية.

وقد عقب (دونلدسن) على هذه الرواية بالقول:

«إن تكرار هذا القول الأساسي نفسه للرسول في الحالتين يدل بوضوح على احتمال كون أحدهما تكراراً للثاني. غير أن هناك ما يستدل به من تسلسل الحوادث احتمال إعادة الرسول هذا القول في الحالتين. فعندما غزا الرسول ﷺ الحديبية سنة (٦) للهجرة لم يكن له ولد وكان حفيده الحسن والحسين ابنا علي وفاطمة لا يزالان طفلين عمر أحدهما ثلاث سنوات وعمر الآخر أربع. ولا يمكن أن يخلفه حفيده إلا إذا اعترف بعلي خلفاً له، فإنه ليس من عادة العرب رد النسب إلى البنت»^(٣).

ويضيف (دونلدسن) القول بأنه لا يغرب عن بال أحد من أن علياً ﷺ لم يكن هو ابن عم الرسول محمد ﷺ وصهره فحسب، بل إن أبا طالب كفّل محمداً ﷺ ورباه وحماه فلا غرو أن يرغب الرسول في أن ينظر المسلمون إلى الإمام علي ﷺ نظرهم إلى المرجع الثاني في الأهمية

(١) دونلدسن، عقيدة الشيعة، ص ٢٢، ٢٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

من بعده، فيحتمل أنه قال في أثناء غزوة الحديبية «من كنت مولاه فعلي مولاه»^(١).

ويسلك (دونلسن) اتجاهاً آخرًا عند تحليله لقضية أن يكون الرسول محمد ﷺ مقتنعاً بخلافة الإمام علي أم لا، فقد جعل من حادثة زواج النبي ﷺ من ثلاث زوجات وتسريه باثنتين في السنتين السادسة والسابعة من الهجرة بأنه دلالة واضحة على عدم قناعته في أمر من يخلفه في بيته عن طريق الإمام علي ﷺ، حيث كان الرسول محمد ﷺ شديد الرغبة في الحصول على ولد من صلبه، وقد تحققت له هذه الرغبة في السنة الثامنة للهجرة حينما ولدت له زوجته القبطية مارية، ولدًا أسماه إبراهيم، ففرح الرسول ﷺ به فرحاً شديداً ونحر له في اليوم السابع كبشاً وتصدق بوزن شعره من الفضة وأمر بدفن الشعر، وتساءل دونلسن بعد ذلك السؤال الآتي:

«فهل خطر لمحمد ﷺ أن يحصر المركز الديني ويجعله إرثاً في بيته؟ إنه سؤال يصعب البت فيه، فيما يتعلق بإبراهيم، فإن هذا لم يدرك السنتين، ويمثل ما رد به الرسول على أزواجه في اهتمامه الخاص بمارية أم إبراهيم، فإنه اغتم غمماً شديداً بموت ولده، حتى لم يجروا أحد الصحابة على التخفيف عنه» وتساءل (دونلسن) أيضاً: «هل أن ما يروى عن بيعة علي في غدير خم هو نتيجة لما أصاب النبي أخيراً من الخيبة بوفاة إبراهيم، مضافاً إلى ذلك حقيقة عدم حمل نسائه الأخريات اللواتي تزوجهن حديثاً بأولاد له... وتدعي الشيعة أن محمداً ﷺ كرر بعد تسعة أشهر من موت إبراهيم في الثامن عشر من شهر ذي الحجة إعلانه «من كنت مولاه فعلي مولاه»^(٢).

(١) انظر، دونلسن، عقيدة الشيعة، ص ٢٣، ٢٤؛ وروى هذا الحديث كل من ابن حنبل في مسنده، ج ١/١٤٨، وفي فضائله، الصفحات ١٢٩، ١٥٩، ١٨٠، وأخرجه الترمذي في سننه وقال عنه حديث حسن، وزاد فيه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأدر الحق معه كيفما دار وحيث دار، السنن، ص ٨٧٩؛ ورواه آخرون.

(٢) عقيدة الشيعة، ص ٢٤، ٢٥.

ويمكننا الإجابة على تساؤلات (دونلدسن) السابقة بأن الرسول محمداً ﷺ كان على قناعة تامة بأن يجعل الإمام علياً ﷺ خليفة من بعده وقد أشار إلى ذلك قبل صلح الحديبية وقبل زواجه من السيدة ماريّة في السنة السادسة وقبل ولادة ولده إبراهيم ﷺ، وكان ذلك عندما نزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١)، فدعا أقرباءه إلى اعتناق الدين الإسلامي فلم يستجب لدعوته سوى الإمام علي ﷺ، حينها قال الرسول ﷺ له قوله المشهور: «أنت وصيي ووزيري وخليفتي من بعدي»، وهذا الوعد لم يصدر من شخص اعتيادي وإنما هو رسول الله ولا ينطق عن الهوى.

ويذكر دونلدسن قولاً لابن خلكان (ت ٦٨١هـ) أكد فيه أن الثامن عشر من ذي الحجة هو عيد الغدير، وهو غدير خمّ، وخمّ موضع بين مكة والمدينة به غدير أو بطيحة، ويقال إن رسول الله لما عاد من مكة بعد حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة وقف في خمّ وأخى علياً بن أبي طالب ﷺ وقال: «علي مني كهرون من موسى، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله»^(٢).

وعلق دونلدسن في نهاية هذه الرواية بالقول: «ويعلّق الشيعة على هذا الحديث أهمية كبرى»^(٣).

ونقل دونلدسن عن العلامة الشيعي محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ) خلاصة الحديث عما جرى في غدير خمّ، حيث ذكر بأن الرسول محمد ﷺ قد نزل في غدير خمّ وهو مكان لم يكن نزول المسافرين فيه متعارفاً عليه، وإنما السبب في نزوله هناك ما أنزل عليه في

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٢) ابن خلكان، وفیات الأعيان، ٤/٣٤٥، ٣٤٤، دونلدسن، عقيدة الشيعة، ص ٢٥.

(٣) دونلدسن، عقيدة، ص ٢٥.

القرآن الكريم بلزوم نصب الإمام علي عليه السلام خليفة من بعده، وقد أنزل عليه ذلك عدة مرات ولم يعين الوقت لتبليغ ذلك الأمر، وقد أحر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأمر خشية اعتراض الناس، ولو جاوز ذلك المكان أي غدير خم لتفرق الناس وذهبت كل قبيلة ناحية، فأمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم الناس بالاجتماع، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى عليه: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(١).

وكان ذلك الأمر بنصب الإمام علي عليه السلام خليفة هو سبب نزول الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه في ذلك المكان. وكان الهواء في غاية الحرارة والمكان مملوء بالأشواك، حتى كان الرجل يضع الرداء تحت قدميه من شدة الرمضاء. وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يُنصب له منبر من أقتاب الإبل، فلما نُصّب له واجتمع الناس ارتقى النبي محمد صلى الله عليه وسلم المنبر ودعا علياً عليه السلام للوقوف إلى يمينه، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه أخبر الناس بدنو أجله قائلاً: «ولقد دعيت إلى ربي وإني مجيب، وإني مغادركم من هذه الدنيا وإني تارك فيكم الثقيلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض»، ثم قال: «ألست أولى بكم من أنفسكم؟»، قالوا (نعم)، فأخذ بيد الإمام علي عليه السلام ورفعها حتى بان بياض أبطيه، وقال «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله». فلما نزل النبي صلى الله عليه وسلم من المنبر صلى صلاة الظهر ثم ذهب إلى خيمته وأمر بنصب خيمة بجانب خيمته لأمير المؤمنين. فجلس علي عليه السلام في خيمته وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم الناس أن يبايعوه بالإمامة، ويسلموا عليه بإمرة المؤمنين ففعلوا نساءً ورجالاً وسراً عمر بذلك مثل غيره^(٢).

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) انظر، المجلسي، محمد باقر، حياة القلوب، تحقيق سيد علي إماميان، انتشارات، مؤسسة سرور، (قم - ١٣٨٤هـ)، ج٤/١٣٨٩ - ١٣٩٩؛ دونالدسن، عقيدة، ص٢٥، ٢٦.

وتطرق دونلدسن إلى وفاة الرسول محمد ﷺ معتمداً على ما رواه البخاري ومسلم، فقد جاء في حديث رواه كل من البخاري ومسلم، أن رسول الله ﷺ لما دنت وفاته كان عنده في البيت عدة رجال من بينهم عمر بن الخطاب فقال النبي ﷺ «ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً» فقال عمر: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجد وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله»^(١).

واختلف الحضور فمنهم من قال قربوا له يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ومنهم من يقول غير ذلك فلما أكثروا اللغو والاختلاف، قال النبي ﷺ لهم «قوموا ما ينبغي أن يكون بين يدي النبي خلاف»^(٢).

وذكر (دونلدسن) رواية لابن عباس ؓ قال فيها: «إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغظهم» وساق لنا (دونلدسن) روايات ما يعتقد بها أهل الجمهور، أن النبي محمد ﷺ مات بين ذراعي عائشة، كما جاء ذلك في حديث مروى عنها، وأورده نقلاً عن كتاب (مشكاة المصابيح)^(٣)، وقال بعد ذلك: «وليس من الغريب أن يكون لدى الشيعة حديث آخر عن آخر ساعات محمد ﷺ في الدنيا يكون فيها لعلي وفاطمة الدور البارز بدلاً من عائشة»^(٤).

وكانت إحدى الروايات التي ذكرها (دونلدسن)، هي أن

(١) انظر، البخاري، الصحيح، ص ٧٨١، مسلم، الصحيح، ص ٧٢٦؛ دونلدسن، عقيدة الشيعة، ص ٢٨.

(٢) البخاري، الصحيح، ص ٧٨١؛ مسلم، الصحيح، ص ٧٢٦، دونلدسن، عقيدة، ص ٢٨، ٢٩.

(٣) انظر التبريزي، محمد بن عبد الله الخطيب (ت ٧٤١هـ)، شرح مشكاة المصابيح، تحقيق الشيخ جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، ط ١ (بيروت - ١٤٢٢هـ)، مجلد ١١/١١٤؛ دونلدسن، عقيدة، ص ٢٩.

(٤) دونلدسن، عقيدة، ص ٢٩.

الرسول ﷺ بلغ في مرضه الأخير بعض الأوامر ونزلت عليه سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾^(١) فسأله علي عليه السلام إذا كانت هذه آخر كلماته، فقال: «نعم يا علي فقد مل قلبي هذا العالم»، ثم قال بعد ذلك «يا جبرائيل أعني وانجز لي وعدي» ثم دعا علياً عليه السلام إليه فوضع رأسه في حجره وتغيرت سحنته وعرق جبينه، وكانت فاطمة عليها السلام جالسة قربه فلما رأت ذلك قامت حزينة وأخذت بيدي الحسن والحسين عليهما السلام وجعلت تندب أباهما. ففتح الرسول عينيه ووضع رأسه على صدرها ودعا وقال: «اللهم ألهم فاطمة الصبر» ثم قال:

«إبشري يا فاطمة فستكونين أول من يلحق بي»، وأصبح يعالج سكرات الموت فاخذت تبكي بكاءً شديداً فأراد الإمام علي عليه السلام إسكاتها فقال النبي ﷺ «دعها تبكي أباهما» ثم أغمض عينيه وأسلم روحه^(٢)، وأبدى دونلدسن رأياً في هذا الموضوع بعد المقارنة بين روايات أهل الجمهور والروايات الشيعية بقوله: «ويميل الإنسان إلى التفكير بأن هذا الحديث يمثل ما يراه الشيعة لائقاً بوفاة النبي ﷺ أكثر منه ما حدث بالفعل ومهما كان الأمر ما يفضلون الاعتقاد به على حديث عائشة»^(٣).

بعد ذلك ناقش (دونلدسن) آلية اختيار خليفة رسول الله ﷺ معتمداً في ذلك على مصادر مختلفة، ومستعرضاً كل أوجه الخلاف التي نشأت بين المهاجرين والأنصار، مبيناً في الوقت نفسه فضائل كل منهم في الدعوة الإسلامية، وذكر (دونلدسن) بأن بوادر الشقاق بين المهاجرين والأنصار قد ظهرت قبل وفاة الرسول ﷺ، فأدرك ذلك وخاف أن يحدث خلاف بينهم، فصعد المنبر لآخر مرة وخاطب الناس قائلاً:

«أوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين تبوأوا الدار والإيمان ممن

(١) سورة النصر، الآية: ١.

(٢) انظر، ابن سعد، الطبقات، ج ٢/ ١٨٨؛ دونلدسن، عقيدة الشيعة، ص ٣٠.

(٣) دونلدسن، عقيدة الشيعة، ص ٣٠.

قبلكم، أن تُحسنوا إليهم، ألم يشاطروكم في الثمار؟ ألم يوسعوا لكم في الديار؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة؟ ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقل عن محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم»^(١).

وذكر (دونلدسن) بأنه، بعد وفاة الرسول ﷺ أسرعت الأنصار لتعمل على الاستئثار بالسلطة لنفسها، ونقل في صدد ذلك قولاً للطبري جاء فيه:

إنها [الأنصار] اجتمعت في سقيفة بني ساعدة لتولية سعد بن عبادة، وبلغ خبر ذلك أبا بكر فانطلق هو وعمر وأبو عبيدة بن الجراح اليهم وسألوا عن الخبر فقالت الأنصار: نختار أميراً، فقال أبو بكر: منّا الأمراء ومنكم الوزراء وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين وأخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة فقال عمر: إن رسول الله قد أمر أبا بكر يؤم الناس وأيكم تطيب نفسه أن يتقدمه ثم مد يده وبايع أبا بكر وبايع الناس إلّا أن بعض الأنصار، قالوا: لا نبايع إلّا علياً^(٢).

وأورد (دونلدسن) روايات مختلفة حول الجدل الذي دار لتولي الخلافة لا مجال لذكرها ومن الممكن الرجوع إليها في مصادرنا الإسلامية، ولكن الذي يهمنا هو النتيجة التي خرج بها دونلدسن إذ قال: «ومما نستفيدة من هذه الروايات أنها تبحث بصورة مباشرة وشخصية. وهي تؤلف قصصاً جيدة، فإن أهم المسائل في سياسة الدولة تُحل في معظم الأحيان بمقدمات رسمية بسيطة^(٣). ففي هذه القضية نرى أنه عندما بلغ أبو بكر وعمر منزل فاطمة هجموا في جماعة على الدار... فخرجت

(١) انظر، البخاري، الصحيح، ص ٦٦٩ - ٦٧٢؛ ابن سعد، الطبقات، ج ٢/١٩٣ - ١٩٤،

فيما يتعلق بجزء من وصية الرسول للأنصار التي أوردها دونلدسن، ص ٣٠، ٣١.

(٢) تاريخ، ج ٣/٢٠١، ٢٠٢؛ ابن الأثير الكامل، ج ٢/١٨٩، دونلدسن؛ عقيدة، ص ٣١.

(٣) انظر، عقيدة الشيعة، ص ٣٢، ٣٣.

فاطمة وقالت: والله لتخرجن...، فخرجوا وخرج من كان في الدار، وأقام القوم أياماً ثم جعل الواحد بعد الواحد يبايع أبا بكر ولم يُبايع عليّ إلاّ بعد ستة أشهر وقيل أربعين يوماً^(١).

وخصص (دونلدسن) في كتابة آنف الذكر حول موضوع الخلافة باباً كان عنوانه «الغاصبون الثلاثة» ونراه قد وضع هذا العنوان بين قوسين، وبدأ الكلام فيه حول ما يعتقده الشيعة في حق الإمام عليّ عليه السلام الصريح في الخلافة، وأنه هو أمير المؤمنين بالحق، فكان من الواجب نصبه خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(٢).

ونجد إن (دونلدسن) يدخل منعطفاً جديداً في تقييمه لمجريات أحداث الخلافة من خلال قوله:

«ومن المهم أن نلاحظ أن سِنَّ عليّ كان عند وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (٣٣) سنة فهو لا يزال حدثاً بالنسبة لعرف القبائل العربية، لتولي المسؤولية الإدارية الكبرى فليس من الشاذ أن يختار الناس من هم أكبر منه سناً من الصحابة البارزين بمدة خمس وعشرين سنة. ويظهر بالحقيقة وجوب التقدم في السنّ في اختيار الخلفاء الراشدين، فأبو بكر استخلف وعُمره فوق الستين، وعمره كان سنّه (٥٣) وعثمان كان قد بلغ نحو السبعين، وعليّ كان عمره أما (٥٩) أو (٦٤)، بالنسبة لسنه عندما آمن أول مرة، فقليل إنّه كان بالعاشرة وقيل بالخامسة عشر»^(٣).

وينتقل دونلدسن بعد ذلك إلى جانب آخر يتعلق بتوضيح طبيعة العلاقة التي كانت سائدة بين الإمام عليّ عليه السلام وباقي الخلفاء الراشدين،

(١) انظر، دونلدسن، عقيدة الشيعة، ص ٣٢، ٣٣؛ للإطلاع على هذه الرواية، انظر،
اليقوي، تاريخ، ج ١٢٦/٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٤، ٣٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٥، ٣٦.

فقد ذكر بأن الإمام علياً كان ينظر إلى الخليفة أبي بكر بعين الاحترام وله عليه تأثيرات في القرارات التي كان يتخذها^(١).

وعندما أوصى الخليفة أبو بكر قبل وفاته باستخلاف عمر، نقل دونلدسن حديثاً لعائشة يتعلق بعلي عليه السلام وطلحة قالت فيه: «لما ثقل على أبي دخل عليه فلان وفلان، فقالوا: يا خليفة رسول الله ماذا تقول لربك إذا أقدمت عليه غداً وقد استخلفت علينا ابن الخطاب؟ فقال: اجلسوني أبالله ترهبوني؟ أقول لقد استخلفت عليهم خيرهم»^(٢).

وعلق (دونلدسن) على هذه الرواية بالقول: «فإن صح هذا الخبر فإن أمل علي في التمتع بمركز هام في خلافة عمر لم يكن قوياً. لكن عمر سمع بما طعن عليه فلم يأبه» وذكر (دونلدسن) بأن علياً عليه السلام بقي في المدينة وله عند عمر نفس المكانة السياسية التي كانت له عند أبي بكر، ويروى أن علياً عليه السلام قد أبدى النصيح لعمر في مناسبات عديدة فسمع منه، منها أن يكون الخليفة عمر هو قائد الحملة على فلسطين وعندما تردد عمر أقنعه الإمام علي عليه السلام بالعدول عن ذلك^(٣).

يضيف (دونلدسن)، أن الإمام علياً عليه السلام كان مشاوراً للخليفة عثمان أيضاً، وكان الناقدون على عثمان يأتون علياً عليه السلام ليعرضوا شكواهم، ووضعوا ثقتهم فيه أول الأمر للوساطة عند الخليفة، ولما كان الإمام علي عليه السلام يستمع إلى شكوى هؤلاء الناس، فينقلها إلى عثمان، فقد شك البعض في ضوء الحوادث التي تلت إن علياً عليه السلام نفسه كان مشتركاً بوضع الخطط العدائية ضد الخليفة^(٤).

(١) انظر، عقيدة الشيعة، ص ٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ابن سعد، الطبقات، ٢٠٧/٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٨، ٣٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٩.

ولكن دونلدسن عرض رواية للمسعودي يُبعد فيها اللوم عن الإمام علي عليه السلام بأي وجه من الوجوه في قتل الخليفة عثمان، وأهم ما في هذه الرواية هو:

«فبلغ علياً طلبه أي [طلب الخليفة عثمان] فبعث إليه بثلاث قِرب ماء... فلما بلغ علياً أنهم يريدون قتله، بعث بابنيه الحسن والحسين ومواليه بالسلاح إلى بابه لنصرتهم، وأمرهم أن يمنعوه منهم، وبعث الزبير ابنه عبد الله وبعث طلحة ابنه محمداً، وأكثر أبناء الصحابة أرسلهم آبائهم اقتداءً بمن ذكرنا، فصدوهم عن الدار فرمى من وصفنا بالسهام، واشتد القوم، وجرح الحسن، فخشي القوم أن يتعصب بنو هاشم وبنو أمية، فتركوا القوم القتال على الباب، ومضى نفر منهم إلى دار قوم من الأنصار فتسوروا عليها، وكان ممن وصل إليه محمد بن أبي بكر ورجلان آخران... فصعدت امرأته فصرخت وقالت قد قُتل أمير المؤمنين، فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما من بني أمية، فوجدوه قد فاضت نفسه، فبكوا، فبلغ ذلك علياً وطلحة والزبير [وسعداً] وغيرهم من المهاجرين والأنصار، فاسترجع القوم، ودخل علي الدار، وهو كالواله الحزين، وقال لابنيه: كيف قُتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟ ولطم الحسن وضرب [صدر] الحسين، وشتم محمد بن طلحة، ولعن عبد الله بن الزبير، فقال له طلحة: لا تضرب يا أبا الحسن، ولا تشتم ولا تلعن، لو دفع [إليهم] مروان ما قُتل وهرب مروان وغيره من بني أمية»^(١).

ولكننا في موضع آخر نجد أن (دونلدسن) يتخذ موقف الشك من الإمام علي عليه السلام فيما يتعلق بمقتل الخليفة عثمان، فقد قال: «كان علي هنا في موقف صعب فإن القتلة الحقيقيين كانوا قد هربوا أما الذين أدّى استيائهم وتحريضهم إلى وقوع المأساة فكانوا كثيرين وهم من بين أخلص

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج ٢/٣٥٤، دونلدسن، عقيدة الشيعة، ص ٤٣، ٤٤.

أصحابه - وقد يكون بالحقيقة هو أحدهم - فلم يكن جوابه إلا «لعن الله قتلة عثمان» وهو جواب غير شاف»^(١).

ولا يمكننا تقييم ما كتبه المستشرق (دونلدسن) ما لم يتم لنا دراسة أغلب الجوانب التي ركز عليها في كتابه آنف الذكر على الرغم من سعتها، ففي الباب الرابع الذي حمل عنوان «علي الإمام الأول»، أفاد فيه بأن دراسة حياة الأئمة بشكل دقيق يكشف حقيقة واحدة، وهي أن رجالاً لا يزيدون عن مستوى الشخص الاعتيادي بشيء قد رفعوا إلى مصاف الخالدين، ويعتقد دونلدسن إن خير طريق للتأكد من هذا الموضوع هو الرجوع إلى أقدم المصادر، فنتمكن بذلك تقدير ما كان عليه هؤلاء الناس في حياتهم الحقيقية، وفي وجودهم المجرد من التمجيد والتقدیس، ومن الضروري في الوقت نفسه محاولة تصوير الهالة التي أحاطتهم بها القصص المتأخرة، وأضاف بأنه ما لم تذهب إلى وراء ما كانوا عليه إلى ما قد قيل فيهم فسيكون نصيبنا الفشل التام. ولا يمكن إيضاح العقائد الغريبة الشاملة التي تُعد اليوم أساساً للإيمان.

وقال دونلدسن بهذا الشأن: «تدلنا أقدم الروايات على أن ادعاء علي بالخلافة لم يكن بنظر أصحابه وشيعته مجرد طموح سياسي بل حق إلهي له. وكان لتعاليم ودسائس شخصية خفية نسبياً في تاريخ الإسلام اليد الطولى في ظهور وجهة النظر هذه وانتشارها. فقد ظهر منذ زمن خلافة عثمان داعية متنقل اسمه عبد الله بن سبأ، قطع البلاد الإسلامية طولاً وعرضاً... واستقر أخيراً في مصر وفيها قام بدور رئيس في المؤامرة في سبيل علي وأعلن أن أبا بكر وعمر وعثمان كانوا غاصبين»^(٢).

ويبدو أن (دونلدسن) قد انساق وراء الروايات التي روجت لهذه

(١) عقيدة الشيعة، ص ٤٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٨.

الإسطورة، ولا نستغرب منه هذا الموقف كون بعض مصادرنا ومراجعنا الإسلامية قد أشارت إلى قضية عبد الله بن سبأ، وحيث إن دونلدسن قد اعتمد على بعضها فمن الطبيعي أن يتأثر بذلك.

ويمكن تقييم موقف المستشرق (دونلدسن) من الخلافة بشكل عام، بأنه كان يشك في صحة الروايات الشيعية التي أكدت على حق الإمام علي عليه السلام في الخلافة استناداً إلى ما صدر من الرسول ﷺ من أقوال وأفعال، وقد أبدى استغرابه من هذه الروايات ووصفها بأنها كانت بفعل دسائس شخصية منسوية إلى ما أسماه بالداعية عبد الله بن سبأ، والحقيقة إن كلام (دونلدسن) بهذا الشأن غير دقيق، لأن الأخبار التي تناولت قصة عبد الله بن سبأ الأسطورية كانت أحداثها في خلافة عثمان، بينما نجد أن مطالبة شيعة الإمام علي عليه السلام بالخلافة كانت بعد وفاة الرسول محمد ﷺ مباشرة، وبعد احتجاجهم بما صدر من أحاديث عن الرسول محمد ﷺ أكد فيها على استخلاف الإمام علي عليه السلام ومن بين هذه الأحاديث، حديث الغدير وأحاديث أخرى سيتم الحديث عنها في صفحات قادمة من هذا الفصل.

ولم تقتصر دراسة المستشرق دونلدسن على خلافة الإمام علي عليه السلام، وكدليل على اهتمامه بكل ما يتعلق بشخصيته، فقد خصص باباً تحت عنوان «مشهد علي بالنجف»، تعرض فيه إلى الروايات التي تناولت مكان دفن الإمام علي عليه السلام على اختلافها، وكذلك التطورات التي طرأت على بناية القبر عبر العصور المختلفة، مستفيداً من المصادر الإسلامية وكتب الرحلات، مثل رحلة ابن جبير (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) وابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م). إضافة إلى بعض المراجع الأجنبية^(١).

اما المستشرق الألماني (كونسلمان) فقد أبدى انطباعه عن الخلافة

(١) عقيدة الشيعة، ص ٧٠ - ٧٩.

في أثناء حديثه عن طبيعة العلاقة بين النبي محمد ﷺ والإمام علي عليه السلام، حيث ذكر أن مهمة إدارة الحكم في الإسلام قد اتخذت أهمية أكثر أثناء السنوات العشر منذ هجرة الرسول ﷺ إلى يثرب وحتى موته، وكان النبي ﷺ في آخر أيامه يسيطر على الجزء الأعظم من شبه الجزيرة العربية، وعلى الرغم من هذا التطور فإن النبي محمداً ﷺ ترك أمر تنظيم خلافته رغم إحاطته ببضعة رجال أكفاء، إلا أنه لم يشأ إلحاق الضرر بواحد منهم، وتجاهل (كونسلمان) إن كان النبي ﷺ لديه فكرة مساعدة آل بيته للوصول إلى السلطة أم لا، إلا أن ورثته المباشرة قد اقتصر على ابنته فاطمة عليها السلام، وحاول كونسلمان الوقوف على بعض الحوادث التي جعلت بعض الصحابة يعولون عليها للحصول على الخلافة، فعلى سبيل المثال اتخذ من حادثة تسليم الرسول محمد ﷺ أمور مقاليد الحكم في يثرب إلى الإمام علي عليه السلام الذي يثق به ويفضله على الآخرين، على أنها الدافع للإمام علي عليه السلام لأن يكون على يقين بأنه سيحصل على مكانة خاصة بعد وفاة الرسول محمد ﷺ، وفي هذا الإطار ذكر (كونسلمان) قولاً للإمام علي عليه السلام بالمعنى وليس بالنص جاء فيه:

«مات رسول الله ﷺ ورأسه على صدري وسال دمه من فمه على يدي فلطخت به وجهي وقد كُلفت بتغسيل الرسول ﷺ وساعدتني الملائكة في ذلك، وكان الضجيج يملأ الدار وكانت ملائكة كثيرة تنزل من السماء وأخرى تصعد إليها. ولم يفتني أي حركة صدرت عنها. وكانت تُصَلِّي علي محمد ﷺ حتى واريناه التراب، فمن كان أقرب لرسول الله ﷺ مني في حياته ومماته؟»^(١).

ورأى المستشرق كونسلمان أن أمر الخلافة قد خرج حقاً عن سيطرة الإمام علي عليه السلام وذلك لانشغاله بواجباته تجاه النبي محمد ﷺ بعد رحيله

(١) سطوع نجم الشيعة، ص ١٢.

إلى ربه الكريم، وبعد أداء واجبه عاد ليرى أن الخلافة قد أخذت منه غدرًا في سقيفة بني ساعدة وأن ما جرى لم يكن عملية شورى وإنما نتيجة مؤامرة^(١).

وينقل (كونسلمان) رواية أخرى على لسان عائشة تبين فيها أن الرسول ﷺ عندما رجع من المسجد في يومه الأخير قد وضع رأسه في حجرها^(٢).

ويعلق (كونسلمان) على هذه الرواية بالقول: «وخاتمة رواية عائشة عن موت النبي ﷺ تُظهر أنها كانت مضطرة للدفاع عن نفسها فلا بد أن يكون أحد قد اتهمها بأنه لم يكن من حقها مطلقاً وفي هذه اللحظة أن تحتضن محمداً. أما الذي وجه لها الاتهام فقد يكون عليّ. الذي قص رواية فيما بعد عن لحظة وفاة الرسول ﷺ. ولم يلتفت إلى رواية علي بأنه الشاهد الوحيد على الوفاة. إلا عندما نشب الخلاف على خلافة رسول الله ﷺ في الحكم»^(٣).

وتابع (كونسلمان) عرض الروايات التي توضح إثبات حق الخلافة في نظر كل التيارات المتصارعة، فيذكر أن رواية أبناء الإمام علي ﷺ واضحة في تحديد أن النبي ﷺ نظم مشكلة خلافته؛ واستدل كونسلمان على ذلك بما ذكره الإمام علي ﷺ من قول النبي عنه بأنه هو الأخ والوريث وعلى المؤمنين طاعته، وإن علياً دائماً مع الحق ومع القرآن وسوف يكون الحق والقرآن معه. وكان كل من يؤمن بأحقية الإمام علي ﷺ بعد موت النبي ﷺ، يرى أن محمداً ﷺ قد نظم مشكلة الخلافة بوضوح قبل عودته للمدينة، ففي موضع يدعى (غدير خم) قام

(١) سطوع نجم الشيعة، ص ١٨.

(٢) انظر، كونسلمان، سطوع، ص ١٣، للاطلاع على رواية عائشة انظر، ابن هشام، السيرة، ١٣٢٤/٤، الطبري، تاريخ، ١٩٩/٣.

(٣) انظر، سطوع نجم الشيعة، ص ١٣.

النبي محمد ﷺ أمام كل المؤمنين الذين ذهبوا معه إلى مكة بتكليف علي عليه السلام بلا شك بتجهيز نفسه لتسلم أعلى منصب. ومن آمن بهذا التكليف فسرعان ما صاروا شيعة علي عليه السلام^(١).

ويضيف كونسلمان القول: «وبالرغم من أن (علياً) استطاع النفاذ إلى وعي الجمهور في الدولة الإسلامية إلا أنه ظل مُستبعداً من الخلافة كذلك بعد مقتل عمر»^(٢).

ويعلل كونسلمان السبب في ذلك إلى العامل الاقتصادي، إذ يصف الإمام علياً عليه السلام بأنه كان واحداً من المنتقدين لنظام جمع الضرائب وقد تسبب هذا الموقف في النهاية في أن لا يكون للإمام علي عليه السلام بين أثرياء العاصمة أصدقاء لترشيحه بعد مقتل الخليفة عمر، فالأسر التي هاجرت مع النبي محمد ﷺ إلى المدينة، أصبحت تُعد من الأسر الثرية للغاية في البلاد فظنت أن الإمام علياً عليه السلام لو صار خليفة فسوف يتبع نظاماً ضريبياً عادلاً يمنع تدفق الأموال على تجار المدينة بدون إخضاعه إلى حساب دقيق، مما دفع أهل المدينة إلى صرف النظر عن الإمام علي عليه السلام ومبايعة عثمان على الرغم من كونه «أقل شأنًا»^(٣) على حدّ تعبير كونسلمان.

ويبدو أن السبب الذي ذكره كونسلمان في استبعاد الإمام علي عليه السلام عن الخلافة مقنعاً ومنطقياً رغم كونه لم يكن السبب الوحيد والمباشر.

وخلص كونسلمان إلى القول: «أما فشل علي كخليفة فله مبرره القوي، وهو أن رجال النخبة في مكة والمدينة اعتادوا على حكم رجال السياسة الذين يفكرون في المصالح الاقتصادية للطبقة العالية بالذات. وهم لم يشاؤوا الرجوع إلى عصر النبي ﷺ ولا أن يطلب منهم الخضوع.

(١) انظر، سطوع نجم الشيعة، ص ١٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨، ١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٩.

أما علي فلم يملك القوة لهدم نظام السلطة القائم في أهم مدينتين في شبه الجزيرة العربية. إلا أن تطلعه إلى بلاد الرافدين أحيا لديه الآمال^(١).

إن قراءة المستشرق كونسلمان لأحداث الخلافة تعبر عن وجهة نظر ثابتة إذ أدرك أن المصالح الشخصية القائمة على المرتكزات الاقتصادية قد أخذت مداها في تكوين الطبقة داخل المجتمع الإسلامي مما أثر سلباً في مجريات أحداث الخلافة بعد وفاة الرسول محمد ﷺ.

وتحدث المستشرق (يان ريشار) عن أفضلية الإمام علي عليه السلام من دون غيره للخلافة، وأكد ذلك بقوله: «فإذا نظرنا إلى عامة المسلمين، وجدنا أن علياً هو النموذج الأمثل للحاكم الواعي والملمهم، وفي الأصل فإنه كان يقوم بما يشبه وظيفة الوزير في حكومة النبي، وكان قوياً كالأسد، ومسلحاً بسيفه «ذو الفقار» الذي كان له حدان، ولكنه تحول بحكم الأيديولوجيا المناضلة إلى شهيد في سبيل العدالة. وحقاً فإنه كان في وسعه أن يثور على تعيين الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه. وعلى العزل الكامل الذي وضعه في عثمان، وكان بوسعه أن يحتال على معاوية، كمقدمة لإضعافه أي موالاته أولاً، للهجوم عليه فيما بعد بصورة المفاجأة وكان بإمكانه أن، يتجاوز بالحيلة، ما علق في رؤوس الرماح من وريقات القرآن، في معركة صفين، واستعمل تفوقه العسكري فيها حتى النهاية»^(٢).

والحقيقة أن مقاييس أساليب النجاح في الحرب عند (ريشار) لو استعملها الإمام علي عليه السلام لانتصر في حربه ضد معاوية، ولكن المبادئ التي يحملها الإمام علي عليه السلام ليست نفسها التي يحملها معاوية أو الأساليب التي يفكر في ضرورة استعمالها المستشرق (ريشار) لكسب أي

(١) انظر، سطوع نجم الشيعة، ص ٣٠، ٣١.

(٢) الإسلام الشيعي، ترجمة، حافظ الجمالي، دار عطية، (بيروت - ١٩٩٦م)، ص ٤٠.

حرب، فالإمام علي عليه السلام يرفض استعمال الغدر والخداع مهما كانت النتائج التي يراد الوصول إليها.

وعندما يتحدث (ريشار) عن بيعة الغدير يؤكد أحقية الإمام علي عليه السلام بالخلافة فيقول بصدد ذلك:

«وأول قضية تراثية يتسلح بها الشيعة، من غير أن ترفضها السنة رفضاً كلياً، هي تلك التي تجعل ولاية الخلافة لعلي، ابن عم النبي وصهره، ولاية شرعية على جماعة المسلمين»^(١).

وبذلك فإن (ريشار) يرى بأن تعيين الإمام علي عليه السلام خليفة للرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم في بيعة الغدير كانت قضية محسومة ولا يمكن للمنصفين إنكارها، ويمكن تلمس ذلك من خلال قوله:

«وعلى الرغم من أن علياً هو الخليفة المعين من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه أُستبعد عن هذه الخلافة»^(٢).

ويبدو أن المستشرق ريشار قد اطلع على ما كُتب في مصادرنا التاريخية واستطاع بموضوعيته أن يميز وجه الحق في استحقاق الإمام علي عليه السلام لأن يكون خليفة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى الرغم من أن ما كتبه عن الخلافة كان بإيجاز شديد ولكنه أصاب كبد الحقيقة.

(١) الإسلام الشيعي، ترجمة، حافظ الجمالي، دار عطية، (بيروت - ١٩٩٦م)، ص ٣٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٥.

المبحث الثالث

الرد على الدراسات الاستشراقية التي تؤيد
عدم استخلاف النبي محمد ﷺ لأحد

في ضوء مواقف الشيعة الإمامية

بعد أن تابعنا ما ذكره بعض المستشرقين بشأن موضوع الخلافة، يمكننا في هذا المبحث معالجة أهم نقطة قد أوردها بعض المستشرقين وهي ادعائهم عدم تعيين الرسول محمد ﷺ خليفة من بعده، بعد الاستعانة بما ورد في بعض مصادرنا أو مراجعنا الإسلامية، سواء كانت أفكار هؤلاء المستشرقين قد تبناها لقناعتهم بها أم إنهم قد تأثروا بما كتب عنها في الكتابات العربية والإسلامية، وغابتنا في ذلك هي الوقوف على بعض الحقائق التاريخية التي أغفلها هؤلاء المستشرقون جهلاً بها أو بقصد السير في ركب المؤرخين الذين انساقوا وراء مذهبيتهم أو عواطفهم أو تحزبهم لطرف معين دون آخر، من أجل الحصول على مكاسب مادية أو معنوية أو خوفاً من أصحاب السلطة عند إعلان تلك الحقائق. وسوف يكون التعامل مع هذه المعالجات بشكل مباشر ومختصر لأنها حقائق سبق أن شخص أغلبها العديد من الباحثين، وعندما نحاول ذكرها وإضافة ما يمكن إضافته إليها مضافاً لما أمكننا ذكره من خلال مجريات المبحث الثاني، فغابتنا أن لا تكون هذه الدراسة عرضاً واقتباسات من هنا وهناك

لما ورد في كتب المستشرقين حول موضوع الخلافة فقط دون ذكر ما يقابلها من حقائق وردت على لسان المؤرخين المسلمين، لكي تكتمل الصورة وتكون هناك موازنة في عرض الأحداث.

لقد أفرزت بعض الدراسات الاستشراقية مسألة في غاية الأهمية، أن الرسول محمداً ﷺ لم يكن قد حدد نظاماً معيناً لمسيرة الخلافة قبل وفاته، بل ترك الأمر شوري للمسلمين. فلو دققنا بعض المصادر الإسلامية التي يعتمد ويعول عليها أصحاب هذا الرأي أنفسهم في بيان أحداث تاريخية أخرى، نجد إن هناك دلائل واضحة على أن الرسول الكريم محمداً ﷺ قد حسم موضوع من سيخلفه قبل مرضه الأخير ووفاته، وأشار إلى ذلك في أكثر من مناسبة وبشكل تدريجي بحيث لا يثير حفيظة صحابة آخرين مقربين منه كان أمنية كل واحد منهم أن يكون خليفة رسول الله ﷺ، بل وتمت مباركة الشخص الذي حدده الرسول ﷺ ليكون خليفة من الصحابة الطامحين في نيل الخلافة أنفسهم في إحدى المواقف. ويمكن إجمال أهم هذه المواقف وحسب سبقتها التاريخي، التي تعد دلائل على استخلاف الإمام علي عليه السلام بما يأتي:

١ - حادثة التبليغ: المعروفة بيوم الدار، وملخص هذه الحادثة، أنه عندما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١) في بداية الدعوة الإسلامية، عمل الرسول الكريم ﷺ على تنفيذ الأمر الإلهي، حيث دعا أقرباءه وقال لهم:

«يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء بأفضل مما جئتم به، إني قد جئتم بخير الدنيا والآخرة. وقد أمرني الله ﷻ أن أدعوكم إليه. فأياكم يؤمن بي ويؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟» فسكت القوم ولم يجيبوا إلا الإمام علي عليه السلام على الرغم من صغر سنه، حيث قال:

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

«أنا يا رسول الله أكون وزيرك على ما بعثك الله». وبعد أن كرر الرسول محمد ﷺ هذا القول ثلاث مرات لم يستجب له سوى الإمام علي عليه السلام، حينها التفت إليهم الرسول محمد ﷺ قائلاً:

«إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له واطيعوا». فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب، قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع^(١).

هذا هو أول موقف من المواقف التي انفرد بها الإمام علي عليه السلام ليساند فيه ابن عمه النبي محمداً ﷺ في نشر الدعوة الإسلامية، ليستحق على إثره أول إشارة من الرسول محمد ﷺ ليكون عليُّ أخاه ووصيه وخليفته من بعده.

ويندرج في المضمون نفسه ما ذكره ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) من قول للرسول الكريم ﷺ جاء فيه:

«لكل نبي وصي ووارث وإن وصيي ووارثي علي بن أبي طالب»^(٢).
وعندما نزل قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمَنْ ذُرِّيَّتِي﴾^(٣)،
رُوي عن ابن عباس عليه السلام في تفسيره لهذه الآية، قال: قال رسول الله ﷺ: «انتهت الدعوة إليَّ وإلى علي لم يسجد أحدنا قط لصنم، فاتخذني نبياً واتخذ علياً وصياً»^(٤).

ويؤكد الشيخ المفيد أهمية حادثة التبليغ بوصفه أن مؤازرة الإمام

(١) انظر، الطبري، تاريخ، ج ٢/٣١٩ - ٣٢١؛ ابن الأثير، الكامل، ج ١/٥٨٦.

(٢) الكامل، ج ١/٥٨٦، ٥٨٧؛ ابن كثير، التفسير، ٣/٥٦١؛ الحلبي، السيرة الحلبية، مجلد ٣/٣٣٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٣.

(٤) ابن سعد، الطبقات، ١/١٢٤؛ النيسابوري، المستدرک، ٣/١٢٥؛ المحب الطبري، الرياض النضرة، ٢/٢٣٤.

علي للنبي ﷺ في تلك الفترة من المناقب الجليلة، التي انفرد بها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وهي من الأمور التي تدل على إمامته، فقال الشيخ المفيد في ذلك:

«وفي الخبر ما يفيد أنه به ﷺ تمكن النبي ﷺ من تبليغ الرسالة وإظهار الدعوة والصدع بالإسلام»^(١).

وذكر الطبري حديثاً للإمام الحسين عليه السلام يبين فيه أن الله سبحانه وتعالى قد بلغ رسالته عبر رسوله ﷺ ليكون أهل بيته عليه السلام هم أوصيائه وورثته، فقال الإمام الحسين عليه السلام: «أما بعد، فإن الله اصطفى محمداً ﷺ، على خلقه، وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته، ثم قبضه الله إليه، وقد نصح لعباده، وبلغ ما أرسل به ﷺ، وكنا أهله وأولياءه، وأوصيائه وورثته، وأحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة وأحببنا العافية، ونحن نعلم إننا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه»^(٢).

٢ - حديث المنزلة: خلاصة هذا الدليل ما ذكره البخاري وأكده غيره من المؤرخين، أنه عندما خرج الرسول محمد ﷺ إلى غزوة تبوك عام (٤٨هـ) فاستخلف الإمام علياً عليه السلام على المدينة، حينها قال له الإمام علي عليه السلام: أتخلفني في الصبيان والنساء، فقال له الرسول ﷺ «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا إنه ليس نبي بعدي»^(٣).

وكانت دلالة هذا الحديث هي محاولة الرسول الكريم ﷺ إعداد الإمام علي عليه السلام لممارسة خلافته في حياته تمهيداً لما هو بعد وفاته ﷺ.

(١) انظر، محمد بن محمد العكبري (ت ٤١٣هـ)؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، مؤسسة أهل البيت، ط ١ (قم - ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)، ج ١/ ٥١.

(٢) تاريخ الأمم، ٣٥٧/٥.

(٣) انظر، ابن سعد، الطبقات، ١٤/٣، ١٥، ١٧؛ صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، ص ٧٧٦، أبو نعيم، حلية الأولياء، ٣٤٥/٤.

وفي رواية عن أبي هارون العبدى، قال:

«سألت جابر بن عبد الله الأنصاري عن معنى قول النبي ﷺ لعلني ﷺ»:

«أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا إنه لا نبي بعدي»، قال: استخلفه بذلك والله على أمته في حياته وبعد وفاته، وفرض عليهم طاعته فمن لم يشهد له بعد هذا القول بالخلافة فهو من الظالمين»^(١).

٣ - حديث يوم الغدير: بعد أن أتم الرسول الكريم ﷺ حجه الأخير في السنة العاشرة للهجرة التي سميت حجة الوداع وعند وصوله إلى منطقة تدعى غدير خم، نصب الإمام علياً ﷺ ليكون خليفته، وقد وردت أحاديث عدة بطرق إسناد مختلفة فيها زيادة أو نقصان، ويمكن إيجازها في الروايات الآتية:

عن ابن عباس وجابر بن عبد الله ﷺ قالوا: «أمر الله «تعالى» محمداً أن ينصب علياً للناس ليخبرهم بولايته، فتخوف رسول الله ﷺ أن يقولوا: حابي ابن عمه، وأن يطعنوا في ذلك عليه، فأوحى الله إليه: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٢) فقام رسول الله بولايته يوم غدير خم»^(٣).

وعن البراء بن عازب، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألستم تعلمون إني أولى بالمؤمنين من أنفسهم» قالوا: بلى. قال: «ألستم تعلمون إني أولى بكل مؤمن من نفسه، قالوا: بلى فأخذ بيد علي، وقال: «اللهم من

(١) الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي (ت ٣٨١هـ)، معاني الأخبار، تحقيق علي أكبر الغفاري، دار المعرفة للطباعة، (بيروت - ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ص ٧٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٣) الحاكم الحسكاني، عبد الله بن عبد الله بن أحمد (من أعلام القرن الخامس الهجري)، شواهد التنزيل بقواعد التفضيل، تحقيق محمد باقر المحمودي، مؤسسة الأعلمي، (بيروت - ١٣٩٣هـ/١٩٧٤م)، ١/١٩٢.

كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه...»^(١).

وفي رواية للحارث بن مالك، أنه قال: قام رسول الله ﷺ فأبلغ ثم قال: «أيها الناس: أأست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» ثلاث مرات، قالوا: بلى قال: «إدنُ يا علي»، فرفع يده ورفع رسول الله ﷺ يده حتى نظرت إلى بياض أبطيه، فقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»، حتى قالها ثلاث مرات^(٢).

وروى الفخر الرازي في ذيل تفسير قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾^(٣) قال نزلت الآية في فضل علي بن أبي طالب ﷺ، ولما نزلت هذه الآية أخذ رسول الله ﷺ بيد علي، وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه»، فلقيه عمر فقال: هنيئاً لك أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة^(٤).

وبعد تنصيب الإمام علي ﷺ أمره رسول الله ﷺ بأن يجلس بخيمة بجوار خيمته، وبعد ذلك أمر المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً، يسلمون عليه ويباركونه إمرة المؤمنين ثم أمر أزواجه وجميع نساء المسلمين أن يسلمن عليه^(٥).

(١) ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله (٢٣٥هـ)، المصنف في الأحاديث والأخبار، الدار السلفية، بومباي، (الهند - ١٤٠٢هـ)، مجلد ٧/ص ٥٠٣.

(٢) ابن عساکر، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي، (ت ٥٧٣هـ)، ترجمة الإمام علي من تاريخ دمشق، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي، ط ٢ (بيروت - ١٣١٨هـ)، ٧/٢.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٤) التفسير الكبير، ٤٩/١٢، السيوطي، جلال الدين (ت ٩١١هـ)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، (بيروت - ١٤٠٣هـ)، ١١٧/٣.

(٥) انظر، الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ)، أعلام الوري بأعلام الهدى، المكتبة الحيدرية، ط ٣ (النجف - ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م)، ص ١٣٢ - ١٣٣.

وكان من بين المهنتين للإمام علي عليه السلام عمر بن الخطاب، حيث قال له: «هنيئاً لك [يا بن أبي طالب] أصبحت وأمست مولى كل مؤمن ومؤمنة»^(١). وفي رواية أخرى قال له عمر: «بخ بخ لك يا بن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مسلم...»^(٢).

وذكر الهيثمي (ت ٩٧٤هـ) رواية بين فيها أن أبا بكر وعمر قالوا له: «أمست يا بن أبي طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة»^(٣).

وحاول عدد من المؤرخين المحدثين^(٤) الدخول في نقاشات لتوضيح قصد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فيما قاله بخطبة الغدير، فقد أشار محمد بيومي مهران إلى أن كل ما صدر عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يدل بشكل واضح ولا لبس فيه على أنه أوصى واستخلف الإمام المقتدى به وهو علي بن أبي طالب عليه السلام وأضاف هذا المؤرخ القول: «ومما يؤكد ذلك قول أبي بكر وعمر لعلي بعدما سمعا قول النبي صلى الله عليه وسلم. أمست يا بن أبي طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة، أو قول عمر بخ بخ لك يا بن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مسلم، أو هنيئاً لك يا بن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لو لم يكن قد أنشأ وأوجد بفعله وقوله ذلك لعلي عليه السلام منصباً جديداً، لم يكن ثابتاً له من قبل، لما قالوا له: أمست أو أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة، ونحو ذلك، فإن مثل هذا التعبير لا يقال إلا عند حصول منصب جديد حادث،

(١) ابن حنبل، المسند، ٣٥٥/٥، ابن أبي شيبة، المصنف، ٧٩/١٤.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٨٥/٥.

(٣) الصواعق المحرقة، ص ٦٧.

(٤) على سبيل المثال، انظر، الحسيني، إدريس هاني، الخلافة المغتصبة أزمة تأريخ أم أزمة مؤرخ، د. م - د. ت، ص ١٢٢ وما بعدها؛ الخزاعي، عبد الحسين، إمام وخليفة، مكتبة الألفين، (لندن - ١٤٢١هـ/٢٠٠١م)، ص ٢٧ - ٤٠؛ القبانجي، أحمد، خلافة الإمام علي بالنص أم بالنصب؟، سلسلة ثقافة إسلامية معاصرة، عدد/١، (د. م - ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م)، ص ٦٥ - ٨٦.

وإلا فالإمام علي إنما كان محباً لمن كان النبي ﷺ محباً له، أو ناصراً لمن كان النبي ﷺ ناصراً له، وهذا كله واضح، لا يحتاج إلى مزيد بيان^(١).

وقد ذكر الشيخ المرتضى (ت ٤٣٦هـ) خبر حادثة الغدير وعده من النصوص الجليلة الدالة على إمامة علي بن أبي طالب ﷺ، وأكد صحة الخبر وتواتره^(٢).

كما جعله الطبرسي (ت ٥٤٨هـ) من النصوص الجليلة وأورد رواته^(٣).

ويُذكر أن الشاعر حسان بن ثابت (ت ٥٤هـ) قد أنشد بحق الإمام علي ﷺ في يوم الغدير شعراً قال فيه^(٤):

يناديهم يوم الغدير نبيهم	بخم فأسمع بالرسول مناديا
وقال فمن مولاكم ووليكم	قالوا ولم يبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت ولينا	ومالك منا في الولاية عاصيا
فقال له قم يا علي فإنني	رضيتك من بعدي إماماً وهاديا
فمن كنت مولاة فهذا وليه	فكونوا له أنصار صدق مواليا

٤ - ويضيف الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ) دليلاً مهماً يثبت حق الإمام علي ﷺ في الخلافة حيث قال:

«فأما الاجماع على ما يوجب له [أي للإمام علي ﷺ] الإمامة من

(١) مهران، محمد بيومي، الإمامة وأهل البيت، ص ١٢٣.

(٢) انظر، الشريف، أبو طالب علي بن الحسين، (ت ٤٣٦هـ)، الشافي في الإمامة، مؤسسة الصادق، (طهران، د. ت)، ص ٨٥، ٨٨.

(٣) انظر، أعلام الوري بأعلام الهدى، ص ١٦٧.

(٤) المغازلي، أبو الحسن علي بن محمد الشافعي (ت ٤٨٣هـ)، مناقب الإمام علي بن أبي طالب، دار الأضواء، ط ٣ (بيروت - ١٤٠٣هـ)، ص ١٩.

الخلال فهو إجماعهم على مشاركته لرسول الله ﷺ في النسب، ومساهمته له في كريم الحسب، واتّصاله به في وكيد السبب، وسبق الأمة كافة إلى الإقرار، وفضله على جماعتهم في جهاد الكفار، وتبريزه عليهم في المعرفة والعلم بالأحكام وشجاعته وظاهر زهده الذي لم يختلف فيه اثنان، وحكمته في التدبير وسياسة الأنام وغناء بكماله في التأديب المحجوج إليه النقص عن الكمال، و ببعض هذه الخصال يستحق الإمامة فضلاً عن جميعها على ما قدمناه»^(١).

٥ - أحاديث عديدة للرسول محمد ﷺ يستدل بها على تفضيله للإمام علي عليه السلام ورغبته في استخلافه، نذكر منها:

- قول الرسول محمد ﷺ: «علي مني وأنا من علي، ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي».

روى الترمذي في صحيحه، بسنده عن أنس بن مالك قال بأن النبي محمداً ﷺ بعث ببراءة [إلى أهل مكة] مع أبي بكر، ثم دعاه فقال: «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا، إلا رجل من أهلي»، فدعا علياً، فاعطاه إياه^(٢).

وذكر المحب الطبري قولاً للإمام علي عليه السلام، جاء فيه «لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي ﷺ دعا النبي ﷺ أبا بكر، فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة، ثم دعاني فقال لي: أدرك أبا بكر، فحيثما لقيته فخذ الكتاب، فاذهب به إلى أهل مكة، فاقرأه عليهم، فلحقته فأخذت الكتاب منه، ورجع أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، نزل فيّ

(١) محمد بن النعمان العكبري (ت ٤١٣هـ)، الإفصاح في إمامة علي بن أبي طالب، دار المنتظر، ط ٢، (بيروت - ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص ١٥.

(٢) الصحيح، ص ٩٧٧؛ النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ)، تهذيب خصائص أمير المؤمنين، دار الكتب العلمية (بيروت، د. ت)، ص ٦٧، ٦٨.

شيء؟ قال: «لا: جبريل جاءني» فقال: لن يؤدي عنك، إلا أنت أو رجل منك»^(١).

ولعل من دواعي البحث تقييم موقف الرسول محمد ﷺ حينما أناب عنه الإمام علي ﷺ ليبلغ أهل مكة بما جاء في مضمون سورة براءة بعدما كانت هذه المهمة تخص الخليفة أبا بكر بوصفه كان أميراً للحج في حينه، ففي هذا الموقف إشارة واضحة لاستجابة الرسول ﷺ لنداء جبرائيل ﷺ الذي فضل الإمام علياً ﷺ على غيره لتبليغ أمر الله سبحانه وتعالى عبر رسوله الكريم ﷺ، وهذا الموقف فيه تعزيز لحادثة تاريخية سابقة هي غزوة تبوك التي استخلف فيها الرسول محمد ﷺ الإمام علياً ﷺ على المدينة ليحل محله.

- قول الرسول الكريم ﷺ، إن الإمام علياً ﷺ وزيره:

روى المحب الطبري بسنده إلى (أسماء بنت عميس)^(٢) قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أقول - كما قال أخي موسى - اللهم اجعل لي وزيراً من أهلي، أخي علياً، أشدد به أزري، وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيراً، ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً»^(٣).

يضاف لما ذكرنا من أدلة فقد أوضح العلامة الشيخ الأمين حادثة الغدير التي أشرنا إليها سابقاً، بما لا يقبل الشك في إنكارها أو تأويلها،

(١) المحب الطبري، الرياض النضرة، ج ٣/ ١١٩.

(٢) هي أسماء بنت عميس بن معاذ بن الحارث بن هشام، تزوجها جعفر بن أبي طالب، وأنجبت منه عبد الله وعوناً ومحمداً وعند استشهاده في معركة (مؤته ٥٨) تزوجها أبو بكر الصديق فولدت له محمداً، ثم مات عنها فتزوجها الإمام علي فولدت له يحيى وعوناً، انظر، ابن سعد، الطبقات، ج ٨/ ٢١٩ - ٢٢٢.

(٣) ابن حنبل، أحمد، فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، تحقيق حسن حميد السنيد، المجموع العالمي لأهل البيت، مطبعة ليلي، (قم، ١٤٢٥هـ)، ص ٣٧٠؛ المحب الطبري، الرياض النضرة، ٣/ ١٠٦.

في كتابه (الغدير في الكتاب والسنة والأدب)، فأورد أسماء مائة وعشرين صحابياً رووا حديث الغدير^(١). ومن التابعين أربعة وثمانين تابعياً^(٢).

ومن روى حديث الغدير من أئمة الحديث وحفاظه والأساتذة، ذكر الأئمة ثلاثمائة وستين شخصاً^(٣).

فضلاً عن المؤلفين في حديث الغدير من الفريقين وهم تسعة وعشرون^(٤)، وكان الشهود لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يوم الرحبة بحديث الغدير، بحسب ما ذكر الأئمة أربعة وعشرين صحابياً^(٥).

(١) انظر، الأئمة، الغدير، ٣٥/١ - ٨٧.

(٢) المصدر نفسه، ٨٩/١ - ١٠١.

(٣) المصدر نفسه، ١٠٢/١ - ١٩٠.

(٤) المصدر نفسه، ١٩١/١ - ١٩٨.

(٥) المصدر نفسه، ٢٢٧/١ - ٢٢٩.

الفصل الرابع

الحروب التي خاضها الإمام علي عليه السلام
ضد الخارجيين على السلطة [الضالين]
في الدراسات الاستشراقية

مدخل

نالت الحروب التي خاضها الإمام علي عليه السلام ضد الناكثين لبيعته وهما طلحة والزبير وأتباعهما، والقاسطين^(١) وهم معاوية وأتباعه فضلاً عن المارقين الذين يُطلق عليهم لقب الخوارج اهتمام عدد من المستشرقين الذين ركزوا في دراساتهم على إبراز جوانب من أحداث المعارك الثلاث التي دارت رحاها والمتمثلة بالجمال وصفين والنهروان، وقد حاول هؤلاء المستشرقون الوقوف على الأسباب التي أدت إلى حدوث هذه المعارك، وسيتبين من خلال هذا الفصل بأن بعضهم قد أخذ بظاهر الأسباب المعلنة في مصادرنا التاريخية دون الدخول والتحري عن الأسباب الحقيقية، أو إنهم تأثروا بآراء غيرهم حينما تناقلوا الأخبار المتعلقة بهذه المعارك وما نجم عنها سوى أن البعض قد شخّص الحقائق فيما يتعلق بالأسباب والنتائج.

سيتناول هذا الفصل وجهات نظر وما تناقله بعض المستشرقين بشأن هذا الموضوع مع الأخذ بالحسبان ما ورد من آراء، واللجوء في بعض الأحيان إلى اقتباس النصوص التي توضح بجلاء موقف هؤلاء المستشرقين من الحروب التي حدثت إبان تسلم الإمام علي عليه السلام الخلافة.

(١) من القسوط وهو الجور، لأنه عدول عن الحق، فيقال قَسَطَ يَقْسِطُ قَسْطًا، فهو قاسط إذا جاز عن الطريق، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ سورة الجن، الآية: ١٥. والرجل القسطاء التي في ساقها إعوجاج لعدوله عن الاستقامة، الطوسي، التبيين في تفسير القرآن، ٣٧٥/٢.

المبحث الأول

حرب الإمام علي عليه السلام ضد الناكثين في معركة الجمل

من بين المتاعب الجمة التي واجهها الإمام علي في أثناء خلافته هي معركة الجمل، وخاض هذه المعركة ضد الناكثين لبيعته وهم طلحة والزبير ومن التحق بهما من أتباع السيدة عائشة زوج الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقد حظيت هذه المعركة باهتمام عدد من المستشرقين.

كان من بينهم المستشرق الإنكليزي بودلي الذي ذكر أن السبب الذي دفع لوقوع هذه الحرب هو عدم ميل الإمام علي عليه السلام لمعاينة قتلة الخليفة عثمان، مما أدى إلى استغلال عائشة هذه «الأخطاء» لتتال من الإمام علي عليه السلام، إذ اتهمته بأن له يداً في عملية القتل، وقد ساندها في ذلك معاوية بوصفه شيخ الأمويين وأحد المطالبين بدم الخليفة عثمان من جانب، ولأنه كان يطمع في الخلافة من جانب آخر، ويضيف بودلي على ما تقدم بالقول:

«وإن من تابع ذلك كان كقصة خيالية لا تحاكيها أية قصة خرافية خرجت من بلاد العرب»^(١).

(١) انظر، حياة محمد، ص ٤٢٣.

ولكن بودلي لم يوضح جانب الخيال والخرافة في كل ما قاله عن معركة الجمل.

وذكر أن عائشة وبمعاونة طلحة والزبير أعدت جيشاً في مكة وانطلقت إلى البصرة التي وصفها أنها كانت منقسمة في ولائها للإمام علي عليه السلام، وقد كره استعمال القوة ضدّ زوج الرسول صلى الله عليه وآله كرهاً شديداً، وخرج إلى البصرة وحاول أن ينهي الأمر بحنكة سياسية، ولكنه لم يستطع، وكان في كلا المعسكرين كثير من المتهورين ومن الذين يحبون المغامرة، وقليل منهم كان يسعى إلى وحدة المسلمين التي غرسها النبي محمد صلى الله عليه وآله في نفوسهم، وقد بدأت المعركة ببعض المناوشات في ديسمبر ٣٦هـ/ ٦٥٦م أدّت إلى اشتباك الجيشين في القتال^(١).

وتابع بودلي ذكر وقائع المعركة ووصفها أنها كانت شديدة وقاسية، وكانت قيادة الإمام علي عليه السلام هي المتفوقة وأرغم جنود عائشة على التقهقر المرة تلو الأخرى، رغم محاولتهم لملمة شعثهم بين الحين والآخر على صوت قائدتهم، إذ اشتدت المعركة حول جمل عائشة حتى أصبح هودجها الأحمر كالقنفذ جراء الرماح والسهام والحراب المغروسة فيه، وقد سقط جنود عائشة واحداً بعد الآخر عند أقدام الجمل، مما أدّى إلى جرح عائشة جرحاً طفيفاً، وأخيراً جاء رجل وضرب الجمل على خواتمه فعفره وكان ذلك إيذاناً بالهجوم لجيش الإمام علي عليه السلام، فانهمز رجال عائشة^(٢).

وختم (بودلي) حديثه عن معركة الجمل بهذا القول: (ولما كان علي جندياً باسلاً بقدر ما كان حاكماً فاشلاً. فقد كبح جماع جنده، فلم تكن هناك مذابح ولم يستول الجنود على غنائم وأسلاب، وذهب لزيارة عائشة كما كان يزورها في الأيام الخوالي في دور النبي الملتصقة في المسجد، فلم ترحب عائشة بالزيارة الكريمة، واستقبلت علياً في غلاسة وصمت

(١) انظر، حياة محمد، ص ٤٢٣ - ٤٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٤.

وقد كان كل ما قالته «يا بن أبي طالب، ملكت فاصفح...» فصفح علي وجعلها بجمال وحرس، وأرسلها إلى مكة ثم إلى المدينة»^(١).

وليس كل ما ذكره بودلي كان دقيقاً، ففيما يتعلق بالسبب الذي أدى إلى معركة الجمل لم يكن كما ادعاه، وإن صح ادعاؤه فإن الأطراف التي اشتركت في قتل الخليفة عثمان كانت متوزعة هنا وهناك مما يصعب السيطرة عليها ولو أمكن الإمام ذلك لحال دون وقوع الحادث أصلاً، من جانب آخر فإن الثوار قد هددوا الإمام علياً عليه السلام بأن يلحقوه بصاحبه ما لم يستجب لمطالبهم وفي مقدمتها تسلم الخلافة.

كذلك وصف بودلي الإمام علياً عليه السلام أنه كان حاكماً فاشلاً في الوقت الذي قال عنه أنه جندياً باسلاً، ولم يسمح لجنوده بالاستيلاء على الغنائم أو ارتكاب جرائم الذبح وعامل السيدة عائشة بكلّ حسنى وأرجعها إلى المدينة معززة مكرمة.

فإذا كان عدم الاستيلاء على الغنائم والابتعاد عن جرائم الذبح ومعاملة السيدة عائشة بالحسنى لم تكن وسائل نجاح تُحسب للإمام علي عليه السلام فلا نعلم ما هي مقاييس الحاكم الناجح عند بودلي؟

ويطل المستشرق (هنري ماسيه) ليبيدي رأيه في معركة الجمل بشكل موجز ومختصر إلى حدّ كبير، فقد وضح أنه وبعد أكثر من خمسة أشهر على تقلد الإمام علي عليه السلام الخلافة، ترك المدينة وتوجه على رأس جيش إلى البصرة، وكان من المحتمّ عليه إخضاع طلحة والزبير اللذين اتفقا مع عائشة لشنّ الحرب ضد الإمام علي عليه السلام بحجة الثأر للخليفة عثمان، والحقيقة كما يُعبّر عنها (هنري ماسيه) هي العداة السابق الذي تكنه عائشة نتيجة لموقف الإمام علي عليه السلام الذي أشار فيه على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بضرورة طلاقها بعد حادثة الأُفك^(٢).

(١) انظر، حياة محمد، ص ٤٢٤.

(٢) هنري ماسيه، الإسلام، ص ٦٤.

ويأتي المستشرق (سيديو) بوصف دقيق للدور الذي مارسه عائشة وطلحة والزبير في حربهم ضد الإمام علي عليه السلام، إذ أشار (سيديو) إلى إن رفض الإمام علي عليه السلام تولية طلحة والزبير الكوفة والبصرة أدى إلى أن تنقلب صداقة هذين الرجلين إلى حقد شديد، أما عائشة فقد وصفها إنها «روح كل مكيدة»^(١).

ويضيف (سيديو) القول إنَّ أحد عمّال^(٢) الإمام علي عليه السلام قد أخذ على حين غفلة مما دفع باللجوء إلى السلاح، وتوجه الإمام علي إلى العراق، وقد قتل كل من طلحة والزبير في الموقعة المعروفة بيوم الجمل سنة (٣٦هـ)، في الوقت الذي تمَّ أسر السيدة عائشة ومعاملتها معاملة حسنة وإرسالها إلى المدينة مع ولدي الإمام علي عليه السلام الحسن والحسين عليهما السلام، واتَّخذت بعد ذلك الكوفة مقراً للخلافة وتمت مبايعة الإمام علي عليه السلام من أهل العراق والجزيرة العربية وفارس وخراسان^(٣).

أما المستشرق (الفريد جيوم) فقد وصف عهد الإمام علي عليه السلام أنه كان بداية الانقسامات التي لم تنته قط بين المسلمين إذ إن عائشة زوج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومعها طلحة والزبير كانوا معارضين لحكم الإمام علي عليه السلام وقد هزمهم في الموقعة المعروفة باسم (وقعة الجمل)، وقتل طلحة والزبير ولم تكن هذه الحادثة بداية المتاعب فحسب فقد كان هناك خصم آخر هو معاوية بن أبي سفيان، ابن عم الخليفة المقتول الذي كان عثمان قد عينه والياً على الشام، مما حدا به المطالبة بدمه^(٤).

(١) تأريخ العرب العام، ص ١٢٧

(٢) يقصد به سيديو الوالي عثمان بن حنيف الذي عينه الإمام علي على البصرة، وقد أسره طلحة والزبير بعد أن قتلوا حراسه وقاموا بنتف لحيته وشاربه والاستيلاء على بيت المال في إبان معركة الجمل، انظر، الطبري، التاريخ، ٤/٤٦٨.

(٣) تأريخ العرب العام، ص ١٢٧.

(٤) الفريد جيوم، الإسلام، ص ٢١.

وفيما يخص المستشرقة البولونية (يوجينا غيانه شتيسفسكا) فقد ذكرت أن كل من طلحة والزبير قد بايعا الإمام علياً عليه السلام وبعد ذلك مباشرة ذهبوا إلى مكة والتقيا بعائشة التي وصلت إلى مكة قبل مقتل الخليفة عثمان، ورجبها في قتال الإمام علي ومطالبته بدم عثمان، مما أدى إلى أن يتبعهم كثير من بني أمية، فساروا لقتال الإمام علي عليه السلام وفي أثناء المسير أرادت عائشة الرجوع فلم يسمحوا لها بذلك وحاولوا الاستيلاء على البصرة فمنعهم والي الإمام علي عثمان بن حنيف من دخولها، وأكدوا للوالي أنهم لم يقصدوا الحرب وإنما الصلح وكتبوا بينهم وبينه كتاباً على أنهم لم يتسببوا في أية مشكلة حتى قدوم الإمام علي عليه السلام، لكن أصحاب طلحة والزبير غدروا بعثمان بن حنيف وسجنوه، ثم أطلقوا سراجه بعد أن عذبه، وعندما تلقى الإمام علي عليه السلام الخبر سار إلى البصرة ومعه أربعة آلاف من أهل المدينة وانضم إليه ستة آلاف من أهل الكوفة، وعند وصوله البصرة، سعى جاهداً لتجنب أسباب الحرب، فلم يمكنه ذلك، وحينها دارت الحرب بين الطرفين أربع ساعات وكانت عائشة راكبة على الجمل، وأسفرت النتيجة عن هزيمة عائشة وقتل طلحة في المعركة أمّا الزبير فقد قُتل أيضاً ولكن عندما حاول الهروب إلى المدينة، وأمر الإمام علي عليه السلام بأن تعود عائشة إلى المدينة بعد أن جهزها بما تحتاج إليه، وسميت هذه المعركة بـ (وقعة الجمل)^(١).

وتناول المستشرق (ولاستون) معركة الجمل بعد أن بدأ الحديث عن الاضطراب الذي سببه مقتل الخليفة عثمان مما أدى إلى أن يتقدم بعض المسلمين إلى الإمام علي عليه السلام ليطلبوا منه تسلم الخلافة ولكنه رفض ذلك في بداية الأمر وبعد الإلحاح عليه وحفاظاً على الدين طلب أن تكون مبايعته علناً، وبعد الاعتراف به خليفة صمم على عزل الولاة الذين عينهم

(١) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص ٦٠.

الخليفة عثمان رغم النصائح التي وجهت إليه من البعض، وقد وصف (ولاستون) هذا الأمر بقوله: «وعبثاً ذهبت اعتراضات الأصدقاء المخلصين ضدّ هذا الطيش الغير ضروري وعن إثارة خطر محقق من جمهرة الأعداء قبل أن يتمكن من تحصين موقعه»^(١).

وأضاف ولاستون أنه قد أعقبت عملية العزل السريع حالة من التذمر وبرزت في الساحة جماعة ساخطة قامت بتحريض رجلين من ذوي النفوذ هما طلحة والزبير وأشعل نار هذه المشكلة «سلوك الحاقدة عائشة» على حدّ تعبير ولاستون.

إضافة إلى العدو الأقسى والمُستعر - ويقصد به (معاوية) - ضد زوج ابنه النبي ﷺ، والمتمركز في سوريا وفي الوقت نفسه وصل خبر إلى المدينة مفاده أن أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير سيتوجهون إلى البصرة، وإن كل من كان حريصاً على دينه أن يقاتل للأخذ بثأر الخليفة (عثمان) ويذهب طوعاً معهم ما لم يمنعه مانع من النفير، واحتشد ما يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل حول هودج عائشة الموضوع على الجمل، وشدت الرحال إلى البصرة وهي «مفعمة بروح الحقد لآل علي»^(٢).

ووصف ولاستون مدينة البصرة أنها كانت غاصة بالجماعات المتعددة في ولائها، وبعد أن استلم عاملها أمرت «العقيلة الحاقدة» ويقصد بها السيدة عائشة، بقتل العامل، إلا أن تأثير رفاقها قلل من عزمها على قتله وسمحت له أن ينجو بحياته بعد أن تعرض للإذلال والإهانة بنتف لحيته وحاجبه إرضاءً «لأم المؤمنين الساخطة»، ويعرج ولاستون على ثقة الإمام علي عليه السلام بالمسلمين الذين عبر عنهم بالجماهير بقوله «كان يَنْصَبُ اهتمام علي على الجماهير بإفراط وكان يعتقد إنه من المعروف إن

Wollaston, Arthur. N, Half Hours with Mahomad. P. 97. (١)

Wallaston, Half Hours, P. 98. (٢)

انتخابه قد تم بحرية، ولكن حتى بلاغته، إذ كان يُعد من أفضل خطباء عصره، لم تكن كافية لاستمالة النفوس إليه»^(١).

أما ابنه الحسن عليه السلام والكلام لـ(ولاستون) فكان يرى أن هذه مؤامرة ميثوس منها وسعى لثني عزم أبيه ونصحته في التقية، لكن دون جدوى، واتجه الإمام علي عليه السلام باتجاه البصرة وأرسل رسولين إلى الكوفة، وفصل ولاستون في موضوع المراسلات التي جرت بين الإمام علي عليه السلام ووالي الكوفة، وذكر جزءاً من الكلام الذي وجهه الإمام علي عليه السلام لأهل الكوفة عن طريق ابنه الحسن ووضح من خلاله نكتة وغدر كل من طلحة والزبير بعد بيعتهما، ودعا أهل الكوفة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فوجد استجابة منهم وانضم إلى معسكر الإمام علي عليه السلام ما يزيد على تسعة آلاف من أهل الكوفة واستقبلهم بحفاوة، وبذلك يرتفع عدد مقاتليه إلى ما يزيد عن ثلاثين ألف رجل مما أدخل الرعب في قلب عائشة، يضاف إلى ذلك أن الإمام علياً كان قائداً بارعاً في المعارك، أكسبه لقباً محبباً لنفوس المسلمين وهو «أسد الله»، وهكذا بدأ القتال بضراوة شديدة بين الجانبين ولمدة طويلة، أُصيب طلحة بسهم في ساقه فتعذر عليه التحكم بحصانه وانطرح على أرض المعركة، وحاول أحد أصحابه إبعاده عن المعركة وإيصاله إلى المدينة ولكن أجله قد دنا من المصير المحتوم، وبذلك أُزيل حجر العثرة عن طريق الإمام علي عليه السلام^(٢).

ويضيف (ولاستون) بأن الزبير هو الناكث الثاني فقد شعر بالذنب ووخز الضمير وانسحب من المعركة قاصداً طريق مكة إلا أن أحد الموالين من معسكر الإمام علي عليه السلام تمكن من إدراكه وقتله عندما كان ساجداً في صلاة المغرب وقطع رأسه. وعندما رأى أمير المؤمنين رأس عدوه مضرجاً بالدماء استنكر هذا الفعل ووبخ الشخص الذي قام به وبشره بجهنم ومن

Ibid, P. 99.

(١)

Wollaston, o. p. t. p. 100. 102

(٢)

صدمة الإحساس بالجريمة دفعه إلى قتل نفسه مباشرة عند إقدام الإمام علي عليه السلام الذي اندهش لهذه الحادثة، وبذلك أزيح المتآمران الرئيسان من الساحة، إلا أن المعركة لم تنته بسبب وجود عائشة ما دام الناس يرونها فإن المعركة كانت مستمرة على أشدها وكان اليهودج مركز الجذب للعدو والصديق والذي أصبح مثل القنفذ من كثرة السهام، ولكن وبعد برهة من الزمن أصبحت عائشة تحت رحمة الإمام علي عليه السلام المنتصر، وعلى النقيض مما كانت هي عليه، قابلها بالمعروف وأعد لها جهازاً جيداً وأرسلها إلى المدينة مع ابنه الحسن والحسين عليهما السلام لمرافقتها وفي الوقت نفسه منعها من التدخل في شؤون الدولة، وبعد هذا اليوم الحاسم اتجه إلى الكوفة وأصبحت مركز حكمه سنة ٦٥٦ م.

ومن الملاحظ على ما قاله (ولاستون) حول ما جرى في معركة الجمل هو أنه استعمل بعض العبارات بحق السيدة عائشة. ومنها «الحاقدة» وأنها «مفعمة بروح الحقد ضد آل علي» و«الساخطة»، وكل هذه المصطلحات تدل على أنه استطاع أن يقرأ مفردات التاريخ الإسلامي بموضوعية ولا سيما فيما يتعلق بطبيعة العداء الذي تكنه عائشة للإمام علي عليه السلام مما دفعها لسلوك طريق الخديعة والمكر واللجوء إلى الحرب.

ولم تأخذ معركة الجمل حيزاً كبيراً فيما كتبه المستشرق (نولدكه)، بل لم يذكر اسمها لكنه أشار إليها من خلال سياق الكلام فقد وصف الأوضاع التي آلت إليها الخلافة بعد مقتل الخليفة عثمان أنها كانت بداية لحرب أهلية دموية وانشقاكات متوقعة، إن قتلة الخليفة عثمان بايعوا الإمام علياً عليه السلام للخلافة ومنهم طلحة والزبير ولكنهم نكثوا عهدهم بسرعة واتحدوا مع عائشة ضده إلا أن شجاعة الإمام علي عليه السلام كانت الند لهؤلاء الأعداء^(١).

(١) Noldeke, Theodor, Sketches From Eastern History, Khyats Oriental Reprints No. 2, Beirut, 1963, P. 79.

وأهم ما يمكن أن يؤخذ عليه (نولدكة) هو ادعاؤه أن الإمام علياً عليه السلام قد وصل إلى الخلافة بدعم قتلة الخليفة عثمان، وهذا لا يمكن عده في صلب الحقيقة التاريخية، وقد أشرنا إلى الأدلة التي تبرئ ساحة الإمام علي عليه السلام من حادثة القتل في أكثر من موضع خلال البحث.

ولم يختلف المستشرق (موتغمري واط) عن نظيره نولدكة فيما يتعلق بذكر معركة الجمل فقد أشار إليها بسطور معدودة، فذكر أن المسلمين المتواجدين في المدينة انتخبوا الإمام علياً عليه السلام بعد مقتل الخليفة عثمان مباشرة، ولكن انتخابه لم يكن بإقرار الجميع، إذ إن معاوية بن أبي سفيان، قريب عثمان وحاكم سوريا وقلّة قليلة من قبائل مكة التي ينحدر منها أبو بكر وعمر رفضوا البيعة ورفعوا السيوف في وجه الإمام علي عليه السلام، ولكنهم هُزموا على يديه قرب البصرة في كانون الأول عام ٣٦هـ/٦٥٦م، ووصف موتغمري واط حربهم ضد الإمام علي بقوله: «وبدأ وكان خروجهم ضدّ علي أكثر من رغبة شخصية بل طمعاً في السلطة والثروة»^(١).

وخص المستشرق (برسي سايكس Sir. Percy Sykes) معركة الجمل في صفحة من صفحات كتابه (Histiry of Percia) وقد بدأ بمقدمات هذه المعركة، فذكر أنه عندما أنتخب الإمام علي عليه السلام للخلافة، قام البعض بتوجيه النصح له بتعقب قتلة الخليفة عثمان، إلا أنه أحجم عن هذا الأمر على أساس أنه كان يفتقر القوة اللازمة، وأضاف (برسي سايكس) القول: «في الوقت نفسه لم يكن حكيماً بقراره طرد معاوية، على الرغم من النصائح الموجهة إليه بأن يتركه في موقعه إلى أن تستتب له أمور الخلافة»^(٢).

(١) Wat, M, Aslam and Integration of society,P. 97.

(٢) Sir. Persy Sykes,History of Percia, Macmillan & Coltd,Third Edition,Lon- don,1958. P. 533

وذكر (برسي سايكس) أن الإمام علياً عليه السلام لم يكن محظوظاً، بسبب عداوة السيدة عائشة وهي زوجة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المفضلة، إذ قام كل من طلحة والزبير بالاستيلاء على البصرة بعد صراع شديد مع الموالين للإمام علي باستخدامهما كأداة، وبعد تلقي التعزيزات من الكوفة قام الإمام علي بالزحف نحو البصرة^(١).

ويضيف (برسي سايكس) أن الإمام علياً عليه السلام حاول جاهداً تجنب هذه الحرب ولكنه فشل بسبب قيام قتلة عثمان بالهجوم، وسميت هذه بحرب الجمل، نسبة إلى جمل عائشة، وكانت في أثناء الحرب على هودج الجمل، وعندما اندلعت المعركة، كانت هناك خسائر كبيرة لدى الطرفين، وأسفرت عن قتل كل من طلحة والزبير وأسر عائشة، وقد عامل الإمام علي عليه السلام المهزومين بشهامة، لكن المعركة وحسب تعبير (برسي سايكس) «كانت ضربة موجعة لمصالح الإسلام. ولو أن [الإمام] علياً قام بشجب قتلة عثمان ورفض التعامل معهم لأمكن تجنب الحرب^(٢)».

ويبدو أن هذه التهمة التي وجهها أغلب المستشرقين للإمام علي عليه السلام قد أخذت مداها في تفكيرهم لعدم معرفتهم بالدوافع الحقيقية التي حركت عائشة وطلحة والزبير ومن بعدهم معاوية لحرب الإمام علي عليه السلام.

وناقشت المستشرقة (فاجليري) الظروف التي مهدت لحرب الجمل والدور الذي مارسته عائشة في دعم المعارضة ضدّ الخليفة عثمان، في الوقت الذي قامت به بالتوجه للحج خلال الحصار الذي فرض على بيت عثمان، وفي أثناء عودتها علمت بالأحداث التي جرت في المدينة، ودخل الرعب في قلبها خصوصاً عند سماعها بانتخاب الإمام علي عليه السلام،

Ibid, P. 533.

(١)

Ibid, P. 533.

(٢)

فرجعت إلى مكة واشتركت بدعاية مكثفة ضدّ الخليفة الجديد، وبعد أربعة أشهر التحق بها كل من طلحة والزبير، وعلم الإمام علي عليه السلام بعد مدة قصيرة أنهم وبصحبة مئات من الجنود كانوا في طريقهم إلى العراق، فحاول اللحاق بهم ولكن لم يستطع من ذلك، ومما زاد في إصرارهم على الحرب هو توقعهم الحصول على إمدادات بشرية ومادية من أهل العراق، لذلك ترى فاجلييري أن الإمام علياً كان مجبراً على منعهم من السيطرة على العراق، وتعتقد إن السبب في ذلك هو أن سوريا كانت تحت سيطرة معاوية، ومصر في حالة فوضى سياسية، وإن خسارة العراق تعني خسارة الأقاليم الشرقية التي تُعد واجهة تعتمد عليها الدولة^(١).

وتعتقد (فاجلييري) أن كل من طلحة والزبير وعائشة كانوا يتحملون جزءاً من المسؤولية في قتل عثمان، لذلك فإن مطالبتهم بالانتقام من قاتليه مسألة يكتنفها الغموض، وحاولت فاجلييري تفسير هذا التصرف أنه يرجع إلى دوافع اجتماعية واقتصادية، دون أن تحدد طبيعة هذه الدوافع، سوى ذكرها دافعاً واحداً وهو خوف الناكثين من تشدد الإمام علي عليه السلام في الحكم^(٢).

بعد ذلك تابعت فاجلييري مجريات المعركة، فذكرت بأن المتمردين قاموا باحتلال البصرة وذبحوا عدد من الرجال، وعلى أثر ذلك قام الإمام علي عليه السلام بإرسال بعض أنصاره إلى الكوفة لدعوة سكانها للمشاركة معه في الحرب ضدّ طلحة والزبير وعائشة، وعندما جمع قوة كافية توجه نحو البصرة، ولكن الطرفين كانا يرغبان بتسوية النزاع سلمياً، وبسبب شجار حدث بين الجانبين تطور إلى معركة أصبحت فيما بعد مشهورة في سجلات تاريخ المسلمين بـ (معركة الجمل) وحدثت في الخامس

Vaglieri, the Enclopadia of Aslam, P. 383.

(١)

Ibid, P. 383.

(٢)

والعشرين جمادى الثاني سنة ٣٦هـ المصادف التاسع من كانون الأول سنة ٦٥٦م، قتل خلالها كل من طلحة والزبير، بينما أُعيدت عائشة إلى المدينة تحت حراسة بأمر الإمام علي عليه السلام ^(١).

ويمكن تقييم موقف (فاجليري) من أحداث معركة الجمل بأنها قد اختلفت عن سابقها بالحكم على أن كل من طلحة والزبير وعائشة كان لهم مصلحة في قتل الخليفة عثمان، وأعطت الحق للإمام علي عليه السلام للوقوف بوجههم حيال استيلائهم على العراق، من جانب آخر كانت فاجليري غير دقيقة في قولها إن كلا الطرفين كان يرغب بالسلم، والحقيقة كان ذلك غاية الإمام علي عليه السلام في حين غاية الطرف الثاني هي الحرب لا غير.

ويُعد ما كتبه المستشرق (فلهوزن) حول معركة الجمل جهداً متميزاً، إذ بدأ بعرض الأوضاع بعد مقتل الخليفة عثمان وبيان وجه الخلاف بين الإمام علي عليه السلام والأشخاص الذين لم يبايعوه عند تسلمه الخلافة، فقد ذكر أن مقتل الخليفة عثمان كان حادثاً جسيماً لا يكاد يدانيه في خطره حادث آخر في التأريخ الإسلامي، فمنذ ذلك الحين صار للسيف القول الفصل في أمر رئاسة الدولة، وتلك الفعلة المحملة بالبلاء قد وقعت في حجر الإمام علي عليه السلام، وقد تلقى البيعة في المسجد في اليوم نفسه الذي قتل فيه الخليفة عثمان ^(٢)، ولكن أصابع الاتهام قد وُجّهت إليه ولم تلقَ

Ibid, P. 383.

(١)

(٢) تباينت آراء المؤرخين في تحديد اليوم الذي بويع فيه الإمام علي بالخلافة، فيذكر المسعودي ذلك في اليوم الذي قتل فيه الخليفة عثمان، انظر، المسعودي، مروج المذهب، ٣٥٨/٢؛ بينما يشير السيوطي إلى غد اليوم الذي قتل فيه الخليفة عثمان، انظر، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ)، تأريخ الخلفاء، مطبعة السعادة، (مصر - ١٣٧١هـ/١٩٥٢هـ)، ص ١٧٤؛ لكن الطبري يذكر عدة تواريخ في هذا الإطار وأبرزها بأن المدينة المنورة قد بقيت بعد مقتل الخليفة عثمان خمسة أيام بدون خليفة وكان أميرها الفافقي بن حرب، انظر، الطبري، تأريخ، ٤/٤٣٢؛ وذكر ابن الأثير نفس ما ذكره الطبري، انظر، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣/٨٣. وعلى ما يبدو أن فلهوزن قد أخذ بما ذكره المسعودي.

بيعته تأييداً قوياً، وكأنما كان من حسن حظّه إن طلحة والزبير وهما اثنان من الثلاثة الكبار بين الصحابة، انقلبا عليه انقلاباً مخزياً، لأنه بتلقيه البيعة من دونهما كان نجاحاً قانونياً، وكانا في حياة الخليفة عثمان يكيّدان له المكائد، ويبدو وكأن ذلك لأجل الإمام علي عليه السلام ^(١).

فقد قدماه في وقت سابق على نفسيهما، لكنهما الآن خرجا عليه خروج المنافقين واتهماه إنه هو الذي دبر مقتل الخليفة عثمان وهو الذي استفاد منه، مما دفعهما بترك المدينة والانتقال إلى مكة، وكانت هناك عائشة وقد انسحبت من الثورة على عثمان بعد أن اشتركت فيها اشتراكاً قوياً والكلام لفلهوزن، واتّجهت إلى مكة قبل أن يبلغ الأمر غايته، وذلك لكي تبعد الشبهة عنها، ويمكن تفسير موقفها هذا بأنها كانت تبغض الإمام علي عليه السلام، فعندما سمعت بأنه قد بويع، لم تتردد في تقديس الخليفة عثمان، ونادت بالثأر له من الخليفة الجديد، واستطاعت أن تجمع حولها عدد من الهاربين إلى مكة وانضم إليها طلحة والزبير، وكانوا ثلاثتهم قواد [المعارضة] على الإمام علي عليه السلام، ولكنهم لم يستطيعوا محاربتة من مكة، لأنه وحسب اعتقاد فلهوزن كان في المدينة وعدد رجالها أكثر من مكة، فقرروا أن يخرجوا من جزيرة العرب ويقصدوا البصرة، التي تأوي مؤيدين لطلحة واستطاعوا السيطرة والاستقرار فيها، ونتيجة لهذه الأحداث وجد الإمام علي عليه السلام نفسه مرغماً على اللحاق بهم إلى العراق، وقصد الكوفة أولاً وكان مالك الأشر قد مهد له الطريق وخرج الإمام علي عليه السلام في أهل الكوفة، وهاجم البصرة، وانتصر على أعدائه في موقعة الجمل في (٩ ديسمبر سنة ٣٦هـ/٦٥٦م) ^(٢).

ويذكر (فلهوزن) نتيجة هذه المعركة بمقتل كل من طلحة والزبير وانسحاب عائشة من المعركة، ومن ثم صالح أهل البصرة الإمام

(١) فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ص ٥٠، ٥١، ٥٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٢، ٥٣.

علي عليه السلام وبايعه أهل العراق جميعاً فأقام هناك واتخذ الكوفة عاصمة للدولة^(١).

وتعد دراسة المستشرق (وليم ميور) للمعارك التي خاضها الإمام علي ضد الناكثين والقاسطين والمارقين، في كتابه (الخلافة، ظهورها، تدهورها وسقوطها) من الدراسات الشمولية المهمة التي تطرق من خلالها للأحداث التاريخية المتعلقة بالخلافة عامة والأحداث التي رافقت خلافة الإمام علي عليه السلام خاصة بعد أن وضح الظروف التي أعقبت مقتل الخليفة عثمان.

أشار (ميور) إلى انسحاب أقرباء عثمان الذين أسهموا في الدفاع عنه ليباعدوا عن المشهد في أثناء الحادثة، وساد الرعب في المدينة التي تقبلت هذه الفاجعة بصعوبة، وذكر أن كثيراً من الذين شجعوا أو أسهموا مع المتمردين بدأوا بالتراجع بعد وقوع الحادث وهرب أقرباء الخليفة المقتول إلى مكة عازمين على الانتقام، ولفوا الأصبع المقطوع العائد لزوجته عثمان، نائلة، وقميص الخليفة عثمان المضرج بالدماء كرمز للانتقام وحملوه إلى دمشق، ليكون تحت أنظار معاوية، وسادت الفوضى المدينة [المنورة] بضعة أيام وسيطر القتلة عليها، وكان المصريون من بينهم في بادئ الأمر، وبعد مرور خمسة أيام صمم المتمردون على انتخاب خليفة يعود بالدولة إلى وضعها الطبيعي، ومن دون شك تقلص نشاط من أراد الظهور بالواجهة كخليفة لعثمان وانسحب الإمام علي عليه السلام وفضل أن تكون الخلافة لطلحة أو الزبير^(٢).

ويضيف ميور القول: «وأخيراً وتحت تأثير القتلة وتوسلات الأصدقاء وافق علي على الخلافة بعد ستة أيام من الفاجعة وأقسم على

(١) تأريخ الدولة العربية، ص ٥٣.

(٢) Muir, The Caliphate, its Rise, Decline and Fall, Beirut, 1963, P. 248.

أن يعمل وفق القاعدة (كتاب الله)، ثم نودي له بالخلافة وكان طلحة والزبير أول من بايع ثم زعما أنهما كانا مجبرين على المبايعة خوفاً من المتآمرين»^(١).

ثم بايع أغلب الناس وكان هناك بعض من تخلف، ولكن الإمام علياً عليه السلام كان متساهلاً ولم يُجبر الناس على المبايعة وإعلان الولاء وأعلن المتمردون ولاءهم وأعلموا بذلك الكوفة والبصرة والفسطاط^(٢).

ويصف ميور الوضع الصعب الذي تحمّل تبعاته الإمام علي عليه السلام بالقول:

«لم يفرش الدرب بالورد لعلي لا في الداخل ولا في الخارج وكان أمامه المعاناة والقلق»^(٣).

ويؤكد (ميور) أن الإمام علياً عليه السلام كان مجبراً على تطبيق سلطة القانون وضرورة معاقبة الرجال الذي تلطخت أيديهم بدم الخليفة عثمان، ولكنه حاول أن ينتظر ما ستسفر عنه الأمور، وكان في هذا الانتظار هلاكه، فقد تجاوز الخمسين من العمر بينما كان في سنينه المبكرة قوياً.

وعلى الرغم من أن الإمام علياً عليه السلام قد أدان عمل قتلة الخليفة عثمان وعدّه خيانة عظمى - والكلام لـ (ميور) - ، «إلا أنه لم يتخذ خطوة لمعاقبتهم، وأعطى الأذن الصماء بالعناد والإهمال»^(٤).

إن وصف ميور لموقف الإمام علي عليه السلام بهذه الصورة، جاء بعد ذكره حادثة عودة ابن عباس عليه السلام من الحج وسماعه بنصيحة المغيرة بن شعبة للإمام علي عليه السلام بضرورة أن يترك عموم العمال في مناصبهم حتى

Muir, The Caliphate, ..., P. 248. (١)

Ibid, P. 249. (٢)

Ibid, P. 249. (٣)

Ibid, P. 250 (٤)

تستقر أوضاع الدولة، لكنه رفض على الرغم من الحاح ابن عباس بضرورة إبقاء معاوية على الأقل لما له من تأثير وكلمة مسموعة عند أهل الشام^(١).

ويذكر (ميور) أن الإمام علياً عليه السلام قد أرسل عمالاً من خاصته ليحلّوا محلّ العمال السابقين في عموم الدولة إلا أنهم أُستقبلوا بعدم الرضا، ونتيجة لذلك فقد تباحث مع طلحة والزبير هذا الأمر وتوصل إلى ضرورة إرسال رسائل إلى كل من معاوية وأبي موسى «الأشعري»^(٢).

ومن الجدير بالذكر أن الولاة الذين عينهم الإمام علي عليه السلام على الأمصار الإسلامية كانوا من المسلمين المعروفين بالورع والتقوى ولا يرتبطون به بصلة قرابة باستثناء عبد الله بن عباس.

فكان جواب أبي موسى كما يصفه ميور فيه تعابير موالية للدولة، في الوقت نفسه حذر الخليفة من الاستياء الذي يحيط به من أهل الكوفة، أما الاتصال بسوريا فكان مقطوعاً تماماً لأسابيع ولم يتم الرد من معاوية، وبدأ يظهر على المسرح مشهداً غريباً هيأ له معاوية وتمثّل بإثارة الناس من أجل الثأر لمقتل الخليفة عثمان^(٣).

وينتقل (ميور) بعد ذلك في ما أورده إلى محور مهم من محاور معركة الجمل، وتمثّل بدور عائشة في هذا الموضوع، فقد ذكر أنها وفي أثناء عودتها من مكة إلى المدينة سمعت خبر مقتل الخليفة عثمان، صرخت أعيدوني إلى مكة، لقد قتلوا الخليفة وسوف أطالب بثأره، بينما كانت هي جزءاً من الفتنة وأثارت السخط ضدّ الخليفة، إلا أنها لم تشترك في الهجوم، وحاولت أن تبعد أباها [عبد الرحمن بن أبي بكر] بدعوته

Ibid, P. 250.

(١)

Muir, The Caliphate, ..., P. 251.

(٢)

Ibid, P. 252.

(٣)

لمرافقتها إلى مكة، ولم تنس عائشة موقف الإمام علي عليه السلام في أثناء حادثة الأُفك، لذلك كان يسعدها نجاح الزبير بديلاً عنه، فعملت على إثارة الناس في مكة في الوقت الذي وصل فيه كل من طلحة والزبير، وهكذا فعل التحريض فعله وبتأثير بني أمية الهاربين من المدينة أو المقيمين في مكة. وهناك العديد من الناس الذين استمعوا إلى حديث طلحة والزبير، إذ كانا يحثان العامة على الأخذ بثأر الخليفة المقتول^(١).

ويتابع (ميور) القول بأن البصرة كانت وجهة أتباع عائشة وطلحة والزبير وكان ميول أغلب سكانها إلى طلحة كون عاملها الأخير ابن عامر هو صديقاً للخليفة عثمان، ودار نقاش حول موضوع مَنْ سيكون خليفة في حالة الانتصار، طلحة أم الزبير، لكن عائشة أرجأت ذلك الأمر، ودعت عبد الله بن الزبير ليؤم المصلين وتُترك مسألة اختيار خليفة المستقبل إلى حين انجلاء الموقف^(٢).

بعد ذلك ذكر (ميور) مسير عائشة باتجاه البصرة وعند مرورها بإحدى المناطق سمعت نباح كلاب فسألت سائق بعيرها عن اسم تلك المنطقة فأجابها إنها تسمى منطقة (الحوأب)، وعلق (ميور) على هذا الموقف بالقول: «بَرَقَ في ذاكرة عائشة شيءٌ قاله محمد بشأن كلاب الحوأب، فصرخت (أعيدوني) فانيخ جملها وقفزت من هودجها على عجل صارخة (واحسرتاه، واحسرتاه، لقد سمعت رسول الله يوبخنا عندما كنّ نحن نساءه محيطات به في يوم ما (آه لقد عرفت أي منكن ستنبح عليها كلاب الحوأب) إنها أنا، إنها أنا»^(٣).

وأكدت عائشة لأصحابها أنها لن تتحرك خطوة واحدة بعد في هذه

Ibid,P. 254 - 256.

(١)

Ibid, P. 256.

(٢)

Muir,The Caliphate,...., P. 251.

(٣)

الحملة المشؤومة وقد حاول من حولها إقناعها أن السائس قد أخطأ باسم المنطقة إلا أنها لم تتحرك وبقي الجيش لمدة يوم كامل، ونودي من الجيش أن الإمام علياً عليه السلام وجيشه قد اقتفوا آثارهم، فعم الرعب الأكبر، وأسرعت عائشة إلى الجمل وأستأنف المسير، وأضاف (ميور) القول: «لم يكن هذا الإنذار المختلف لا أساس له من الصحة، فعندما وصلت الإشاعة حول الرجوع إلى المدينة، رفض علي أن يتحرك ضدّ الساخطين ما دام ليس هناك فعل يهدد وحدة الإسلام»^(١).

ولكن وبعد مدة قصيرة والكلام لـ (ميور) أيضاً، وصلت الأخبار للإمام علي عليه السلام أنهم قد واصلوا مسيرتهم باتجاه البصرة، ولذلك وقبل أن يجازف الخليفة باللحاق بهم أرسل رسله إلى الكوفة ومصر طالباً منهم العون، وفي الوقت نفسه جرت مراسلات بين والي البصرة عثمان بن حنيف والتمرديين، ودعا إلى اجتماع لمعرفة هوى الناس، ونتيجة للهباج عُرف أن هناك حزباً قوياً يؤيد التمرديين، انبثق مؤتمر مؤلف من طلحة المفضل لدى أهل البصرة والزبير وعائشة، وخطب الثلاثة بطريقة انفعالية ضدّ قتلة عثمان وكان الطرف الآخر صارخاً أيضاً باحتجائه ضدّ عائشة وهجومها على مدينتهم، وكان في عملها استخفاف بالرسول صلى الله عليه وسلم والخروج عن قداسة سترها واحتشام لقبها (أم المؤمنين)^(٢).

وعرض (ميور) الجدل الذي سبق المعركة، والاتفاق الذي تم بين عثمان بن حنيف والتمرديين، إلا أن التمرديين نقضوا العهد واستطاعوا التغلب على الحرس الشخصي لعثمان بن حنيف واعتقلوه ودار قتال عنيف في اليوم التالي اندحر فيه أنصار الإمام علي عليه السلام وأصبحت المدينة في يد طلحة والزبير، وأعلنوا إن أي شخص أسهم في الهجوم على

Ibid,P. 257.

(١)

Ibid, P. 258.

(٢)

الخليفة عثمان سوف يتم إعدامه، وأُعدم كثيرٌ ولكن بقي ابن حنيف على قيد الحياة وأُطلق سراحه بعد أن نُتفت لحيته وشاربه وحاجبيه، وفي هذه الحالة المزرية توجه العامل المطرود إلى الإمام علي عليه السلام. وفي هذه الأثناء أرسل العصاة أنباء انتصاراتهم إلى سوريا وبعثت عائشة برسائل إلى الكوفة والمدينة المنورة واليمن وطلبت فيها التنصّل عن بيعته الإمام علي عليه السلام ^(١).

بعد ذلك أسهب (ميور) في موضوع الرسائل التي بعثها الإمام علي عليه السلام إلى الكوفة والبصرة، ووضّح موقف أبي موسى الأشعري من الأحداث إذ دعا أهل الكوفة إلى ملازمة بيوتهم وعدم الانجرار في هذا الصراع، ولكن كان لمجيء الإمام الحسن عليه السلام وعمار بن ياسر للكوفة أثر فعّال في حشد المؤيدين. أما ما كان يدور في ذهن الإمام علي عليه السلام تجاه هذه الأحداث عبر عنه المستشرق (ميور) بقوله:

«كان علي يروم السلام جهد الإمكان، فقد كان رجل تسوية ومستعداً من أجل مصلحة الإسلام، وكان لديه الاستعداد أن يتناسى الإساءة الموجهة إليه» ^(٢).

وأضاف (ميور) إنه لم يكن هناك اختلاف كبير لقطع أمل الصلح، فشعار طلحة والزبير كان هو الانتقام من قتلة الخليفة عثمان وأيضاً من أولئك الذين لم يقدمهم الإمام علي عليه السلام للعدالة في حينه، لكن علياً كان مُلزماً بتوقيت هذا الأمر، ففي جيشه عدد كبير من الرجال الذين انتفضوا ضدّ الخليفة عثمان، وتطبيق العقوبة عليهم كما يريد خصومه أمر مستحيل في حينه، ولهذه الأسباب توقّف الإمام علي عليه السلام قليلاً عند البصرة وأرسل (صعصعة) مع بعض القادة المشهورين القادمين من الكوفة لمجادلة طلحة والزبير فقال صعصعة لهم: «لقد قتلتم ستمائة رجل في البصرة ثأراً لدم

Muir, The Caliphate, ..., P. 259 - 260.

(١)

Ibid, P. 261 - 262.

(٢)

عثمان وتريدون قتل ستة آلاف رجل أُخر، أين ستقف الحرب الضروس، الإسلام بحاجة إلى السلام والهدوء، كفّوا عن ذلك وستُطبق سلطة القانون ويقدم المذنبون للعدالة»^(١).

لذلك أدرك كل من طلحة والزبير الحقيقة وحتى عائشة، وأعطوا وعداً إنّ كان هذا هو رأي الإمام علي عليه السلام فإنهم موافقون، وكان الإمام علي عليه السلام سعيداً ببشائر نجاح التسوية السلمية. ولكن بين صفوف جنود الإمام علي عليه السلام مجموعة من البدو وفيهم عدد كبير من قتلة الخليفة، فأدرك الإمام علي عليه السلام هذه المسألة وأعطى أوامره بعدم انضمامهم إلى السرايا المتقدمة تجنباً لتماسهم مع جيش الخصم الغاضب، وهؤلاء وعلى رأسهم الأشتر أصبحوا منزعجين^(٢).

ويتابع (ميور) وصف الأحداث بالتفصيل ويذكر من بينها استمرار مفاوضات السلام بين الطرفين إذ التقى الإمام علي عليه السلام طلحة والزبير على ظهور الخيول فقال الإمام علي عليه السلام للزبير «ألم تُقسم لي بالمبايعة» فأجابه الزبير «نعم ولكن السيف كان يلج أعناقنا وإنّ مطلبنا الآن هو تنفيذ العدالة ضدّ قتلة عثمان» فأفاد علي من أنه لا يقل عنهم طلباً لإحقاق الحق على القتلة ولكن أنّ تكون عقوبتهم في وقتها»، فاقنع الجيشان أن المفاوضات جارية وإنهم سينامون الليل بأمان افتقدوه لمدة أسابيع، ولكن حدث في الصباح هزة غيرت المشهد، فقد قامت في أثناء الليل سرية خيالة من القتلة حاملي الرماح بالاندفاع أمام مخيم أهل البصرة وشعر كلا المعسكرين إن الآخر قد هجم عليه واستقر الجيشان أحدهما مقابل الآخر وكما اشتهى المتآمرون، وحاول الإمام علي أن يرجع جيشه^(٣)، ويعلق ميور على ذلك بقوله:

Ibid, P. 262. (١)

Muir, The Caliphate, ..., P. 262 - 263. (٢)

Ibid, P. 263 - 264. (٣)

«لقد كانت مقابلة غربية، فلأول مرة يرفع المسلمون سيوفهم بوجه بعضهم، وهذه تُذكر بحالة العرب بالجاهلية فقط، واستُبدل هذا التنافس القبلي بتنافس آخر وانقسمت العشائر وأصبح القتال داخلياً (فبني ربيعة من الكوفة يقاتلون بني ربيعة من البصرة، وبني مضر من هنا تقاتل بني مضر من هناك)، وهكذا حتى على مستوى الأسرة الواحدة، وكان القتلة يحثون سرايا الكوفة للقتال»، ويعتقد (ميور) إن السبب في ذلك هو شعورهم في حالة عدم انتصار الإمام علي عليه السلام يعني إن مصيرهم الموت، وإن ما جرى من عنف وعناد للقتال لا يمكن أن يُعلل إلا لهذا السبب^(١).

وينتقل (ميور) إلى وصف التحام الجيشين، ويذكر أن الزبير الذي كان «نصف راغب» بالقتال، جعله لقاءه بالإمام علي عليه السلام أن يترك الميدان حسب وعده له، وقتل في وادٍ مجاور للميدان، وأصيب طلحة بسهم في ساقه وحمل إلى البصرة إذ مات هناك، ودار قتال عنيف حول الجمل وقتل حوله من قريش سبعون رجلاً، وتمّ عقر الجمل وانسحب باقي العصاة (جماعة طلحة والزبير وعائشة) إلى المدينة، وكان الهودج قد أصابته السهام من الكثرة بحيث أصبح كالقنفذ، وهكذا فقد هربت «المرأة الشجاعة المتمردة» على حدّ تعبير (ميور) دون أن تصاب بجروح^(٢).

بعد ذلك يبدي (ميور) تقييمه لنتائج المعركة بكلام طويل يمكن اختصاره ببضعة سطور، فقد ذكر أن «المذبحة» في هذه المعركة المشؤومة التي سميت بـ (الجمل)، قتل فيها عشرة آلاف شخص بالمنافسة بين الجانبين، وأعطى الإمام علي عليه السلام أوامره بعدم مطاردة الهاربين أو الإجهاز على الجرحى أو السلب أو اقتحام أي بيت، وحفر خندقاً وارى فيه العدو والصدّيق معاً، وعسكر خارج المدينة ثلاثة أيام، ويصف (ميور) هذا الموقف بقوله:

Ibid, P. 264.

(١)

Muir, The Caliphate, ..., P. 264 - 265.

(٢)

«لقد كانت تجربة جديدة أن يدفن قتلى المعركة ليس ضدّ المشركين بل ضدّ المؤمنين، وبدلاً من أن يحسب عليّ عدد قتلاه تحدث بقلب سليم عن الجميع وعندما جلبوا له سيف الزبير لعن قاتله واسترجع في ذاكرته صولات حامله الذي بدّع في استعماله منذ بدايات الإسلام وصرخ عليّ لطالما حمى جبين الرسول وأزال السُّقم عنه»^(١).

ويستدرج (ميور) في بيان دور الزبير وطلحة وتأثر المسلمين عليهم نتيجة قتلهم، وإن قتل الكثير من الصحابة كان خسارة للدولة، ويعزز (ميور) موقفه من هذه المعركة بقوله:

«لقد كان انتصار عليّ عملياً انتصاراً لقتلة عثمان المُسندين من أحزاب الكوفة، ولو اتفق عليّ مع الزبير وطلحة لكان موقف عليّ لا يُضاهي، فقد كان دفنه لقتلى أعدائه دلالة على رفعه شبهاته المتقدمة»^(٢).

ورغم ما ذكره المستشرق (ميور) من تفاصيل دقيقة عن معركة الجمل والملايسات التي رافقتها، إلا أننا نستشف من كلامه ما يأتي:

أولاً: إن الصبغة التي وسم بها (ميور) جيش الإمام عليّ عليه السلام، على أنهم من قتلة الخليفة عثمان، يُعدّ كلاماً غير مُنصف، لأن الذين حاصروا بيت الخليفة عثمان كان عددهم لا يتجاوز الستمئة شخص وأغلبهم من المصريين بينما كان جيش الإمام عليّ عليه السلام يصل تعداده إلى أكثر من عشرة آلاف، فهل إن لهذا العدد الضئيل وإن صحّ اعتقاد (ميور) بوجوده ضمن جيش الإمام عليّ عليه السلام، تأثيراً سحرياً على مجموع الجيش ليقود هذه الآلاف إلى الموت دون أن يشعروا؟

ثانياً: أبرَزَ (ميور) الأحداث التي وضحت الأمور بشكل يقطع الشك في رغبة الإمام عليّ عليه السلام في السلام إلى الحدّ الذي جعله يتجاوز

Ibid.,...,P. 265.

(١)

Ibid, P. 266.

(٢)

الإساءة التي وجهت إليه والمتمثلة بما فعله طلحة والزبير وعائشة بواليه على البصرة عثمان بن حنيف وقتلهم الناس الأبرياء في البصرة.

ثالثاً: ذكر (ميور) أن الإمام علياً عليه السلام كان متساهلاً ولم يجبر أحداً على بيعته، وهذا ما يؤكد أن هدفه من الحرب ضد طلحة والزبير لم يكن من أجل البيعة، لأنهما سبق وأن بايعاه، ولكنهما عاثا فساداً في حاضرة من حواضر الإسلام ألا وهي البصرة وقتلوا واستولوا على أموال المسلمين بالقوة مما استدعي الوقوف بوجههم ومعاقبتهم على فعلتهم تلك، بعد أن ألقى عليهم الحجة بضرورة الرجوع إلى طريق الصواب. وأكد ميور أن الإمام علياً عليه السلام كان مجبراً على تطبيق سلطة القانون.

رابعاً: أشار (ميور) إلى أن الإمام علياً عليه السلام قد دفن موتى الطرفين، وفسر (ميور) ذلك أنه من أجل أن يبعد الشبهات عنه، وفي اعتقادنا إن السبب يعود إلى كون الإمام علي عليه السلام كان يعرف أن خصومه قد غرر بهم، هذا من جانب، ومن جانب آخر فهم مسلمون وليس بكفار ودفن المسلم لأخيه المسلم من مسلمات الأمور.

خامساً: حمل (ميور) بعض أقرباء الخليفة عثمان وعائشة جانباً كبيراً من المسؤولية في قتلهم إياه.

سادساً: من خلال ذكر (ميور) للظروف التي سبقت معركة الجمل، تبين له ولنا أن طلحة والزبير وعائشة قد أحسوا بأخطائهم، ولا سيما عندما تذكرت عائشة نبوءة النبي حول ما يجري لإحدى زوجاته في منطقة الحوآب، وكذلك طلحة والزبير عندما ذكّرهما الإمام علي عليه السلام ببيعته التي في رقبتهما، ولكن يبدو أن الأحقاد قد أعمت الناكثين ودفعتهم إلى مصيرهم المحتوم.

سابعاً: وصف (ميور) الإمام علياً عليه السلام بالعناد والإهمال نتيجة لعدم أخذه برأي كل من المغيرة وابن عباس، والسبب واضح وفحواه أن القيم

الإسلامية التي يحملها الإمام علي عليه السلام القائمة على عدم مهادنة الأشرار الذين يحاولون الرجوع بالإسلام إلى أدران الجاهلية، هي ليست نفس القيم التي يحملها المستشرق (ميور)، وقد تكون قائمة على أن الغاية تبرر الوسيلة.

ثامناً: إن التقييم العام لما كتبه عن معركة الجمل يمكن أن نصفه أنه استعمل ما يمكن استعماله من الموضوعية والإلمام بكل جوانب الحدث، مما يجعله يتفوق على غيره من المستشرقين في وصف حرب الإمام علي عليه السلام ضد الناكثين وما سيذكره حول حرب صفين والنهروان.

إن الأمر المهم الذي يمكن تشخيصه من خلال متابعتنا لما كتبه بعض المستشرقين عن معركة الجمل هو تركيزهم على أحداث قد تبناها موافق في تقييمهم لأحداث هذه المعركة، من بينها أن سبب حدوثها يعود إلى مطالبة كل من عائشة وطلحة والزبير بدم الخليفة عثمان، بينما تشير الحقائق التاريخية إلى أسباب كامنة غير ما هو معلن.

فموقف السيدة عائشة من الخليفة عثمان كان واضحاً، ويمكن وصفه بغير المنسجم أو التحريضي، ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال عدة وقائع تاريخية.

لقد ذكر اليعقوبي أن الخليفة عثمان وبينما كان يخطب يوماً، فقاطعته عائشة، وجاءت بقميص رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونادت:

«يا معشر المسلمين: هذا جلاب رسول الله لم يُبَلِّ، وقد أبلى عثمان سنته! فقال عثمان: رَبِّ اصرف عني كيدهن إن كيدهن عظيم»^(١).

ووصف الدكتور طه حسين السيدة عائشة أنها كانت من أشد نساء النبي صلى الله عليه وسلم إنكاراً لسياسة عثمان، وقد انتقدته من وراء سترها وهو على

(١) تاريخ اليعقوبي، ١٧٥/٢.

المنبر عندما عاب عبد الله بن مسعود وأسرف في عيبه، كذلك لم تُخفِ اعتراضها على سيرة عمال الخليفة عثمان حتى ظن كثير من الناس أنها كانت من المحرضين على الثورة ضده^(١).

وحدد اليعقوبي الأطراف المحرّضة على قتل الخليفة عثمان بثلاثة أفراد هم طلحة والزبير وعائشة^(٢). وهم بدورهم إضافة إلى معاوية بن أبي سفيان كانوا محور المؤامرة ضد الإمام علي عليه السلام، ليتهموه بما أرادوه للخليفة عثمان من المصير الذي آل إليه.

فقد روى البلاذري ما نستدل به على اشتراك طلحة إلى جانب غيره في قتل الخليفة عثمان، ففي أثناء هزيمة جيش الناكثين في مساء معركة الجمل ولما رأى مروان بن الحكم ذلك الموقف قال:

«والله لا أطلب ثأري بعثمان بعد اليوم أبداً» وتربّص لطلحة بسهم وأصاب ساقه، والتفت إلى إبان بن عثمان فقال له: «قد كفيتك أحد قتلة أبيك»^(٣).

وفي موقف سابق لطلحة تجاه الخليفة عثمان، فقد تخلى عنه إبان الحصار الذي فُرض عليه، وذكر الطبري في هذا السياق أن الإمام علياً عليه السلام قال لطلحة: أنشدك الله إلا رددت الناس عن عثمان! قال: لا والله حتى تعطي بنو أمية الحق من نفسها^(٤).

والواقع إن دافع طلحة وغيره للمطالبة بدم الخليفة عثمان لم يكن ذاتياً وإنما كان بتحريض من عائشة من أجل قتال الإمام علي عليه السلام، وكان

(١) المجموعة الكاملة - الخلفاء الراشدون - ، الشركة العامة للكتاب، طه (بيروت - ١٩٩٦م)، ٤/٤٥٤.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ١٧٥/٢.

(٣) جمل من أنساب الأشراف، ٤٣/٣.

(٤) تاريخ اليعقوبي، ٤/٤٠٥.

ذلك ضمن حملة إعلامية للنيل من الإمام علي عليه السلام وما اكتسبه من الهالة ودوره في نشر الإسلام^(١).

وأشار الشيخ المفيد إلى ملايسات هذا الموضوع بالأدلة الواضحة المستقاة من بطون المصادر التاريخية، وأكد أن مقتل الخليفة عثمان هو ظاهر الأسباب التي أدت إلى نشوب معركة الجمل، أما باطناً فبخلاف ذلك كما تدل عليه الأخبار، لأن طلحة والزبير وعائشة هم الذين كانوا السبب في قتل الخليفة عثمان بإجماع العلماء بالسير والآثار.

وأورد الشيخ المفيد رواية تبين من خلالها أن الذين قدموا من مصر إلى المدينة ليجهروا بعيوب الخليفة عثمان قد اجتمعوا وقصدوا عائشة وأخذوا موافقتها من أجل الخروج ضد الخليفة^(٢).

ويروى أن الإمام علياً عليه السلام قد قدم النصح والإرشاد لكل من طلحة والزبير وعائشة قبل المعركة عندما بعث لهم كتاباً من المدينة إلى البصرة يحذرهم فيه من نكثهم لبيعتهم، جاء فيه:

«أما بعد: يا طلحة ويا زبير قد علمتما إنني لم أرد البيعة حتى أكرهت عليها وأنتم ممن رضي ببيعتي فإن كنتما بايعتما طائعين فتوبا إلى الله وارجعا عما أنتما عليه وإن كنتما بايعتما مكرهين فقد جعلتما إليّ السبيل عليكما بإظهاركما الطاعة وكفكما المعصية، وأنت يا طلحة شيخ المهاجرين وأنت يا زبير فارس قريش رفّعكما هذا الأمر قبل أن تدخلوا فيه فكان أوسع لكما من خروجكما منه قبل إقراركما، وأنت يا عائشة فإنك خرجت من بيتك عاصية لله ولرسوله تطلبين أمراً كان عنك موضوعاً ثم

(١) بيضون، إبراهيم، الإمام علي في رؤية النهج ورواية التاريخ، مؤسسة بيسان، (بيروت - ١٩٩٩م)، ص ٦٢.

(٢) انظر، الجمل، ص ١٤٥ - ١٥٠، إذ أورد الأدلة التاريخية التي توضح رغبة كل من طلحة والزبير وعائشة بالقتل بل واشتراك طلحة والزبير في حصار الخليفة عثمان وتحريض عائشة للناس من أجل التخلص منه.

تزعمين إنك تريدين الإصلاح بين المسلمين فخيريني ما للنساء وَقَوْدُ
الجيش والبروز للرجال والوقوع بين أهل القبلة وسفك الدماء المحرمة
ثم إنك طلبت على زعمك بدم عثمان وما أنتِ وذاك عثمان رجل من بني
أمية وأنت من تيم ثم بالأمس تقولين في ملاء من أصحاب رسول الله ﷺ
اقتلوا نعتلاً قتله الله فقد كفر ثم تطلبين اليوم بدمه فاتقي الله وارجعي إلى
بيتك واسدلي عليك سترك والسلام، فما أجابوه بشيء»^(١).

ولم يكن للوعظ وإلقاء الحجّة حدود عند الإمام علي عليه السلام فقد دعا
الزبير في ساحة المعركة وسأله عن السبب الدافع لقتاله، فأجابه بأنه
الطلب بدم الخليفة عثمان، فقال له الإمام علي:

«قتل الله أولانا بدم عثمان»^(٢)، [أما تذكر قول رسول الله ﷺ لك]
«يا زبير أتحب علياً» فقلت: وما يمنعني من حبه وهو ابن خالي: فقال
لك: «أما إنك ستخرج عليه وأنت ظالم له»^(٣)، فقال:

«اللهم بلى ولكني قد نسيت ذلك وبعد أن ذكرته لانصرفن ولو
ذكرت هذا قبل ما خرجت عليك، ولكن هذا تصديقاً لقوله ﷺ ثم كر
راجعاً، فسألته عائشة عما جرى بينهما، فقال الزبير: والله ما وقفت موقفاً
ولا شهدت مشهداً في شرك ولا إسلام إلا ولي فيه بصيرة، وأنا اليوم
على شك من أمري وما أكاد أبصر موضع قدمي، ثم شق الصفوف وخرج
بينهم وسلك طريقاً طالباً مكة، فنزل على رجل من بني تميم يدعى

(١) سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر بن فرغلي بن عبد الله (ت ٦٥٤هـ)، تذكرة
الخواص، منشورات الشريف الرضي، (قم - ١٤١٨هـ)، ص ٧٠، ٧١؛ وانظر، ابن
الصباغ علي بن محمد بن أحمد المالكي، الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة،
المطبعة الحيدرية، ط ٣ (النجف - ١٣٨١هـ/١٩٦٢م)، ص ٥٥، إذ ذكر رسالتين كل واحدة
على حدة أرسلهما الإمام علي أحدهما موجهة إلى طلحة والزبير والثانية إلى السيدة
عائشة، ولم يدمجها في رسالة واحدة كما ورد في تذكرة الخواص لسبط الجوزي.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ٥٠٥/٢.

(٣) ابن الصباغ، الفصول المهمة، ص ٦٣.

عمر بن جرموز المجاشعي، فضيفه وخرج معه إلى وادي السباع ليوهمه بأنه يريد مسيرته ومؤانسته، وقتله غيلة وأخذ سيفه وخاتمه ومضى به إلى الإمام علي عليه السلام، فلما وصل سلم عليه وهناك بالنصر، وأخبره بقتله للزبير بن العوام، فقال له الإمام علي عليه السلام أبشر بالنار، فقال ابن جرموز:

إنا لله وإنا إليه راجعون إنا إن قاتلناكم فنحن في النار، وإن قاتلنا لكم فنحن في النار؟ فقال الإمام علي عليه السلام: ذلك شيء سبق لابن صفية^(١).

أما طلحة فهو الآخر قد ألقى الإمام علي عليه السلام عليه الحجة في ساحة المعركة، ونصحه بضرورة استدراك الأمر والكف عن محاربتة، فقال له:

«نشدتك الله هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»^(٢)؟ قال: نعم، وذكره، قال: فلم تقاتلني^(٣)؟ قال: لم أذكر وانصرف طلحة^(٤).

وتسجل الأحداث التاريخية موقفاً للسيدة أم سلمة (هند بنت أبي أمية).

(ت ٦١هـ/ ٦٨٠م) إحدى أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم، نصحت فيه السيدة عائشة بعد خروجها لمحاربة الإمام علي عليه السلام، جاء في بعض منه: «... قد علمت أن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال، ولا يرأب بهن إذا تصدع، جهاد النساء غصّ الأبصار وضمّ الذيول، ما كنت قائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو عارضك بأطراف الجبال والفلوات، على قعود من الإبل، من منهل إلى منهل... وقد هتكت حجابيه الذي ضرب الله عليك، وتركت

(١) ابن الصباغ، الفصول المهمة، ص ٦٣.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند، ١/١٤٧.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ٢/٥٠٧، ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق، ٢٥/١٠٨؛ سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص، ص ٧٣.

(٤) الخوارزمي، المناقب، ١٨٢، ١٨٣.

عهيدها. ولو أتيت الذي تريدين، ثم قيل لي أدخلني الجنة لأستحييت أن ألقى الله هاتكة حجاباً قد ضربه عليّ...، ولو ذكرتك كلاماً قاله رسول الله ﷺ لنهشتي نهش الحية، والسلام»^(١).

فأجابتها عائشة بالقول: «ما أقبلني لوعظك، وأعلمني بنصحك، وليس مسيري على ما تظنين، ولنعم المطلاع مطلع فزعت فيه إليّ فئتان متناجزتان، فإن أقدر ففي غير حرج، وإن أخرج مالي ما لا غنى بي عن الازدياد منه، والسلام»^(٢).

وركز المستشرقون عند دراستهم أسباب الخلاف الذي كان بين الإمام علي عليه السلام وعائشة على سبب واحد وهو حادثة الأفك المعروفة، وموقف الإمام علي عليه السلام منها، في حين أن الإمام علياً قد شخص الأسباب التي جعلت من السيدة عائشة تناصبه العداوة.

فقد روي أنه عند وصول الإمام علي إلى البصرة، جاءه رجال وقالوا له:

«يا أمير المؤمنين ما السبب الذي دعا عائشة بالمظاهرة عليك حتى بلغت من خلافك وشقاقك ما بلغت؟»، فقال عليه السلام: سأذكر لكم أشياء ليس لي في واحد منها ذنبٌ إليها»^(٣).

ويمكن اختصار بعض هذه الأسباب التي وردت على لسان الإمام علي عليه السلام بالنقاط الآتية:

أولاً: تفضيل رسول الله ﷺ الإمام علياً عليه السلام على أبي بكر وتقديمه إياه، مما أثار ضغينة السيدة عائشة.

ثانياً: أوحى الله سبحانه وتعالى إلى رسوله الكريم ﷺ بسدّ الأبواب التي كانت في المسجد النبوي، بوجه كل الصحابة، إلا باب

(١) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ٧٦/١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الشيخ المفيد، الجمل، ص ٤٠٩.

الإمام علي، وكان من بين تلك الأبواب التي سُدَّتْ بابا أبي بكر وعمر،
وعندما حدث لخط في هذا الموضوع قال رسول الله ﷺ:

«ما أنا سدوت أبوابكم وفتحت باب علي، بل الله ﷻ سدَّ أبوابكم
وفتح بابهُ»^(١).

ثالثاً: عدم استطاعة كل من أبي بكر وعمر من اقتحام حصن خيبر
وتراجعهما، في حين أن الإمام علياً ﷺ تمكن من تحقيق ذلك^(٢)، بعد
أن قال الرسول الكريم ﷺ، «سأعطي الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله
ويحبه الله ورسوله...»^(٣).

رابعاً: عندما بعث النبي محمد ﷺ أبا بكر بسورة براءة وأمره أن
يُنْفِذَ العهد للمشركين وينادي فيهم، فمضى حتى انحرف، فأوحى الله
تعالى إلى نبيه ﷺ أن يردّه ويأخذ الآيات ويسلمها إلى الإمام علي ﷺ،
فصُرف أبو بكر بإذن الله ﷻ، مما جعله يحمل شيئاً في باله على الإمام
علي ﷺ، وتبعته ابنته عائشة في ذلك^(٤).

خامساً: لما رُميت عائشة بما رميت في حادثة الأُفك، اشتد ذلك
على النبي ﷺ، فاستشار الإمام علياً في أمرها، فقال له:

«سل جاريتها بريرة واستبرئ حالها منها، فإن وجدت عليها شيئاً
فخلّ سبيلها، فإن النساء كثيرة. فأمرني رسول الله أن أتولى مسألة بريرة
وأستبرئ الحال منها ففعلت ذلك، فحققت عليّ، والله ما أردت بها
سوءاً، لكنني نصحت لله ولرسوله ﷺ»^(٥).

(١) أحمد بن حنبل، المسند، ٤/٤٥١؛ وفضائل الصحابة، ٢/٥٨١، ٥٢٨؛ النسائي،
الخصائص، ص ٩٨؛ الشيخ المفيد، الجمل، ص ٤١٠.

(٢) الشيخ المفيد، الجمل، ص ٤١٠.

(٣) أحمد بن حنبل، المسند، ١/١٢٤؛ الشيخ المفيد، الجمل، ص ٤١٠.

(٤) الشيخ المفيد، الجمل، ص ٤١١.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٩/١٩٤، وانظر، الشيخ المفيد، الجمل، ص ٤١٢.

يُضَافُ لِمَا ذُكِرَ مِنْ أَسْبَابٍ، فَإِنَّ الدُّكْتُورَ طَهَ حَسِينَ قَدْ ذَكَرَ سَبَبِينَ
مَنْطَقِيَّيْنِ: أَوْلَهُمَا: أَنَّ زَوْاجَ الْإِمَامِ عَلِيِّ مِنَ السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ قَدْ تَكَلَّلَ بِأَنَّ
رُزِقَ مِنْهَا الْإِمَامَيْنِ الْحَسْنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَكَانَ بِذَلِكَ أَبًا لِلذَّرِّيَةِ الْبَاقِيَةِ
لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَتَّحِ لِلسَّيِّدَةِ عَائِشَةَ الْوَالِدِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِمَّا أَثَارَ
ضَغِينَتَهَا مِنَ الْإِمَامِ ^(١). ثَانِيَهُمَا: زَوْاجَ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ وَفَاةِ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ
مِنَ السَّيِّدَةِ أَسْمَاءَ بِنْتِ عَمَيْسِ الْخَثْعَمِيَّةِ زَوْجِهَا الْخَلِيفَةَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ أَنْ
تَوَفَّى، وَهِيَ أُمُّ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ، الَّذِي رَبَّاهُ الْإِمَامُ عَلِيُّ وَنَشَأَ فِي حَجْرِهِ، وَأَخُو
عَائِشَةَ وَكَانَ مِنَ الْمَوَالِينِ لِلْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(٢).

وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الزَّوْاجُ قَدْ وُلِّدَ حَسَاسِيَّةً فِي نَفْسِ عَائِشَةَ.

(١) المجموعة الكاملة، ٤/٤٥٤.

(٢) طه حسين، المجموعة الكاملة، ٤/٤٥٤.

المبحث الثاني

حرب الإمام علي ضد القاسطين في معركة صفين

بعد أن ذكرنا ما كتبه (بودلي) عن معركة الجمل في المبحث السابق نراه يذكر معركة صفين، فقد أشار إلى أن متاعب الإمام علي عليه السلام، لم تنته بانتصاره على عائشة، على الرغم من أن انتصاره جعله المسيطر على بلاد العرب وفارس ومصر، إلا أن معاوية بن أبي سفيان كان حاكماً للشام في حينه ويطالب بدم الخليفة عثمان، ويتخذ من ذلك ذريعة لقتال الإمام علي عليه السلام، وقد شد من أزره انضمام عمر بن العاص وجنوده إليه، وكان سبب خروجه عن طاعة الإمام علي عليه السلام سبب شخصي وهو عزله عن ولاية (مصر) التي فتحها بذكائه ودهائه وقدرته.

ويضيف (بودلي)، وعلى الرغم من كل ذلك فقد كان الإمام علي عليه السلام كارهاً لقتال هؤلاء كرهه لقتال عائشة، فبذل ما في وسعه لإحلال السلام، ولم يخرج إلى الشام إلا بعد أن أيقن أن الأمويين لا ييغون إلا قتاله، فخرج على رأس تسعين ألفاً^(١).

ويقارن (بودلي) بين قائدي الجبهتين، أي جبهة الإمام علي عليه السلام وجبهة معاوية بقوله:

(١) حياة محمد، ص ٤٢٤.

«كان موقفاً غريباً، فعلي ابن عم النبي وزوج ابنته في جانب، على رأس جيش من المهاجرين الذين شهدوا بدرًا وأحداً وخيبراً، وفي الجانب الآخر معاوية ابن زعيم أعداء محمد يعاونه عمرو الذي قاد قريش أيضاً ضد محمد»^(١).

كان السبب الرئيس للنزاع حسب ما ذكره (بودلي) هو اتّهام الإمام علي عليه السلام بدم الخليفة عثمان، ويعلق (بودلي) على موقف الخليفة عثمان من معاوية وعمرو بن العاص بقوله:

«وكان عثمان في ذلك الوقت العدو للرجلين الذين يتأهبان الآن للثأر لمقتله»، وكان في كلا الجانبين مسلحون متعصبون، وقد دفع بوقوع الحرب بين الجانبين، ولكن حدث رفع جنود معاوية المصاحف على أسنة الرماح، أدّى إلى إحجام جنود الإمام علي عليه السلام عن الهجوم الذي كان سيقودهم إلى النصر، ولو أن هذه الحرب قد انتهت من الوجهة العسكرية في صالح الإمام علي عليه السلام، إلا أن معاوية قد كسب بدهائه السلام، وبدا كأنما الإسلام قد انقسم إلى أجل غير محدود إلى مطالبين في الخلافة متنافسين^(٢).

إن بودلي كان موضوعياً في كل ما ذكره عن الإمام علي عليه السلام خلال حربه مع معاوية في صفين، فقد شخص الأسباب الحقيقية التي دفعت بمعاوية وعمرو بن العاص لشنّ الحرب ضدّ الإمام علي عليه السلام، واستغرب أن يتقابل في الحرب طرفان، أحدهما يمثل كل ما هو خير والآخر يمثل كل ما هو شر، ولو أن المسألة لا تستحق الاستغراب لأن الخير والشر هما في صراع مستمر ما دامت الحياة.

أما المستشرق (هنري ماسيه) فيرى أن انتصار الإمام علي عليه السلام في

(١) حياة محمد، ص ٤٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٥.

معركة الجمل جعله سيداً لإمبراطورية، ولكنها منقسمة على قسمين، بسبب تمرد حاكم سوريا قلعة الأمويين، فسار الإمام علي عليه السلام بجيشه من الكوفة واجتاز الفرات إلى الرقة إذ التقى بالجيش الأموي في سهل (صفين)، وفي هذا المكان نصب معاوية بن أبي سفيان خيمة، وأقسم السوريون أمامها بالقتال حتى الموت، وبعد ثلاثة أشهر من المناوشات التي يتخللها بين الحين والآخر مفاوضات، فإن القتال الحاسم كان يجري في صالح جيش الإمام علي عليه السلام، ولكن معاوية بن أبي سفيان وبخدعة من عمرو بن العاص برفع المصاحف على الرماح دعا إلى حكم الله، استطاع فيها قلب موازين الحرب، وأما أصحاب الإمام علي عليه السلام فقد خالفوه بقبول التحكيم مما جعل ذلك سبباً لخسارته الحرب، وإن أنصار العمل الحازم [ويقصد ماسيه بهم] (الخوارج) قد تركوه^(١).

وجاء المستشرق (سيديو) بكلام يتطابق في معناه العام مع ما ذكره (هنري ماسيه)، فقد ذكر أن الإمام علياً عليه السلام كان يرجو أن تُكسر شوكة الفتنة بعد معركة الجمل، ولكن ذلك لم يتم بعد أن رأى في عينيه عدو بني هاشم، معاوية بن أبي سفيان في الشام قد اتحد مع فاتح مصر عمرو بن العاص، فتنازع معاوية مع صهر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على رأس ثمانين ألف مقاتل، واستمرت المناوشات لمدة مائة وعشرة أيام، وهلك في هذه الحرب خمسة وأربعون ألفاً من أصحاب معاوية وخمسة وعشرون ألفاً من جنود الإمام علي عليه السلام، وكان الإمام قد أمر جنوده بعدم البدء بالهجوم وأن لا يُجهز على الفارين، وأن تُحترم الأسرى، ويعلّق (سيديو) على هذه التوصيات بقوله:

«وذلك وفق ما اشتهر به علي من الكرم المثالي»، ورفض معاوية ما عرضه عليه الإمام علي عليه السلام أن تكون المباراة بينهما فردية، بعد ذلك

(١) هنري ماسيه، الإسلام، ص ٦٤، ٦٥.

حدثت معركة متذبذبة في سهول (صفين) انتهت بالنزول عند رغبة جيوشهما في إحالة نزاعهما إلى التحكيم، ولكنه لم يجر في صالح الإمام علي عليه السلام، وأبدى امتعاضه من نتائج التحكيم^(١).

ولم يفصل كل من المستشرقين (هنري ماسيه) و(سيديو) في أحداث معركة (صفين) بل اكتفيا بعرض الخطوط العامة لهذه المعركة وما آلت إليه من نتائج.

ويطل علينا المستشرق (الفريد جيوم) بحديث مختصر عن معركة (صفين)، فيذكر، أن الإمام علياً عليه السلام وبعد تسلم الخلافة قد أعفى معاوية بن أبي سفيان من منصبه، لكن معاوية تجاهل هذا الأمر، فاضطر الإمام علي لمقاتلته، ولم تكن هذه المعركة التي نشبت بينهما فاصلة، فبعد أن بدأت ملامح الهزيمة واضحة على جيش معاوية، اصطنعوا خدعة لينهوا بها الخلاف، فثبتوا المصاحف على أسنة الرماح، داعين إلى تحكيم الله، فاضطر الإمام علي عليه السلام وتأثير الورعين من جيشه إلى قبول التحكيم مرغماً إلى أقصى حد، وقد تسبب ذلك في غضب جماعة من المتعصبين الذين أنكروا التحكيم على الخليفة، ولهذا تركوا الإمام علياً عليه السلام، وهؤلاء الذين سُموا بالخوارج^(٢).

أما ما ذكرته المستشرقة (شتيسفسكا) حول معركة (صفين) فقد كان مختصراً، فأشارت إلى أن الأمور قد انتظمت للإمام علي عليه السلام بعد معركة الجمل في كل من العراق ومصر واليمن ومكة والمدينة وفارس باستثناء الشام، الذي رفض حاكمها معاوية أوامر الإمام علي عليه السلام بالتنحي عنها، وقد أرسل الإمام علي عليه السلام إليه عدة رسائل فلم يقبل البيعة، ولم يكتف بذلك وإنما أخذ يطالب بدم الخليفة عثمان، فخرج الإمام علي عليه السلام

(١) تاريخ العرب العام، ص ١٢٧.

(٢) الفريدجيوم، الإسلام، ص ٨١.

بجيش من الكوفة، وخرج معاوية ومعه عمرو بن العاص بجيش آخر^(١).

التقى الجيشان بصفين وهي بلدة بين دمشق والعراق على جانب نهر الفرات الشرقي، وحصلت بينهما وقائع كثيرة قتل فيها كثير من الفريقين، في آخر الأمر تمكن الإمام علي عليه السلام من إيقاع الهزيمة في جيش الشام وهمَّ معاوية بالفرار فمنعه عمرو بن العاص من ذلك، وعمد إلى حيلة رفع المصاحف في وجه الإمام علي عليه السلام وأصحابه، ولكنها في الحقيقة - والكلام لـ (شتفسكا) - كانت حيلة وخديعة من أصحاب معاوية عندما أيقنوا بهزيمتهم، وأخيراً آل الأمر للتحكيم، فمثل أهل الشام عمرو بن العاص، وكان معروفاً بالسياسة والحيل البارعة، ومثل أهل العراق أبو موسى الأشعري ولم يكن مثل عمرو في السياسة، ثم اتَّفَق الحكمان بعد مفاوضات طويلة على خلع الإمام علي عليه السلام ومعاوية، ولكن أبا موسى خلع صاحبه بخدعة وأما عمرو بن العاص فقد ثبت صاحبه^(٢).

وكان المستشرق (روم لاندو) قد أدلى بدلوه فيما يتعلق بمعركة صفين، وبدأ كلامه عنها بذكر جانب من سياسة الخليفة عثمان الذي أسند في أثناء خلافته كثيراً من مراكز الدولة البارزة إلى أنسابه، وأدى اتِّهامه بمحاباة ذوي قرباه إلى مصرعه على أيدي جماعة كان على رأسهم محمد بن أبي بكر الذي بايع الإمام علياً عليه السلام، مما حمل معاوية بن أبي سفيان أمير سوريا على إعلان الحرب ضدَّ الإمام علي عليه السلام، ولكن وبحيلة من الحيل تمكن معاوية من إخضاع شرعية خلافة الإمام علي عليه السلام للتحكيم وفي نهاية الأمر تم خلعه، وهذا الخلع أدى إلى خروج جماعة من أتباع الإمام علي عليه السلام، مما أدى إلى تقوية موقف معاوية بن أبي

(١) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص ٦٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦١.

سفيان، وادعاؤه الحق في الخلافة فيما بعد، بينما كان عاملاً من عمال الدولة حسب، ولكن عملية الخلع وضعته على قدم المساواة مع الإمام علي عليه السلام (١).

وتطرق المستشرق (روي لبككر) إلى ذكر معركة صفين بعد أن ذكر جانباً من سياسة الخليفة عثمان بن عفان التي أثار فيها استياء كثير من المسلمين بتحيزه لبعض أقربائه وأبناء عشيرته من الأمويين، مما أدى إلى قتله في داره، وأصبح الإمام علي عليه السلام وهو ابن عم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وربيته وختنه خليفة، ولكن معاوية بن أبي سفيان الذي كان والياً على سورية رفض الاعتراف بخلافة الإمام علي عليه السلام، بحجة إنه نال الخلافة عن طريق اغتيال الخليفة عثمان، وسعى معاوية للثأر من قتلة قريبه المغدور، على حدّ تعبير (لبككر)، وقاد ذلك الموقف إلى نشوب معركة (صفين) بين جيش الإمام علي عليه السلام وجيش معاوية بن أبي سفيان، وكادت جيوش الإمام علي عليه السلام أن تنتصر، ولكن موازين المعركة قد تغيرت بعد أن رفع أصحاب معاوية المصاحف على الرماح، وأعلنوا أن الحلّ يجب أن يقرره ما هو في القرآن، فوافق الإمام علي عليه السلام على التحكيم، وجاءت نتيجة التحكيم ضده، ولكنه لم يقبل بالقرار كونه قراراً غير عادل، وعلى هذا الأساس فقد استمر الإمام علي عليه السلام في الحكم بصفته خليفة المسلمين بعد أن فقد تأييد جماعة معاوية، وهناك من خالفه من أصحابه نتيجة لقبوله بالتحكيم، واستطاع أن يخمد فتنة هؤلاء المخالفين الخوارج (٢).

ويعقّب المستشرق (جمس هاستنكز James Hastnks) على الأوضاع بعد مقتل الخليفة عثمان، بوصفه إياها أنها أدّت إلى إحداث انقسام عميق في الإسلام، ويقول بعد ذلك:

(١) الإسلام والعرب، ص ٦٢، ٦٣.

(٢) روي لبككر وآخرون، دراسات إسلامية، ترجمة الدكتور نقولا زيادة، دار الأندلس، (بيروت - ١٩٦٠)، ص ١٩ - ٢٠.

«فمن ناحية كان هناك مغتصب قوي وهو معاوية بمطالبتة التي لا تُقاوم من أجل الانتقام لمقتل عثمان وإثبات الخلافة، وهي أقدس سلطة في الإسلام، من ناحية أخرى كان ينتظم هناك أنصار الحقوق الديمقراطية الذين تهيئوا لمقاومة معاوية وإقامة الخليفة المنتخب في حينه وهو علي، الذي قام أتباعه بتزوير الحجج المتطلعة لإقامة الحق الإلهي لعلي وأهل بيته لكي يحكموا المجتمع الإسلامي، ودخل الجانبان في صراع مسلح،... وحدث التصادم الحاسم في معركة صفين، وفي ذلك الوقت تركت الإدارة البارعة للفرصة الذهبية من جانب ممثل علي، أبي موسى، تركت علي من دون أصحابه. وقد انسحب جماعة حزب الحقوق الديمقراطية من ساحة المعركة وقاموا بتجاوزات فوضوية وكان ذلك عائقاً لخلافة علي، وقد أطلق هؤلاء المنسحبون على أنفسهم تسمية الخوارج»^(١).

الذي يمكن تشخيصه من خلال الكلام المتقدم لـ (جمس هاستنكز) هو،
أميرين :

الأمر الأول: اتهم أتباع الإمام علي عليه السلام بتزوير الحجج من أجل إثبات حقه وأهل بيته في الخلافة، وهذا الكلام غير دقيق، وسبق أن عرضنا جانباً من الحقائق التي وردت على لسان المؤرخين المسلمين من كلا الطائفتين المعنيتين بالمشكلة في الفصل السابق.

الأمر الثاني: أطلق هاستنكز لقب (أنصار الحقوق الديمقراطية) أو (حزب الحقوق الديمقراطية) على (الخوارج) ووصف انسحابهم عن الإمام علي عليه السلام على أنه نتيجة لمؤامرة التحكيم، وما هو ثابت في أغلب مصادر التاريخ وكتابات بعض المستشرقين بأن رغبة هؤلاء كان في التحكيم، في الوقت الذي حذر الإمام علي عليه السلام من هذه الخدعة.

Hastings, James, Encyclopedia of Religion and Ethics, Volume XI, P. 454.

(١)

وأما المستشرق (شبولر) فقد ذكر بأن انتصار الإمام علي عليه السلام في معركة الجمل لا يعني أنه كان بإمكانه حسم الأمور بحدّ السيف، فقد أخذ معاوية بن أبي سفيان بصفته أقرب الأقارب للخليفة المقتول عثمان على عاتقه الأخذ بثأره، واستلم قيادة الجماعة التي انقلبت ضدّ الخليفة المنتخب بحجة أنه غير برئ بالكامل من جريمة القتل، وبالْحَقِيقَةُ والكلام لـ (شبولر) فإن استعدادات معاوية في سورية والاضطرابات في مصر أجبرت الإمام علياً عليه السلام على الزحف إلى الشمال لوضع حدّ فاصل لها، وفي أعالي الفرات وعند سهل (صفين) تقابل الجيشان لعدة أشهر انشغلوا فيها بالمناوشات من جانب وبالمفاوضات من جانب آخر، وكان الاندفاع لهذه المعركة قليلاً من الجانبين بسبب انحدارهم من نفس الأصول أو تربطهم قرابة دم، إضافة إلى أن أعداداً كبيرة من المقاتلين حتى وإن لم يكونوا قياديين كانوا يتهيّبون من إراقة دماء المسلمين، ولكن لم يتم حسم الأمور إلّا عبر القتال، وعندما بدأ النصر يميل إلى جانب الإمام علي عليه السلام، لجأ أعداؤه إلى حيلة مأكرة دبّرها عمرو بن العاص، هي تحكيم القرآن بدلاً من القتال، وأجبر الإمام علي عليه السلام على القبول بهذا المقترح وتمّ «استغفال علي مرة أخرى، فبينما كان يظن أن التحكيم لا يتعدى الاعتراف بأحقّية بالخلافة، استطاع حزب معاوية أن يتوصل إلى أن يجعل كلا المتحاكمين في نفس الوزن»^(١).

إن الشيء الذي يؤخذ عليه (شبولر) من قوله إن عملية التحكيم قد تمّ من خلالها استغفال الإمام علي عليه السلام، والحقيقة غير ذلك لأنه حذر من عملية رفع المصاحف قبل حدوثها، والدليل على ذلك قوله: «إنها كلمة حق يراد بها باطل»^(٢).

ووصف المستشرق (بيتر مانسفلد) انتصار الإمام علي عليه السلام في معركة

(١) Spuler, Geschichte Der Islamischen Lander, P. 103 - 104.

(٢) انظر، نهج البلاغة، الخطبة/ ٤٠.

الجميل بأنه كان قصير الأجل، وعلى الرغم من أنه كان مقاتلاً شجاعاً وقائداً صالحاً، إلا أنه لم يكن رجل دولة، إذ قام معاوية وبدعم من عمرو بن العاص بالثأر ضده انتقاماً لمقتل الخليفة عثمان، فسار الإمام علي عليه السلام لمواجهة المتمردين في معركة (صفين)، وعندما لاح له النصر قام بتبديده، حينما قام عمرو بتدبير خديعة رفع المصاحف، وكأنه يسأل الله أن يختار المنتصر^(١).

ويضيف مانسفلد القول بأن جماعة الإمام عليه السلام الأكثر تنسكاً أقنعوه بأن يوقف القتال، وجرى التحكيم من خلال ممثلين للطرفين، إلا أن الإمام علياً عليه السلام لم يقبل بالقرار وأدى ذلك إلى خلاف حاد بين أتباعه، أضعف معسكره في النتيجة^(٢).

إن حكم المستشرق (مانسفلد) على الإمام علي عليه السلام بأنه ليس برجل دولة لا يمكن أن يكون دقيقاً، لأن ظروف الدولة الإسلامية في أثناء خلافته كانت معقدة أشد تعقيد ولا يمكن الحكم من خلالها على الإمام علي عليه السلام بهذا الحكم، ولو كانت الخلافة بيد شخص آخر يؤمن بحرية التعبير ويأخذ برأي أصحابه لفعل بمثل ما فعل الإمام عليه السلام في قضية التحكيم.

ويبدي المستشرق (برسي سايكس) رأيه في معركة (صفين)، فأشار إلى أن الإمام علياً عليه السلام وبعد انتصاره في معركة الجمل، عاد إلى الكوفة واتخذها عاصمة لدولته، ثم جهز جيشاً كبيراً واجتاز دجلة وبلاد ما بين النهرين وعبر الفرات ليلتقي بجيش معاوية، وكان معاوية مستعداً للحرب، حيث جهز جيشاً كبيراً هو الآخر، وبعد محاولات غير مجدية للصلح ومناوشات متقطعة، بدأت معركة صفين في عام ٣٧هـ (٦٥٧م)^(٣).

Mansfeld, Peter, The Arabs, P. 38

(١)

Mansfeld, The Arabs, P. 38

(٢)

Persy Sykes, History of Persia, P, 533, 534.

(٣)

وتميزت هذه المعركة حسب رأس برسي سايكس بكثير من الأعمال البطولية واحتدمت لمدة ثلاثة أيام بدون نتيجة حاسمة، وأصيب معاوية برعب، ووافق على خديعة عمرو، فأمر رجاله برفع المصاحف على رماحهم، صائحين (الحكم لله، دع القرآن يحكم بيننا)؛ ولم يوافق الإمام علي عليه السلام بإيقاف القتال لأنه أدرك بأن هذا العمل خدعة، إلا أن رجاله المتعصبين هددوه بأن يتركوه إن لم يوافق على التحكيم ويعين حكماً لهم، وحتى في هذا الأمر لم يكن للإمام علي عليه السلام الخيار وأجبر أن يسلم أموره إلى أبي موسى الأشعري الذي كان أحد المؤيدين له، لكنه كان تعوزه الحماسة «فاتر الهمة»^(١).

ويضيف (سايكس) بأن الطرفين حداً مكان التحكيم، وذهب عمرو ممثلاً لمعاوية، وأبو موسى ممثلاً للإمام علي عليه السلام، وتبعهم آلاف من كلا الجانبين وتجمعوا ليسمعوا الحكم لكن الحكمين اتفقا سراً على أن يقوموا بعزل كل من الإمام علي عليه السلام ومعاوية وانتخاب خليفة جديد، فقام أبو موسى بإعلان خلعه للإمام علي عليه السلام على الملأ، أما الداهية عمرو فأعلن أنه يوافق على عزل الإمام علي عليه السلام ويثبت معاوية كوريث للخليفة عثمان ومطالب بدمه والخليفة من بعده.

ويعلق (برسي سايكس) على هذا الحادث بقوله:

«كان التحكيم نجاحاً باهراً لمعاوية الذي نصّب نفسه خليفة في دمشق وكان التحكيم ضربة شديدة لعلي، وعلى أية حال، فإن أنصاره لم ينصحوه بالتخلي عن الخلافة، ولم يكن محظوظاً في حياته، فقد أجبر على التحكيم»^(٢).

إن كل ما ذكره المستشرق (برسي سايكس) هو نقل لحقائق تاريخية

Persy Sykes, History of Persia, P. 534.

(١)

Ibid, P. 534.

(٢)

وردت في مصادرنا الإسلامية ونقلها غيره من المستشرقين أيضاً، ولكن الشيء الذي يؤخذ عليه هو تقييمه لنتيجة معركة (صفين)، بوصفه إياها بأنها كانت نجاحاً باهراً لمعاوية وضربة شديدة للإمام علي عليه السلام، فالمنصف في التاريخ لا يستعمل المقاييس نفسها التي استعملها (سايكس) والداعية إلى التعامل مع نتائج ملموسة على أرض الواقع، بل الإنصاف أن يُستبعد استخدام الغدر في الوصول إلى تحقيق المكاسب مهما كانت مادية، أخلاقية، اجتماعية أو سياسية.

وفي إطار ذكره لمعركة (صفين) أشار المستشرق (مونتغمري واط) إلى أن الإمام علياً عليه السلام قد سار بجيشه من العراق في منتصف عام (٦٥٧م) باتجاه معاوية بن أبي سفيان وحدثت المعركة، وبعد عدة أيام من القتال الضاري رفع جيش الشام المصاحف على الرماح، وفسّر هذا على أنه التماس من الجانب الآخر، من إخوانهم المسلمين بأن يقبلوا حكم القرآن، وكان هناك مجموعة قوية من جيش الإمام علي عليه السلام أرغمته، ليس فقط على وقف القتال، بل على الرضوخ إلى التحكيم، واختيار شخصٍ للتحكيم يمثل الإمام علياً عليه السلام وهو ليس محباً له^(١).

وقيم (واط) عملية التحكيم بقوله: «العديد من النسخ لعملية التحكيم أعطيت فيما بعد من قبل المؤرخين المسلمين ومن الصعب معرفة وجه الحق فيها»^(٢).

وعدم معرفة وجه الحق بالنسبة لـ (واط) لا يمكن أن يُلام عليه لأن ذلك يتطلب دراسة مصادر التاريخ الإسلامي بإمعان، وربما يتطلب منه لتحقيق هذا الهدف معرفة اللغة العربية للاطلاع على أكبر عدد ممكن من المصادر، وإن كان ليس صعباً على مستشرق مثل (واط) الذي عرف

Watt, M, Islam and the Integration of society, P. 97. (١)

Ibid, P. 97. (٢)

بمؤلفاته عن الإسلام والمسلمين ومن بينها كتاباً (محمد ﷺ في مكة) و(محمد ﷺ في المدينة).

وعبّر المستشرق (ولاستون) عن أحداث معركة (صفين) بمفردات لغوية معبّرة عن الحقائق، فقد ذكر بأن الأوضاع قد استتبت للإمام علي بن أبي طالب ﷺ بعد معركة الجمل، باستثناء منطقة واحدة كانت ترفع راية التمرد ضده، وهي سوريا، إذ استمر معاوية بتأليب الناس على الإمام ﷺ وحثهم للأخذ بثأر الخليفة عثمان، فأرسل الإمام علي ﷺ رسولاً لمعاوية يأمره بأن يقدم الطاعة له، لكنه كان يرفض الاستماع لأي شخص عدا عمرو بن العاص، عامل مصر، الذي رأى من مصلحته أن يكون في صف معاوية، فنكث ببيعة الإمام علي ﷺ وبايع معاوية، ولم تثمر جهود الإمام علي مع معاوية المتمرد، فتحرك إلى الشام على رأس تسعين ألفاً من المقاتلين، وتوقف في (صفين) لمدة شهر (حزيران - تموز ٦٥٧م) محاولاً حلّ المسألة سلمياً إلا أن جهوده باءت بالفشل، وهكذا بدأ القتال^(١).

واصل (ولاستون) وصف معركة صفين بالقول: «رأى مُحارب الإسلام [يقصد به الإمام علي ﷺ] إن هذه المعارك حالة مرصية لا تتفق مع الضمير فدعا خصمه معاوية للمبارزة».

وذكر ولاستون كلاماً يصف فيه لسان حال الإمام علي ﷺ وهو يرسل معاوية، فيقول له:

«إلى متى يُقتل هؤلاء الناس بيني وبينك، تعالى إلى هنا إنني اتحداك في اللجوء إلى حكم الله وإن الذي يقتل فسيكون الأمر كله للقاتل» «إلا أن معاوية رفض الخروج لعلمه إن ليس هناك رجل برز لعلي ﷺ وعاش».

Wollaston, Half Hours,P. 104.

(١)

ووصف (ولاستون) ظروف المعركة وأشار إلى أن ما تعرض له الإمام علي عليه السلام كان خدعة قد حذر منها وواعاها جيداً، بعد أن كان من النصر قاب قوسين أو أدنى، ولكن بضغط المتعصبين من جماعته كانت النتيجة ليس في صالحه^(١).

وفي وصف (ولاستون) لموقف الإمام علي عليه السلام في معركة صفين ودعوته معاوية للمنازلة الفردية دليل واضح على عدم دقة كلام بعض المستشرقين الذين ادعوا بأن غاية الإمام عليه السلام من الحرب هي الخلافة وقد حشد أصحابه من أجل هذا الهدف.

وتستعرض المستشرقة (فاغلييري) تفاصيل دقيقة عن معركة (صفين)، لا تقل أهمية عن التفاصيل التي ذكرتها عن معركة الجمل، ولكن سنحاول التركيز على بعض الجوانب التي من خلالها يمكن معرفة انطباعها عنها.

تذكر أن الإمام علي عليه السلام كان يأمل استعادة ولاء حاكم سوريا عن طريق المفاوضات معه، لكن محاولته كانت عبثاً، حيث طلب معاوية تسليم قتلة عثمان استناداً إلى الآية (٣٤) من سورة الاسراء^(٢) التي تمنع قتل النفس إلا بالحق، ومن قتل مظلوماً فقد أعطى القرآن الحق لوليه، وفي حالة الخليفة عثمان، فإن وليه هو معاوية^(٣).

وتقول (فاغلييري)، إن المصادر التي تناولت موضوع الخلاف بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية يكتنفها الغموض باسثناء كتاب (واقعة صفين) لمؤلفة نصر بن مزاحم المنقري، الذي يذكر بأن الخليفة عثمان قد قتله

(١) Ibid. P. 104 - 105.

(٢) الآية التي تقصدها فاغلييري رقمها (٣٣) وليس (٣٤)، ونص هذه الآية هو ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطٰنًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مُضْطَرًّا﴾، سورة الاسراء، الآية: ٣٣.

(٣) Vaglirei, the Encyclopadia of Aslam, V. 1, P. 383.

الناس «لأعماله الاستبدادية»، لذا فإن القتل يجب أن لا يكونوا عرضة للعقاب، وتضيف (فاغليري) القول بأن الواقع يشير إلى أن الصراع ما بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية له أسباب أعمق من هذا الأمر بكثير، ولكنها لم تحدد هذه الأسباب، لتنتقل إلى وصف معركة (صفين) بعد أن أشارت إلى أن الإمام علي عليه السلام لم يجد بداً من الهجوم العسكري، إذ تواجه الجيشان وحدثت مصادمات تخللها صلح في محرم سنة (٣٧هـ)^(١).

وعادت الاشتباكات وكاد نجم معاوية أن يأفل، لولا نصيحة عمرو بن العاص برفع المصاحف على الرماح، وتصف (فاغليري) عملية التحكيم بقولها: «لم يتضمن هذا العمل المشهور في التاريخ الإسلامي الاستسلام» وترى أن مهمة التحكيم هي تحديد فيما إذا كان الخليفة عثمان مذنباً أو غير مذنب، فإذا كان مذنباً، فإن قتله عندها يُعد عملاً عادلاً، لكنه إذا لم يكن قد ارتكب أخطاءً، فإنه يكون عند ذلك مظلوماً ويكون لمعاوية الحق في الانتقام من قتلته، ولم يكن هذا كل الأمر، لأن أي قرار بمصلحة معاوية سيتضمن حتماً خسران الإمام علي عليه السلام للخلافة^(٢).

وتذكر (فاغليري) أيضاً خسائر الطرفين وتاريخ التحكيم وما جرى بين عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري واحتجاجات بعض أصحاب الإمام علي عليه السلام على التحكيم، وخروجهم عليه.

ولو قيمنا ما كتبه فاغليري بشأن معركة صفين، نقول إنها قد أدركت كل ما يتعلق بأسبابها ومجريات أحداثها ونتائجها، لتؤكد وكما أكد بعض من سبقها بأن دخول الإمام علي عليه السلام هذه الحرب كان مرغماً، وحاول تفاديها لكن دون جدوى بسبب تعنت معاوية بن أبي سفيان.

Vaglirei, the Encyclopadia of Aslam, P. 383.

(١)

Ibid., P. 383 - 384.

(٢)

وتناول المستشرق (دونلدسن) الذي أجاد في دراسته عقيدة الشيعة ومن خلالها معركة صفين، فيشير إلى أن معاوية وبعد ما يقارب من ثلاثة أشهر، جمع مائة وعشرين ألفاً وسار بهم وكانوا لا يريدون خلافه علي عليه السلام غير أن شعارهم كان (يالثارث عثمان)، والأرجح أنهم كانوا يلقون بعض التبعة في قتل الخليفة عثمان على الإمام علي عليه السلام، فلا يرونه لائقاً للخلافة وكنتم معاوية ما بنفسه، ووصل جيشه إلى وادي صفين على مقربة من الرقة، وقدم الإمام علي بجيشه بعد أن اجتاز المدائن والرقة، فوجد معاوية وأهل الشام قد عسكروا في خرائب المدينة (أي صفين)، وهجم الإمام علي عليه السلام وهو في موقف غير ملائم وتمكن من بلوغ عين ماء قريبه من موقع المعركة^(١).

ويصف (دونلدسن) موقف الإمام هذا، بقوله: «وأباح كرمًا منه لأهل الشام ورود المشرعة واستسقاء الناس من طريقه»، فأعقب ذلك مفاوضة للصالح يتخللها بعض القتال، وكفوا عن القتال في محرم، ولم تبدأ معركة صفين الحقيقية إلا في شهر صفر^(٢).

ونقل (دونلدسن) رواية عن المسعودي يحدد فيها مدة المعركة بمائة وعشرة أيام والوقائع بتسعين وقبعة، ويوضح أن هذه المدة الاجمالية لمعركة صفين وليس الأيام الحاسمة في المعركة التي استمرت أسبوعين، ويذكر دونلدسن نقلاً عن المسعودي بأن عدد من قتل من أصحاب الإمام علي عليه السلام، سبعون ألفاً من أصل تسعون ألفاً كانوا معه، وكان معاوية في مائة وعشرون ألفاً، قتل منهم خمسة وأربعون ألفاً^(٣).

(١) عقيدة الشيعة، ص ٥١ - ٥٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر، المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ)، التنبيه والاشراف، مراجعة عبد الله الصاوي، دار الصاوي للطبع والنشر، (القاهرة - د. ت)، ص ٢٥٦؛ دونلدسن، عقيدة الشيعة، ص ٥٢.

ويبيدي (دونلدسن) رأياً بشأن عدد القتلى من الطرفين بالقول:

«إذا كان هذا [العدد] صحيحاً فإن الأسبوعين الأخيرين من القتال كانا أدمى الأسابيع حقاً فلا عجب إذن إن كره الناس الحرب وتداعوا إلى الصلح» واتفقوا على التحكيم في ١٣ أو ١٧ صفر^(١).

وتبنى دونلدسن وجهة النظر التي يقول فيها بأن بعض المحاباة للإمام علي عليه السلام قد ظهرت في هذه القصة وإن المعجبين به أضافوا هذه الحكاية بتبرير الفشل الذي أصابهم نتيجة التحكيم^(٢).

ويذكر دونلدسن بأن هناك مجموعة كبيرة من القراء في جيش الإمام علي عليه السلام الذين يطعنون في الخليفة عثمان وبعض حكامه، وإن هؤلاء الأعداء الألداد لحكم العرب لم يرضهم أي اتفاق، وبعد فشل التحكيم، أحسوا أن ذلك لا يخدم مصالحهم في حالة بقائهم مع الإمام علي عليه السلام، مما دفعهم للخروج، ونتيجة لذلك سمو بالخوارج^(٣).

أما دراسة المستشرق (فلهوزن) لمعارك الإمام علي عليه السلام ضد الناكثين والقاسطين والمارقين في كتابه (تأريخ الدولة العربية) وتخصيصه فصلاً منه تحت عنوان (علي والحرب الأهلية الأولى)، فقد كانت مميزة، استعان فيها بمجموعة من المصادر الإسلامية، مستعملاً المقارنة بين الروايات المختلفة للوصول إلى الرأي الذي يقنع به.

بدأ فلهوزن حديثه عن معركة صفين بدراسة الظروف التي مهدت لها، وكان من أهمها مقتل الخليفة عثمان، ومحاولة ابن عمه معاوية بن

(١) انظر، المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ)، التنبيه والاشراف، مراجعة عبد الله الصاوي، دار الصاوي للطبع والنشر، (القاهرة - د. ت)، ص ٢٥٦؛ دونلدسن، عقيدة الشيعة، ص ٥٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٤.

أبي سفيان الأخذ بثأره، وأشار فلهوزن إلى أن قوماً حرضوا معاوية على الإمام علي عليه السلام أكثر مما سعى بنفسه لذلك، وكان في مقدمة هؤلاء الوليد بن عقبة، ابن عم معاوية الذي وجه اللوم إليه على إضاعة الوقت في المراسلات مع الإمام علي عليه السلام، لكن معاوية كان سياسياً بطبعه ولم يكن متعجلاً ولا متلهفياً على محاربة أهل العراق، لأنه كان مهتماً في ذلك الوقت من الروم وأهل مصر الذين كانوا مع الإمام علي عليه السلام، إضافة إلى عدم رغبته في الخلافة، وإنما كان هدفه أن يحافظ على ولاية الشام وأن يستولي على مصر التي لا يصح أن يتركها لخصومه وأراد بالسيطرة عليها حماية ظهره، هذا ما يعتقده فلهوزن^(١).

استعرض فلهوزن مسير جيش الإمام علي عليه السلام ووصوله إلى صفين واصطدام مقدمة الجيشين من أجل السيطرة على عين ماء، فتمكن الإمام علي عليه السلام من السيطرة عليها ولكنه سمح لجيش معاوية بالتزود بالماء^(٢).

وتطرق فلهوزن إلى تفاصيل المعركة، وإلى عملية التحكيم بقوله:

«وقبلَ أهل العراق أن يُخدعوا، وأكرهوا علياً على الكفِّ عن القتال، وعلى أن يفاوض معاوية، وهددوه بالقتل إن لم يفعل ذلك»^(٣).

بعد ذلك يقوم (فلهوزن) بنقد بعض المصادر الإسلامية التي ذكرت معركة صفين، فيصف ما جاء به أبو مخنف بأنه كان مطولاً وهناك فراغاً كبيراً بين مقدمات المعركة وبين الالتحام الحقيقي، على أن شهر محرم بقي خالياً من القتال، ولا يذكر أبو مخنف القتال إلا في الشهر الذي قبله والشهر الذي بعده، ويخلص (فلهوزن) إلى القول:

(١) تاريخ الدولة العربية، ص ٧١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٤.

«ونحن لا نظفر، فيما يتعلق بسير المعركة الحقيقية، بصورة واضحة، ففي وصفها من الاضطراب الكبير مثل ما كان في مجراها، نعم، نحن نجد في كثير من الأحيان معلومات دقيقة عن تقسيم الجند وترتيبهم وقيادتهم، ولكن هذه المعلومات غير متفقة فيما بينها،... ويتكون وصف هذا القتال من مجرد روايات متفرقة لحوادث عرضية، وهي روايات لا تبين إلا ناحية واحدة، ولا ينجح الكاتب في محاولته أن يجعل منها وحدة منسجمة الأجزاء، فوصف المعركة يعوزه ارتباط بين الأجزاء»^(١).

ويذكر (فلهوزن) أن نهاية المعركة توضح أن مالِك الأشر كان البطل الحقيقي في ذلك اليوم.

من الأبطال الذين برزوا في القتال وقد ذكرهم فلهوزن هم: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وابن عمه عبد الله بن عباس، وكذلك القراء الذين اقتحموا الموت من أجل الإمام علي عليه السلام، فكانوا بدمائهم شهوداً له، وهو أقوى دليل على أنه على حق^(٢).

ويشير (فلهوزن) إلى أن مصادره التي اعتمد عليها كانت من جانب واحد ولو أنه حصل على كتابات الجانب الشامي فلعلها كانت تختلف عن حكاية أبي مخنف، وإن كان يستبعد أن تكون أجدر بالثقة من رواية أبي مخنف^(٣).

ويعرض فلهوزن ما جرى في عملية التحكيم بين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص وبعد التفصيل في ذلك يخلص إلى القول:

«ولا بدّ من التنبيه على ما يشعر به الإنسان من أن أبا موسى قد وقع

(١) تاريخ الدولة العربية، ص ٧٤ - ٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٧.

على هذا النحو في شرك الخديعة، أما عمرو فقد غدر شائناً، ولا شك أن أكثر الناس حنكة ربما وقع في مثل الشرك الذي وقع فيه أبو موسى، وإذا كان هناك خداع فهو من جانب عمرو، ولم يكن بالحقيقة بالرجل الذي يخدع. وهذه الحكاية في أمر نهاية محكمة التحكيم غير جديرة بالتصديق»^(١).

ومما يميز كتابات (فلهوزن) الاعتماد على موارد متعددة في إيراد الخبر الواحد، وكان حريصاً على نقل آراء غيره بأمانة ومناقشتها بحيادية.

وخصص فلهوزن جانباً من كتابه الآخر (الخوارج والشيعة) لدراسة نتائج معركة صفين التي وصفها بأنها كانت ذات نتائج بالغة الخطورة، إذ خُدع فيها الظافر عن ظفره، فعندما لاح خطر الهزيمة في جانب جيش معاوية، رفعوا المصاحف على أسنة الرماح^(٢).

ويستعرض فلهوزن الظروف التي مهدت وأسهمت في بلورة حادثة التحكيم وموقف الإمام علي عليه السلام الراض لهذه الخدعة، ويُبعد فلهوزن الشبهات التي أُثرت على أبي موسى الأشعري حول تواطئه مع معاوية، ويصفه بأنه كان من أقدم صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله، ويضيف له صفات أخرى يخرج بنتيجة هي أنه كان بعيداً عن الخيانة أو التآمر، إذ وقف موقفاً محايداً بين الفريقين في هذه الحرب الداخلية شأنه شأن غيره، ولم يكن مؤيداً للإمام علي عليه السلام ولا لمعاوية وإنما كان هواه نحو عبد الله بن عمر^(٣).

ويحاول فلهوزن إبعاد شبهات التآمر عن الأشعث بن قيس أيضاً رغم قوله عنه بأن اتّهامه أيسر إلى القبول من أبي موسى، فيذكر أن

(١) تاريخ الدولة العربية، ص ٨٦.

(٢) انظر، فلهوزن، الخوارج والشيعة، ص ٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦ - ٢٨.

الأشعث قد تقدم وبحماس في الوساطة بين الفريقين في مرحلة عقد الصلح، وعمل كل ما في وسعه من أجل وضع صلح مكتوب بين الفريقين، ويتساءل فلهوزن: «وإذَنْ: فأين الخيانة في مسلك الأشعث هذا؟ ليس هو الذي بدأ التيار، وكل ما فعله إنه سار فيه. لقد اندفع في أمر الصلح وبرز في عملية إجرائه، وبهذا عاون على وقوع الكارثة، ولكن هذا ليس خيانة بعد»^(١).

ويخلص فلهوزن إلى نتيجة مفادها أن البحث عن خونة في حادثة التحكيم لا جدوى فيه ولا محلّ له، وليس أمراً بعيداً عن التصديق أن تكون حيلة رفع المصاحف قد طرأت فجأة على فكر عمرو بن العاص الداهية، بل إن الفكرة نفسها قريبة الورود إلى الذهن ويمكن أن يكون لها سوابق^(٢).

ودليل فلهوزن في ذلك هو أن الرماح كانت تستخدم دائماً كعلامات وإشارات والقرآن هو راية الإسلام، فكان ذلك بمثابة تذكير لأهل العراق بأنهم إنما يقاتلون قوماً رايتهم كرايتهم وهو كلام الله، ولم تكن أذهانهم في حاجة إلى إعداد مسبق ليفهموا ذلك^(٣).

وتُعد دراسة المستشرق (ميور) في كتابه (الخلافة - The Caliphate) التي لا يقل أهمية عن سابقه (فلهوزن)، من الدراسات الشمولية التي لا يمكن للباحث الاستغناء عنها عند دراسته لمعركة (صفين)، فقد أشار إلى أن خلافة الإمام علي عليه السلام بعد معركة الجمل كانت مجزأة ومبتورة ما دامت سوريا (الشام) ومصر خارج سلطته، فأرسل الإمام علي عليه السلام قيس بن سعد بن عبادة لإخلاصه له ولمهارته وبراعته، إلى مصر، وتجنب أن يأخذ معه جنود وفضل أن يكتفي بسبعة من الصحابة، وعلى مقربة من

(١) انظر، فلهوزن، الخوارج والشيعة، ص ٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣١.

مصر هرب عاملها المتمرد [عبد الله بن أبي سرح] إلى سوريا، وقدم المصريون ولاءهم إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، باستثناء جماعة، وبحكمة قيس تركهم لشأنهم^(١).

ويواصل (ميور) وصف الأوضاع والعلاقة بين معاوية وقيس بن سعد والمراسلات التي حدثت بين الطرفين والتي تمخضت عنها ثبات ولاء قيس بن سعد إلى الإمام علي عليه السلام، لذلك سعى معاوية إلى إثارة الضغينة بينهما، واتهم قيساً بأنه انتهازي وعنده ليونة اتجاه الساخطين المصريين، ووصل هذا الكلام المحرض إلى الإمام علي عليه السلام، فأمر قيساً بالتقدم نحو الساخطين، وكان موقفه من هذا الأمر، بأن هذه الخطوة سابقة لأوانها، فعد الإمام علي عليه السلام ذلك دليلاً على تواطئ قيس، فعزله عن منصبه وأرسل محمد بن أبي بكر مكانه، وعاد قيس إلى المدينة، ولكن مروان بن الحكم وآخرون نغصوا عليه حياته وبدأوا يسخرون منه، فصمم الذهاب إلى الإمام علي عليه السلام لتوضيح الأمور له، وبعد اتضاح الأمر حظى بثقتة وجعله رئيس المستشارين، أما معاوية، فمن جهته قد أنب مروان بشدة على دفعه لقيس، وقال له:

«لو جهزت علياً بمائة ألف رجل لكان أقل شراً من عودة قيس إليه كمستشار»، وترسخت العلاقة بين الإمام علي عليه السلام وقيس مرة أخرى^(٢).

ويعقب (ميور) على هذه الحادثة بقوله:

«هذا الائتلاف وخطأ علي بعزل قيس عن مصر قوّت يدا معاوية، وحتى انتصار علي في البصرة كانت له فوائده لمعاوية فقد أزاح عن المسرح طلحة والزبير، لقد كان موقف علياً حرجاً جداً»^(٣).

Muire: the caliphate, P. 269.

(١)

Muire: the caliphate, P. 270.

(٢)

Ibid, P. 271.

(٣)

وبعد تفاصيل يذكرها (ميور) عن تشكيلة الجيشين والظروف التي دفعت بمؤيدي الإمام علي عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان لشنّ الحرب، يبدأ بوصف مسير جيش الإمام علي عليه السلام من الكوفة حتى وصوله إلى صفين، ويذكر أن الإمام علياً كان راغباً بتجنب إراقة الدماء وأوعز إلى قواته حال مواجهته العدو بالتوقف وعدم الاحتكاك به قبل أن تطرح الحلول السلمية، ولكن تخللت الأيام الأولى بعض المناوشات، ولاحظ الإمام علي عليه السلام سيطرة معاوية على الماء، فشنّ هجوماً أزاح به جيش معاوية، بعد ذلك أرسل ثلاثة رؤساء طالين من معاوية أن يقدم الولاء، لكنه رفض ذلك قبل أن يعاقب قتلة الخليفة عثمان^(١). وعندما وجد الإمام علي عليه السلام أن جميع محاولات التسوية قد باءت بالفشل، قدم قواته على شكل ثمانية أرتال منفصلة، كل واحد منها تحت إمرة رئيس قبيلة بدوية، وكذلك قسم جيش معاوية إلى عدة أرتال منفردة، وفي كل يوم يدخل الميدان رتل معين يقابله رتل من الطرف الآخر، واستمر القتال بهذا الشكل المنفرد لمدة شهر، وكان من الصعب حسم المعركة لأن الطرفين يخشون أن تكون المعركة شاملة: «ستدمر الإسلام جذراً وفرعاً في معركة ضروس»، وأطلت سنة على هذا الحال، وأعلنت بعد ذلك هدنة استغرقت شهراً في المفاوضات التي لم تسفر عن شيء كسابقاتها، أما الإمام علي عليه السلام فقد تعرض لضغط من البدو الغاضبين المحيطين به، واستأنف القتال وأخذت تزداد ذراوته يوماً بعد يوم، وكان الإمام علي عليه السلام عازماً على حسم الموقف، وهكذا بعد عشرة أيام أعقبت المفاوضات التحم الجيشان وتقاتلا حتى الظلام ولم تحسم المعركة، ووضع الإمام علي عليه السلام نفسه في المركز مع أتباعه من رجال المدينة، والأجنحة كانت من رجال البصرة والكوفة أما معاوية فقد أقام سرادقاً في الميدان تحيط به خمسة خطوط

Ibid, p. 273 - 276.

(١)

من ذوي العمائم كحرس شخصي، وشنّ عمرو بن العاص بقوة من الفرسان هجوماً على جناح الكوفة وأحدث ثغرة فيه، وأصبح الإمام علي عليه السلام أمام خطر وشيك ولام أهل الكوفة على جبنهم^(١).

ويضيف (ميور) بذكر وقائع المعركة والإشادة بشجاعة الإمام علي عليه السلام ومالك الأشتر ودورهما في القضاء على أربعة أرتال من أصل خمسة من جيش معاوية، فأراد معاوية الهرب بنفسه طالباً فرسه، وكان عمرو بجانبه، فحاول أن يشدّ عزمه، واستطاع الرتل الباقي لمعاوية أن يصمد في الدفاع عنه، وفي أثناء المعركة قتل عمار بن ياسر الذي سمع الناس بحقه مقولة الرسول محمد ﷺ بما معناه أن عماراً سيقتل في جانب الحق^(٢)، وأثار مقتله الفرع في صفوف مقاتلي معاوية، لكن عمرو أجابهم «ومن قتل عماراً غير علي وقتله عثمان الذين أتوا به إلى المعركة»، وهذه الإجابة الذكية كما يصفها (ميور)، قد جنبت معاوية شراً مستطيراً، وكان القتال في هذا اليوم مريراً حتى أدركهم الليل، وفي اليوم التالي صمم الأشتر على النصر بأي ثمن واستمر بالهجوم وبعزم متواصل وشجاعة فائقة، وبدأ معاوية المشبط العزيمة بالحديث عن قتال بين بطلين من كلا الجانبين، فقال له عمرو: «إذن اذهب وتحدي عليّ»، فأجاب معاوية «ليس هكذا، إنني لا أفضل ذلك لم يقهر علي رجل، لكنني بك سأنجح»^(٣) فطرح عمرو الخدعة صارخاً «ارفعوا المصاحف - ارفعوا المصاحف»، ووضح عمرو لمعاوية هدفه من ذلك بأنه إذا رفض الخصم ذلك فسوف يدبّ بينهم خلاف، وإن وافق على تحكيم القرآن سوف

(١) Muir, the caliphate, p. 276.

(٢) نص حديث الرسول محمد بحق الصحابي عمار بن ياسر هو: «تقتل عماراً الفئة الباغية عن الطريق، وإن آخر رزقه من الدنيا ضياح من لبن»، المتقي الهندي، كنز العمال، ٣٣٢/١١.

(٣) Muir, the caliphate, P. 276 - 278.

تتأجل المعركة، فوافق معاوية على ذلك، لكن الإمام علياً عليه السلام تقدم إلى جيشه صارخاً أنها خدعة أرادها خوفاً من الهزيمة، فأجابه أتباعه وخصوصاً حفظة القرآن: (مهما كانت الحجة لقد دعينا إلى كتاب الله ولا يمكن تجنبه)، وأخيراً هددوا الخليفة غير المحظوظ على حدّ تعبير (ميور) بالقتل كما فعلوا مع الخليفة عثمان، وطلبوا منه سحب الأستر من ساحة المعركة الذي رفض في بادئ الأمر قائلاً لهم بأنه سيحقق نصراً عظيماً، لكن الشغب قد ازداد، فأرسل إليه الإمام علي عليه السلام ثانية يأمره بالانسحاب، قائلاً له «ما ينفع النصر بعد أن نفشت الخيانة»^(١).

فانسحب الأستر مرغماً ودارت بينه وبين الجنود المنزعجين مشاحنة عنيفة، وتدخل الإمام علي بينهم، ولكن الشغب قد استمر، وتم إرسال الأشعث رئيس قبيلة بني كنده يسأل معاوية عن معنى رفع المصاحف، فأجابهم معاوية بأن يعود الطرفان إلى إرادة الله كما جاء في كتابه، وكل جانب يعين حكماً ويجب التمسك بقرارهم، فوافق جيش الإمام علي عليه السلام على ذلك وأجبر الخليفة غير المحظوظ حسب قول (ميور) على التحكيم والأكثر من ذلك تعيين ممثل عنه قد خذله، فقد نادى الجند بأبي موسى عامل الكوفة «الانتهازي» الذي أقصي عن منصبه بسبب ضعف ولائه، حيث قال الإمام علي عليه السلام عنه:

«إن هذا الرجل قد تركنا مؤخراً وهرب وليس مثل بضعة أشهر، وقد تمّ العفو عنه ولم يقاتل معنا، هذا ابن العباس الأوفر تمثيلاً وابن عم النبي اختاروه يحكم لكم». وقال رؤساء البدو نبرتهم المتعجرفة الخشنة حسب تعبير (ميور)، لا أحد متاً غير أبي موسى.

ويصف (ميور) هذا الموقف بقوله: «لقد كان خياراً مرأً لعلي لكن لا حيلة له»^(٢).

Muir, the Caliphate, P. 278.

(١)

Ibid, P. 279.

(٢)

ويذكر (ميور) تفاصيل ما جرى في مؤامرة التحكيم وما حدث من ردود أفعال من جانب أتباع الإمام علي عليه السلام بالخصوص، الذي قاد بالنهاية إلى تحزب جماعة ضده وهم الخوارج.

ويمكن تقييم ما ذكره (ميور) بشأن معركة (صفين)، بأنه استعمل آليات البحث التاريخي، من عرض مستفيض للأسباب التي أدت إلى نشوب المعركة، والغوص في تفاصيل دقيقة عن أحداثها، وأبرز النتائج التي تمّ التوصل إليها، وأكثر من التحليل والنقد، وذكر مصطلحات بحق الإمام علي عليه السلام مثل «الخليفة غير المحظوظ» توضح معرفته به بأنه كان المتفوق على معاوية في الحرب وقد اعتمد في ذكره لأحداث التاريخ على الطبري من خلال رواياته التي خصت الصراع الذي دار بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية.

وتُعد دراسة المستشرق (بترسن) في كتابه الذي يحمل عنوان (علي ومعاوية في الرواية المبكرة) الذي ترجمه الأستاذ الدكتور عبد الجبار ناجي، من الدراسات المتميزة التي وقف فيها على أحداث تاريخية تتعلق بمرحلة حرجة من تأريخ الدولة العربية الإسلامية المتمثلة بمقتل الخليفة عثمان بن عفان وما أعقبها من أحداث، حتى يصل إلى حقية متقدمة من العصر العباسي، لقد سلك بترسن منهجاً تحليلياً بالتعامل مع الروايات التاريخية التي اعتمدها ونقلها من رواها الكوفيين والسورين والمدنيين، فحدد اتجاه وميول هؤلاء الرواة وموقفهم من الصراعات التي حدثت إبان مقتل الخليفة عثمان، وتأثير هذه الميول في طبيعة تعاملهم مع الأحداث التاريخية التي زينت رواياتهم.

وإسوة ببعض المستشرقين فقد قدم بترسن لموضوعه بدراسة الظروف التي مهدت لنشوء الصراعات في المجتمع الإسلامي وآثارها في طبيعة المشاكل التي دارت بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان، وكان في مقدمة تلك الظروف مقتل الخليفة عثمان.

لقد وصف بترسن مقتل الخليفة عثمان بأنه حدث مهم جداً وكان بداية لعهد جديد في التاريخ الإسلامي، وعبر عنه بوصفه (فتنة) لم تقتصر آثارها على حدوث سلسلة النزاعات والصراعات المؤلمة والعنيفة في السنوات التي أعقبت حدوثها وإنما أدت إلى الانقسام الدائمي للمجتمع الإسلامي ليتحول فيما بعد إلى فرق متشاحنة فيما بينها يصعب المصالحة بينها^(١).

وهذا الانقسام حسب رأي بترسن قد أثير من قبل عناصر كامنة للتوتر تضم أطرافاً متعددة من «المكيين المحمديين» ورفاقهم المدنيين، وطبقة النبلاء القديمة في مكة تحت زعامة الأمويين والجماعة العربية البدوية، وفي حقبة لاحقة إلى حد ما، فإن حالة التوتر هذه قد أججها جماعة جديدة مع الإمام علي بن أبي طالب، الذين وصفهم بترسن بأنهم ممثلو مبدأ الشرعية لابن عم الرسول ﷺ وصهره كشخصية مركزية^(٢).

وشخص بترسن الأسباب التي أدت إلى نشوء الفتنة خلال عهد الخليفة عثمان بقوله:

«ومع ذلك فلدينا أدلة، خلال عهد عمر (٦٣٤ - ٦٤٤) ولا سيما خلال عهد خليفته عثمان، في تبرعم ونشوء حالة التذمر والاستياء بين تلك القبائل العربية التي قد أسهمت في التوسع بالفتح سواء من حيث النظام العسكري الصارم أم من حيث المنافع والامتيازات الاقتصادية التي حصدها وكسبتها الارستقراطية الإسلامية الجديدة في الحجاز خلال عهد عثمان، وقد حصد الأمويون من عمليات الفتح أيضاً»^(٣)

(١) بترسن، ايرلنغ ليدوك، علي ومعاوية في الرواية العربية المبكرة - دراسة في نشأة ونمو الكتابة التاريخية الإسلامية حتى نهاية القرن التاسع الميلادي، ترجمة وتقديم وتعليق آ. د. عبد الجبار ناجي، مطبعة الاعتماد، إيران، قم، (ط ٢٠٠٨م)، ص ٣٩.

(٢) بترسن، علي ومعاوية في الرواية المبكرة، ص ٣٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٠.

ويقتبس بترسن وجهة نظر المستشرقة فاجلييري من خلال أحد بحوثها التي استبعدت فيها أن يكون انتخاب الإمام علي قد جاء نتيجة للاعتراف بمبدأ الشرعية، وإنما كان بسعي من البدو وبالأخص القبائل العراقية - والأنصار من أجل الاستثمار والانتفاع من ملاسبات الصراع للرجوع بالمجتمع الإسلامي إلى السبل القديمة الأكثر صلاحاً وتقوى^(١).

ويخلص بترسن إلى القول: «وعلى أية حال فإن سلطة علي كخليفة لا يمكن المحافظة عليها إلا بالتعاون مع الجماعات التي وقفت وراء قتل عثمان ولذلك فإنه واجه مقاومة من المهاجرين المكيين الذين انتفعوا من التوسع»^(٢).

وكان على الإمام علي أن يواجه تمرد طلحة والزبير «ومن لفت لفتها من أتباع عائشة»، إذ كانت مطالبتهما الغامضة إلى حد ما للإصلاح - في نظر بترسن - معبرة عن رفضهما لانتخاب الإمام علي، ومهما يكن، فإنهما لم يتمكنوا من تحقيق رغبتهما في تلك الظروف الصعبة، وقد تم «قمع» تمردهما في معركة الجمل^(٣).

ويرى بترسن أن رد الفعل الأموي القوي برئاسة معاوية ضد الإمام علي للأخذ بثأر الخليفة المقتول، كان الأكثر طبيعة والأكثر أهمية انطلاقاً من صلة القرابة التي بينهما، ولأن الإمام علياً يُعد في جميع الروايات على أنه له ضلع بعملية القتل كونه قد مال «في الواقع» إلى جماعة القائمين بعملية الاغتيال، وعلى هذا الأساس ينبغي أن يتعرض للشبهة^(٤) حسب اعتقاد بترسن.

ومن جانب آخر يوضح بترسن وجهة نظر الإمام علي وأنصاره الذين

(١) بترسن، علي ومعاوية في الرواية المبكرة، ص ٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٠ - ٤١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤١.

كذبوا ورفضوا الفكرة التي يستند عليها معاوية باتخاذ القرآن دليلاً للأخذ بالثأر، ويرون أن أحداث «الاستبدادية لعثمان» قد أعطت الفرصة للقتل عمداً، ولهذا ينظر إلى معاوية على أنه متمرد ضد السلطة الدينية الشرعية، فمن الواجب واستناداً إلى القرآن مقاتلته حتى يرجع إلى طاعة الله^(١).

لقد وضع بترسن أحداث معركة صفين ولجوء معاوية وعمرو بن العاص إلى التحكيم، وكيف أن الإمام علياً قد أُجبر على ذلك، مما أدى إلى الانقسام في صفوف جيشه وظهور الخوارج الذين عدوا الاتفاق بين الطرفين خروجاً عن وظيفة الخليفة الدينية ولا ينسجم مع توضيحاتهم في القتال ضدّ تمرد معاوية غير الشرعي، وإنهم لم يعترفوا إلاّ بحكم الله في الصراع^(٢).

لقد تعرض الإمام علي إلى اتّهام الخوارج له بالكفر على أثر اتفاقية صفين مما أدى إلى تصادم الطرفين في معركة النهروان بالقرب من الكوفة في تموز من عام ٦٥٨م التي اندحر فيها الخوارج، ولكن السنيتين الأخيرتين من خلافة الإمام علي قد اتخذت شكلاً من أشكال الإنحلال المتصاعد - والكلام لبترسن - إلى أن وقع ضحية لاغتيال خارجي في شهر كانون الثاني ٦٦١م^(٣).

ويقيم^(٤) بترسن نتائج الحرب الأهلية التي حدثت في الصراعات التي أعقبت مقتل الخليفة عثمان وفي أثناء خلافة الإمام علي عليه السلام بقوله:

(١) بترسن، علي ومعاوية في الرواية المبكرة، ص ٤١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤١ - ٤٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٢ - ٤٣.

(٤) اعتمد بترسن في تقييمه لنتائج الحروب التي حدثت بعد مقتل الخليفة عثمان وفي أثناء خلافة الإمام علي، على وجهات نظر عدد من المؤرخين العرب والغربيين مضيفاً إليها ما يعتقد أنه بهذا الشأن، ولغرض معرفة المصادر والمراجع التي اعتمدها في ذلك، انظر الهوامش التي اعتمدها بترسن في أسفل صفحات كتابه التي أشرنا إليها فيما يتعلق بهذه الفقرة.

«في هذه الحرب الأهلية فإن المبادئ الأساسية للإسلام قد تصادمت وتضاربت في صراع غير قابل للمصالحة، وعلينا أن نتذكر بأن حرب علي الدفاعية كانت ترمي إلى «الإبقاء على العقيدة والتزامه بأن يتحمل القيادة الصحيحة وصولاً إلى النصر»^(١) وأن هذا الالتزام أو التعهد قد ارتكز عليه بشكل طبيعي وذلك لأنه كان عارفاً للدين، وهي مسؤولية دينية أنعم بها الله عليه بصفته الإمام. ومن الجانب الآخر فقد ظهر أن موقفه من الفتنة قد أثر في حكمه المتعاصر لاعتباره ولمقامه الديني إلى درجة متميزة. فإن مجرد الشك باحتمال تورطه أو اشتراكه في مقتل الخليفة «إن كان هذا مظلوماً» يبدو أنه قد أقنع أو حث عدداً من صحابة محمد البارزين «من بينهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر» على الامتناع عن الاعتراف به وفضلوا البقاء على الحياد، مشابهة بدوره في إراقة دماء زملائه المؤمنين في معركة الجمل وصفين والنهروان، فإن ذلك قد أثار شكاً مستفحلاً بخصوص دينه وعقيدته، وفيما يخص الخوارج فإنه قد خسر دينه بسبب قبوله التحكيم، وأن حكمه أيضاً قد اعتبرا موقفه من الفتنة موقفاً توفيقياً من الناحية الدينية الأمر الذي يجرده من الأهلية في الخلافة»^(٢).

ويحدد بترسن أسباب رجحان كفة الأمويين، ومن بينها «تقويض دين علي»، وكذلك في خصال معاوية الشخصية، إذ يصفه بقوله:

«وفي هذه الحالة فإننا نجد أيضاً عدم وجود أي أساس للفكرة بأنه [أي معاوية] طمع صراحة بالخلافة حتى فترة متأخرة جداً، ومن المحتمل أنه ظلّ كذلك إلى أن اعتبر الحكمان دين علي في محل تساؤل»^(٣).

ويصف الأستاذ الدكتور عبد الجبار ناجي استنتاج بترسن هذا بأنه

(١) بترسن، علي ومعاوية في الرواية المبكرة، ص ٤٣ - ٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٣ - ٤٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٤.

غير صحيح، لأن الإمام علياً لم يعرض نفسه للشبهة ولكن تسرع أتباعه وعدم الروية في اختيار الحَكَم الأوفق، من جانب، ومن جانب آخر أن ابن عباس أو الأشتر كما رأى الإمام، السبب في جعل أبي موسى الأشعري يخضع لخديعة عمرو، على الرغم من تحذير ابن عباس له، بتخليه عن صاحبه الإمام علي في الحكومة بقصد أو بغير قصد، ويُنهي الأستاذ الدكتور عبد الجبار ناجي كلامه بوصف موقف ابن عباس بقوله: «والله أعلم»^(١).

ويخلص بترسن إلى الاعتقاد بأن النتيجة بتفوق معاوية يعود إلى دهائه السياسي وإلى ترويه الرزين وإلى تسامحه، وجميع هذه الصفات تمثل مفهوم العرب للحلم^(٢).

ولم يكن بترسن دقيقاً في وصفه وتقييمه لشخصية معاوية بن أبي سفيان بأنه كان حليماً ومتسامحاً، لأن ما فعله معاوية يُعد غدرًا وقد جاء ذلك على لسان الإمام علي عليه السلام حينما وصفه بأنه ليس بأدهى منه ولكنه كان يغدر ويفجر.

ولم تقتصر دراسة المستشرق بترسن على الروايات التاريخية وإنما اعتمد إضافة لها على القطع الشعرية التي أسماها بالرواية الشعرية، وحاول من خلالها استنباط بعض المواقف التاريخية التي توضح الإخفاق أو النصر والمدح أو الذم والمكر أو الوفاء في الحرب التي دارت بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية أو في مسألة التحكيم.

على سبيل المثال وفي مفاوضات التحكيم يذكر بترسن أبيات شعر^(٣)

(١) عبد الجبار ناجي، هامش في ص ٤٤ في أثناء رده على استنتاج بترسن.

(٢) علي ومعاوية، ص ٤٤، ٤٥.

(٣) هذه الأبيات الشعرية نقلها بترسن عن، ياقوت الحمودي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، تحقيق مزيد الجندي، دار الكتب العلمية، (بيروت . د. ت)،

١/١٥٨؛ انظر، بترسن، علي ومعاوية، ص ١٠٢.

قالها الشاعر الأسود بن الهيثم في وصف موقف أبي موسى الأشعري، جاء فيها:

لَمَّا تداركت الوفود بأذرح وفي أشعري لا يحلّ له غدر
أدى أمانته ووفي نذره عنه، وأصبح فيهم غادراً عمرو
يا عمرو إن تدع القضية تعرف ذلّ الحياة ويُنزع النصر
ترك القرآن فما تأول آية وارتاب إذ جعلت له مصر

يفسر بترسن قول الشاعر بأن أبا موسى لا يُعد مسألة التحكيم فشلاً أو إخفاقاً، وإنما الذي أخفق هو عمرو فقد تخلى عن الحكم وسوف يُحرم عون السماء وأنه حاد عن القرآن وانحرف وفضل الحصول على امتياز عندما وُعد بالحصول على ولاية مصر^(١).

ويوضح بترسن معنى هذه الأبيات بقوله:

«إن وجهة النظر هذه حول اجتماع أذرح في الواقع تنسجم تماماً مع الموجودات النفسية التي عبّرت عنه الرواية النثرية الكوفية للجيل اللاحق. وإنكار عمرو للعقيدة أو تبرؤ عمرو من العقيدة أمام الوعد بإعطائه مصر وهو أمر رأيناه بالفعل، وقد تمّ التشديد عليه أيضاً،... وبكلمة أخرى لدينا دليل مضاف آخر بأن الرواية العراقية في مرحلة مبكرة جعلت من عمرو بن العاص المحرك الأول والأساس في التمرد ضدّ حكم علي المقبول من الله»^(٢).

ويعقب الاستاذ الدكتور عبد الجبار ناجي على وجهة نظر بترسن، بالقول:

«... إن البروفسور بترسن قد نجح إلى درجة كبيرة في تلخيص معنى الأبيات نثراً ومن الناحية التاريخية ومع صعوبة الترجمة فإنه استعان كثيراً

(١) علي ومعاوية، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٥.

بما ترجمه المستشرق الإيطالي كيتاني لهذه الأبيات. غير أن الأبيات الشعرية توحى بأن هناك رأياً غير الذي رآه البروفسور بترسن^(١).

إن خلاصة ما ذهب إليه المستشرقون الذين كتبوا عن معركة صفين يتمثل بتركيزهم على نقطتين أساسيتين، الأولى: إن هدف معاوية من هذه الحرب كان هو المطالبة بدم الخليفة عثمان، والثانية: إن ما جرى في عملية التحكيم هو خدعة قد حاك خيوطها عمرو بن العاص ووقع في شباكها أبو موسى الأشعري بعد أن كان النصر من جيش الإمام علي عليه السلام قاب قوسين أو أدنى.

فيما يتعلق بالنقطة الأولى فقد ورد في بعض مصادر ومراجع التأريخية عكس ما ادعاه معاوية، إذ كان نفسه راغباً في التخلص من الخليفة عثمان.

لقد ذكر البلاذري أنه عندما طلب الخليفة عثمان في أثناء الحصار الذي فرض عليه معونة معاوية، فبعث إليه يزيد بن أسد القسري وقال له:

إذا أتيت ذا حُشْبٍ^(٢) فأقم بها ولا تتجاوزها ولا تقل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فأقام بذِي حُشْبٍ حتى قُتِلَ عثمان، فاستقدمه حينئذ معاوية فعاد إلى الشام بالجيش الذي أرسله معه، وإنما صنع معاوية ذلك ليُقتل عثمان فيدعو إلى نفسه^(٣).

ويذكر الطبري في تأريخه: «فلما رأى عثمان ما قد نزل به وما قد انبعث عليه من الناس كتب إلى معاوية بن أبي سفيان وهو بالشام: أما

(١) عبد الجبار ناجي، في هامشه للتعليق على ما ورد في كلام بترسن بشأن أبيات شعر الأسود بن الهيثم، ص ١٠٤.

(٢) ذِي حُشْبٍ، حُشْبٍ، وإِدِ على مسيرة ليلة من المدينة، انظر، ياقوت، معجم البلدان، ٢/ ٤٢٦.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف. ٢/ ٢١٥.

بعد فإن أهل المدينة كفروا وأخلفوا الطاعة، ونكثوا البيعة، فابعث إلي من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول. فلما جاء معاوية الكتاب تربص به...»^(١).

ويحلل الدكتور إبراهيم بيضون موقف معاوية بأنه كان استغلالاً للظروف ووجد فيها الفرصة النادرة لتحقيق أهدافه التي لن تقف عند حدود ولاية الشام التي طال حكمه لها، وإنما كانت الخلافة، ولا يبدو ذلك غامضاً لمن يمعن النظر في سلوك معاوية خلال المحنة التي حاقت بعثمان، دافعاً بالأمر إلى التعقيد، ومن ثم غير مبالٍ بما يتهدد قريبه الخليفة من الخطر^(٢).

أما ما يتعلق بالنقطة الثانية التي أشار المستشرقون إليها فهي، إن ما جرى في تحكيم صفين على أنه خدعة، فقد عارض بعض مؤرخينا القدامى والمحدثين هذه الفكرة، وعدوا ما تعرض له أبو موسى الأشعري على أنه ليس بخدعة.

لقد وصف ابن العربي (ت ٥٤٣هـ) خدعة التحكيم على أنها رواية ركيكة، واستبعد أن يكون أبو موسى ضعيف الرأي، بل وصفه على أنه كان رجلاً تقياً، فقيهاً وعالماً^(٣).

ويعزز هذا القول ما ذكره الدكتور طه حسين من أنه لو كان أبو موسى مغفلاً لما اختاره الخليفة عمرو بن الخطاب لولاية أحد الأمصار، ولما اختاره أهل الكوفة ليكون والياً عليهم أثناء الفتنة التي أدت إلى مقتل الخليفة عثمان^(٤).

(١) تأريخ يعقوبي، ٣٦٨/٤.

(٢) بيضون، الإمام علي في رؤية النهج ورواية التأريخ، ص ٧٣.

(٣) أبو بكر (ت ٤٥٣هـ)، العواصم من القواسم في تحقيق مواقف الصحابة بعد النبي، تحقيق محب الدين الخطيب، المكتبة العلمية، (بيروت. ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص ١٧٤.

(٤) الفتنة الكبرى، ١٠١/٢، ١٠٢.

ويبيدي الدكتور نايف معروف رأيه بهذا الخصوص، فيذكر أن شهود التحكيم من كلا الطرفين كانوا من أكابر أقوامهم، فليس ممكناً أن ينطلي عليهم هذا الخداع الفاضح، ويستدل معروف بما أورده ابن مزاحم المنقري والطبري وسواهما من تحذير ابن عباس لأبي موسى الأشعري قبيل إعلان قرار التحكيم، إذ قال له: «ويحك إني لأظنه قد خدعك، إن كنتما اتفقتما على أمر فقدمه، فيتكلم بذلك الأمر قبلك، ثم تكلم أنت بعده، فإن عمرو رجل غدار»^(١).

بعد ذلك يخلص الدكتور معروف إلى القول: «فهل بعد كل هذا يجوز أن تنطلي حيلة عمرو بن العاص على أبي موسى؟»^(٢).

ورغم صحة الاستنتاج الذي توصل إليه الدكتور معروف، إلا أن هذه الرواية لا ترقى إلى درجة الصحة، وكل ما أراده الوضاعون منها هو أن يثبتوا صفة الغدر في شخصية عمرو بن العاص^(٣).

ويذهب الدكتور حسن إبراهيم حسن إلى أن المؤرخين يظلمون أبا موسى حين يرمونه بالغفلة وقصور الرأي، لأنه قد تمّ اختياره عن أهل العراق ونصح لهم ولكن الصدفة هي التي فعلت فعلتها بأن خالف رأيه رأي الإمام علي عليه السلام وبني هاشم، ويضيف الدكتور حسن إن رأي أبي موسى لم ينفرد به لوحده وإنما كان رأي طائفة كبيرة من معاصريه، وفوق هذا وذاك يعتقد أن ما قام به عمرو بن العاص من مبايعة معاوية لم يكن

(١) ابن مزاحم المنقري، نصر، وقعة صفين، تحقيق عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة، ط ٣ (مصر - ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ص ٨٤ - ٨٥، الطبري، تاريخ، ٣/١١٣؛ انظر.

(٢) معروف، ناجي، الخوارج في العصر الأموي، نشأتهم وتاريخهم، عقائدهم، أدبهم، دار الطليعة، ط ٤ (بيروت - ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ص ١٠٠.

(٣) أبو الشباب، أحمد عوض (الدكتور)، الخوارج تاريخهم، فرقهم، عقائدهم، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ص ١٠٠.

كافياً وحده لتثبيت صاحبه، بل إن هناك أموراً جديرة بالذكر قد دفعته لذلك وأهمها اضطراب جند الإمام علي عليه السلام الذي أراد تجديد الحرب على معاوية بعد موقعة صفين وانشقاق الخوارج عليه وكذلك اتحاد جند معاوية والتفافهم حوله وتفانيهم في نصرته، إذ عمل منذ توليه بلاد الشام في عهد الخليفة عمر على الاستئثار بخيراتها وجلب حوله طائفة من الأنصار بالعطايا والمنح^(١).

ويؤكد المؤرخ هشام جعيط القول: «من الخطأ التام أن نرى في ذلك خدعة شيطانية لتجنب الهزيمة... فلم يكن معاوية مغلوباً، ولا كان على طريق الانهزام، إنما كان يستعمل فقط اللغة الوحيدة الممكن فهمها، لغة الرمز، كما أنه يلتجئ إلى المرجع المشترك الوحيد، مرجع القرآن»^(٢).

ويعتقد الباحث أن ما آلت إليه نتائج التحكيم إن لم تكن خدعة فهو أمر قد مهد له أبو موسى نتيجة لاتفاقات سرّية قد جرت بينه وبين معاوية أو محاولة منه للانتقام من الإمام علي عليه السلام الذي رفض تقليده ولاية الكوفة إبان فتنة الخليفة عثمان، وهذا ما يفسر موقفه المحايد في معركة الجمل وعدم وقوفه إلى جانب الإمام علي عليه السلام، يضاف إلى هذا وذاك ما كان يأمله أبو موسى في وصول نسيبه عبد الله بن عمر إلى الخلافة، ليكون أكثر قرابة من مركز السلطة.

(١) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، ط ١٥ (بيروت - ١٤٢٢هـ/٢٠٠٠م)، ج ١/٣٠٦.

(٢) الفتنة جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الطليعة، (بيروت، د. ت)، ص ٢٠٣.

المبحث الثالث

حرب الإمام علي ضد المارقين (الخوارج) في معركة النهروان

أخذت قضية الخوارج في دراسات المستشرقين حيزاً يستحق الوقوف عنده والتدقيق فيه، فقد تعامل المستشرقون الذين تناولوا هذا الحدث التاريخي بشكل يختلف عما جرى في تعاملهم مع حرب الإمام علي عليه السلام ضد الناكثين والقاسطين، والسبب في ذلك هو أن هذه القضية تتضمن جوانب فكرية غالباً ما يجد الباحث فيها فرصة لإبداء رأيه.

سنحاول في هذا المبحث بيان الجوانب الفكرية التي ركز المستشرقون عليها في دراساتهم لهذه الحرب أكثر من الخوض في تفاصيلها التي يمكن الحصول عليها بالرجوع في ذلك إلى مصادرنا التاريخية.

من بين المستشرقين الذين أشاروا إلى الخوارج بشكل عابر ودون التفصيل المستشرق (بودلي)، الذي ذكر أن بعض الخوارج المتعصبين نظروا إلى الانشقاق الذي حدث بين المسلمين على أنه نقيض كل مثل النبي محمد صلى الله عليه وسلم العليا التي جاء بها، ويقود بالنهاية إلى انهيار الإسلام، ورأوا أن المسؤولين عن ذلك هم الإمام علي عليه السلام ومعاوية وعمرو بن العاص، لذلك تعاهدوا على أن يخلّصوا بلاد العرب منهم، ولكن فشلت

محاولتان، فجرح معاوية بجرح بسيط، وقتل شخص كان يؤم المصلين في مصر بدلاً من عمرو بن العاص، ولم تنل السيوف التي قررت اغتيال الخلفاء كما يقول بودلي، إلا علياً، فقتل في العراق بمدينة الكوفة.

وقد شُيّد له قبر فخم ومسجد هائل، ونشأت حوله مدينة جميلة تعرف بـ «مشهد علي»، وهي اليوم إحدى أماكن الشيعة الرئيسة المقدسة^(١).

ولم يكن بودلي دقيقاً في قوله: «ولم تنل السيوف التي قررت اغتيال الخلفاء إلا علي»، لأنه جعل كل من معاوية وعمرو بن العاص في عداد الخلفاء إسوة بالإمام علي عليه السلام الذي بويع من المسلمين وأمام الملاء.

ويذكر المستشرق (برس سايكس) أن الإمام علياً عليه السلام لم يكن محظوظاً في حياته، فقد أُجبر على التحكيم في (صفين)، وموافقته على هذا الأمر دعت باثنتي عشر ألفاً من جنوده إلى الانشقاق عن جيشه، معتقدين بأن مصلحة الإسلام العليا سلّمت إلى محكّمين كفر، وأقسموا أن لا يخدموا خليفة أبداً وأصروا على مبدأ (لا حكم إلا لله وحده)، لكن الإمام علياً عليه السلام تعامل معهم بصبرٍ كبير، بعد ذلك قام بتأجيل الحرب على معاوية وقرر مواجهة الخوارج الذين قاموا بارتكاب تجاوزات مريعة في حق المسلمين، وبعد مداوات طويلة تفرق كثيرٌ منهم نابذين القتال، إلا أن (١٨٠٠) ألفاً وثمانمائة منهم رفضوا كل أساليب التفاوض والحجج وقرروا القتال إلى آخر قطرة من دمائهم^(٢).

واكتفى (برسي سايكس) بهذه السطور في حديثه عن الخوارج ولم يذكر أي شيء عن معركة النهروان التي قُضي فيها عليهم باستثناء القلة الذين فروا.

(١) حياة محمد، ص ٤٢٦.

Percy Sykes, History of percia, P. 533,534.

(٢)

ويحلل المستشرق (واط) السبب الحقيقي في رأيه الذي دفع الخوارج للانشقاق عن الإمام علي عليه السلام، على الرغم من وعوده لهم بإعطائهم بعض الامتيازات، فيقول بصدد ذلك:

«رغم تقديرنا لتمرد الخوارج فإن نقطتين فقط تستحق الملاحظة، النقطة الأولى، هي أن هؤلاء الخوارج كانوا معارضين لعلي معارضتهم لعثمان والأمويين، وهذا يميل أو يدعم الفرضية بأن استيائهم كان على البناء الاجتماعي وليس بالضرورة ضد شخص معين أو أسرة حاكمة معينة، وصحيح أن علياً كان من غير الطبقة الأرستقراطية في مكة...، وصحيح أن علياً كان له أصحاب كانت مواقفهم «على الأقل تغيرت بعض المواقف فيما بعد» مضادة تماماً لمواقف الخوارج أو الخارجيين ومع ذلك بقي عدااء الخوارج لعلي دليلاً على استيائهم من النظام ككل»^(١).

أما النقطة الثانية التي أشار إليها واط في سبب تمرد الخوارج فهي: «إن في هذه الثورات أو التمردات لمجموعة قليلة أو عصابة قليلة من الرجال، أعاد الخوارج شيئاً جديداً مثل العشائرية أو القبلية والتي كانت سائدة في حياتهم بوصفهم بدو. ولعل هذا ما غير مسارهم بلا إدراك منهم»^(٢).

ويبدو أن تحليل (واط) كان مقنعاً، لأن الطبقة الأرستقراطية التي سيطرت على مجريات الحكم واستئثارها بالسلطة والأموال في عهد الخليفة عثمان، وشعور آخرين بالحرمان قد ولد في نفوسهم كرهاً للسلطة وانسحب هذا الكره حتى على الإمام علي عليه السلام رغم معرفتهم بتقواه وزهده.

ويعتقد المستشرق (ترتون) أن الخوارج يستحقون وقفة خاصة لأنهم حسب اعتقاده إحدى الطوائف الذين لازالوا لحدّ الآن موجودين في عمان

Wat, Islam and the Integration of society, P,97. (١)

Ibid, P. 97. (٢)

وأفريقيا، وأن موقفهم من بقية المسلمين يتمثل في كرههم لهم، ووصف، (ترتون) موقف الخوارج من بعض الشخصيات بقوله:

«فهم يعتقدون بأن عثماناً استحق القتل، وأدانوا بعض الرجال العظام من المسلمين الأوائل، وأدانوا علياً لأنه لم يتورع عن قتال المتمردين قبل موته وقتل ما يقارب أربعة آلاف ورع أو مُتَّقٍ (من الخوارج)، ولعنوا طلحة والزبير لأنهم نقضوا العهد الغليظة لعلي ومن ثم قاتلوا جنده، وأدانوا الحسن والحسين لأنهما ساندا والدهم المخطئ، ولعنوا معاوية لأنه قاتل ضدَّ علي ورتب الاحتكام إلى القرآن وسفك دماء المسلمين ولعنوا أبا موسى الأشعري وعمرو لأنهم من رتب إلى عملية الاحتكام، ولعنوا يزيداً لأنه نصب نفسه خليفة وقتل الحسين سبط النبي»^(١).

ويتناول المستشرق (ولاستون) قضية الخوارج بتفصيل أكثر نسبياً من سابقه، فقد وضح أن خدعة التحكيم في معركة (صفين) قد أغضبت مجموعة من أنصار الإمام علي غضباً شديداً، ونمت مجموعة سميت بالخوارج انعزلت عن معسكر الإمام علي عليه السلام وكونت لها معسكراً قرب بغداد، وبدأ جمع الساخطين بالازدياد إلى أن وصل إلى خمسة وعشرين ألفاً، ويذكر ولاستون أنه كان من المستحيل على الإمام علي عليه السلام أن يترك مثل هذا الحشد المرعب من الساخطين كتهديد قائم لسلطته وقوته، ولم يكن هناك أمامه خيارٌ إلا أن يجبرهم على الخضوع، فتقدم بجيش كبير عليهم، وقبل أن يبدأ بمهاجمتهم، غرس راية في الأرض^(٢) ونادى

(١) A. S. Tritton, Aslam, Belief and Practices, P. 69.

(٢) الراية التي ذكرها ولاستون قد أعطاها الإمام علي إلى أبي أيوب الأنصاري ليقدمها راية أمان للخوارج، فقال لهم:

«مَنْ جاء تحت هذه الراية فهو آمن، ومن لم يقتل ولم يستعرض، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك الدماء»، انظر، ابن الأثير، الكامل، مجلد ٣/٢٢١.

عليهم بصوت مدوٍ من يأتي تحت هذه الراية سوف يجني الريع، وأما من يريد أن يرجع إلى الكوفة فله الأمان، ويضيف ولاستون القول، وفعلاً نجحت «الخدعة» ولم يبق من المترددين سوى أربعة آلاف رجل هاجموا جيش الإمام علي عليه السلام فهزمهم وقتلهم جميعاً عدا تسعة أفراد، وفي هذه الموقعة التي حدثت في عام (٣٨هـ / ٦٥٨م) توحد العرب جميعهم تحت إمرة الإمام علي عليه السلام عدا سوريا ولمدة تزيد على سنتين^(١)، وفي هذه الظروف اجتمع مجموعة من الخوارج في مكة ليتدارسوا حال إمتهم ووطنهم وتوصلوا إلى أن مرض الأمة يكمن في الإمام علي عليه السلام ومعاوية وعمرو بن العاص، وأقسموا أن يخلصوا من مثل هذا الخلاف ويعيدوا للأمة الإسلامية السلام والوحدة وليس هناك أي طريق غير هذا، فتوزعوا فذهب الأول إلى الكوفة والثاني إلى دمشق والثالث إلى مصر، فنجا معاوية بعد إصابته بجرح خفيف وكذلك عمرو بن العاص بعد أن قتل نائبه في الصلاة، وتمكن عبد الرحمن بن ملجم من تحقيق هدفه بقتل الإمام علي عليه السلام^(٢).

ولم يوفق ولاستون في وصفه لكلام الإمام علي عليه السلام الذي وجهه للخوارج على أنه خدعة، فلو تحرينا نص الحديث لوجدنا أنه ينطوي على نصائح لهم بعدم الانزلاق في معصية الله.

فقد كلمهم الإمام علي عليه السلام بكلام طويل تضمن مواعظاً وتوضيحاً للحقائق، منه:

«...ألم تقولوا عند رفعهم المصاحف حيلة وغيلة، ومكر وخديعة: إخواننا وأهل دعوتنا، استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه، فالرأي القبول منهم والتنفيس عنهم؟ فقلت لكم: هذا أمر ظاهره إيمان وباطنه

Wollaston, Half Hours,P. 105.

(١)

Ibid,P. 105 - 106.

(٢)

عدوان، وأوله رحمة، وآخره ندامة، فاقيموا على شأنكم، والزموا طريقتكم، وعصّوا على الجهاد بنواجذكم، ولا تلتفتوا إلى ناعق نعق: إن أُجيب أضل، وإن ترك ذل...»^(١).

ويصف المستشرق (شبولر) الخوارج أنهم ذوو عقول تشبه بعض متطرفي أتباع الإمام علي عليه السلام من الشيعة، وكانوا يمثلون العمود الفقري لجيشه ولكنهم عندما رأوا - وهم الذين أجبروه على القبول بالتحكيم - إذعانه إلى تحكيم البشر الذي أُستُغفل به ولم يترك الحكم إلى الله، ويعنون بذلك (سيفه وسيوفهم)^(٢)، بدأ الانشقاق في حزب الإمام علي عليه السلام، وترك قسم من الجيش معسكره وسموا بالخوارج، الذين رفعوا شعار الخليفة المتقي دون التطرق إلى القومية أو النسب الاجتماعي، واختاروا أحدهم رئيساً لهم، وهذا الحزب الذي يمثل النقيض للاستقرارية العربية، بدأت أعداده تتزايد وكان مدعاة للقلق والاضطرابات، وهدد تنامي الإسلام وسلطة الدولة، فاستطاع الإمام علي عليه السلام القضاء عليهم في معركة النهروان بتاريخ ١٧ تموز عام ٦٥٨م (٣٨هـ)، ولكنه لم يستطع أن يستأصل شأفتهم^(٣).

أما المستشرق (نولدكه) فيبدو أنه كان مُعجباً بأفكار الخوارج، فأشار إلى أن الصراع الذي حدث بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية أدى إلى الفوضى ونشأ حزب راديكالي متطرف يؤمن بحق الجميع بالقيادة على أن يتم اختيار الأفضل من بينهم، هؤلاء الأشخاص هم الذين يسمون بالخوارج، وحسب رأي (نولدكه) يحملون في الحقيقة جوهر فكرة الإسلام وقد طوروها إلى أقصى حدٍّ ممكن وكانت لهم آراء سليمة في الأحقية بـ (الخلافة)، إلا أن هكذا مبادئ كان من المستحيل أن تُكوّن

(١) نهج البلاغة، الخطبة/١٢٢.

(٢) Spuler, Geschichte Der Islamischen Länder, P. 37 - 38.

(٣) Spuler, Geschichte Der Islamischen Länder, P. 38.

دولة خصوصاً في الشرق، وكانوا من التطرف بمكان بحيث إنهم نشروا أفكارهم بعنف وحشي وشجاعة فائقة وحافظوا على الولاء للقنعة بشكل لافت للنظر، إلا أنهم سببوا معاناة كثيرة من دون أن يتنجوا شيئاً^(١).

ويضيف نولدكة القول، إن المجادلة حول الخلافة لم تجد أية أرضية صلبة لكنها استمرت لتمزيق عالم النبي محمد ﷺ، والتأريخ غني بهذا الموضوع لكنه ملون حسب آراء الفقهاء^(٢).

وتصف المستشرقة (فاجلييري) موقف الخوارج إنهم كانوا يرون ضرورة أن يستمر الإمام علي عليه السلام بمقاتلة معاوية، حيث لم تحدث أي حقيقة لتغيير مجرى القتال، وخلال عودة الإمام علي عليه السلام إلى الكوفة قام الأفراد الذين نطقوا بعبارة (لا حكم إلا لله، - ولهذا السبب يدعون بالمحكمة -) بإقناع العديد من أنصار الإمام علي عليه السلام أن التحكيم كان خطيئة تجاه الله، عن طريق استبدال حكم الله بحكم الرجال، وبعد قيام الخليفة بزيارة شخصية لهم استطاع أن يصلح بين المنشقين عن طريق تقديم بعض التنازلات لهم، فأعلن مجموعة مكونة من بضعة آلاف توبتها في حروراء قرب الكوفة وهم الذين دعوا بالحروريين، وعلى أية حال والكلام لـ (فاجلييري) وبعد عودة الإمام علي عليه السلام إلى الكوفة، أنكر من على المنبر التقارير التي تزعم أن لديه النية في خرق اتفاقية (صفين)، عندما علم أنه أرسل أبا موسى للقاء عمرو، فقامت مجموعة من الخوارج يتراوح عددها ما بين (ثلاثة آلاف ٣٠٠٠) أو (أربعة آلاف ٤٠٠٠)، بمغادرة الكوفة بالخفاء والتحق بهم بضعة مئات من البصرة، وقد اختار هؤلاء الخوارج نقطة التجمع لهم وهي النهروان^(٣). ولم توضح فاجلييري أحداث هذه المعركة ونتائجها.

Noldeke, Sketches from Eastern History, P. 80.

(١)

Ibid, P. 80.

(٢)

Vaglieri, the Encyclopedia of Islam, P. 384.

(٣)

ويذكر المستشرق (دونلدسن) جانباً من معركة (النهروان) يوضح فيه أن جماعة الخوارج انشقوا عن الإمام علي عليه السلام وقالوا لا حكم إلا لله وعسكروا في حروراء وبذلك سمو بالحروريين فبعث إليهم عبد الله بن عباس فحاججهم فرجع منهم قوم كثيرون وثبت آخرون على رأيهم وساروا إلى النهروان وقتلوا في طريقهم عبد الله بن خباب، فسار إليهم الإمام علي عليه السلام فقتلهم بالنهروان وذلك سنة ثمان وثلاثين ثم انصرف إلى الكوفة^(١).

ويُبيدي (دونلدسن) رأيه في هذا الموضوع بقوله:

«إن علياً الذي كانوا يأملون أن يكون المطالب بحقهم والمدعي عنهم ظهر إنه عدوهم الألد وأصبح أمر المقاومة المسلحة أمراً غير ممكن فقد كان انكسارهم حاسماً، ولكنهم كانوا يعرفون من هو المسؤول عن قتل آبائهم وإخوتهم فلما نظروا ما تم من أمر الدولة الإسلامية التي مزقتها الحروب الداخلية أخذوا ينظرون بعين الحقد إلى الطموح الشخصي للرجال الذين أصبحوا يعتقدون أنهم هم حجر العثرة في سبيل الوحدة الوطنية^(٢).

ويتناول المستشرق (فلهوزن) تمرد الخوارج بشيء من التفصيل، فيذكر أنهم وفي أثناء عودتهم من معركة صفين متوجهين إلى العراق، لام بعضهم بعضاً ولاموا الإمام علياً عليه السلام أيضاً، وإن كان لم يوقف المعركة إلا اضطراراً. فلما دخل الكوفة خرج عليه اثنتا عشر ألف رجل، واتخذوا من (حروراء) مقراً لتجمعهم، فسُموا بالخوارج أو الحرورية، وكانوا محتجين على التحكيم وقالوا: «لا حكم إلا لله»، أما رؤسائهم فهم شبت بن ربعي الرياحي وعبد الله بن الكواء اليشكري ويزيد بن قيس

(١) عقيدة الشيعة، ص ٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٤، ٥٥.

الأرحبي، وهم أكبر رجال تميم وبكر وهمدان، واستطاع الإمام علي عليه السلام أن يُقنع بعض هؤلاء بالعودة إلى جانبه، وبذلك عاد الحرورية إلى الكوفة لينضموا إلى جيش الإمام علي عليه السلام، وزعم هؤلاء إنه وعدهم بالعودة لمقاتلة معاوية بن أبي سفيان بالسرعة الممكنة، وعندما لم يتم ذلك، عدوه خرقاً للاتفاق فخرجوا عليه من جديد وعينوا منهم خليفة عليهم استقلوا به عن الإمام علي عليه السلام، وهو عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي، وبايعوه في اليوم العاشر من شوال عام (٣٧هـ) المصادف ٢١ آذار سنة ٦٥٨م، ثم خرجوا من الكوفة فرادى مستخفين واجتمعوا في النهروان على جانب نهر دجلة، وعرضوا أمرهم على خوارج البصرة الذين يصل عددهم إلى خمسمائة رجل لينضموا إليهم^(١).

ويواصل فلهوزن حديثه فيذكر أن الإمام علياً عليه السلام قد جمع جيشه في معسكر قرب النخيلة، ودعا الخوارج للانضمام إليه، لكنهم رفضوا ذلك وطالبوه أن يشهد على نفسه بالكفر لقبوله التحكيم، ويتوب إلى ربه، فحاول أن يتركهم ويمضي لقتال أهل الشام، ولكن جيشه ألح عليه أن يقاتل الخوارج، لأن خوارج البصرة وفي أثناء توجههم إلى النهروان، قتلوا عبد الله بن خباب بن الأرت، ابن أحد السابقين الأولين من الصحابة وبقروا بطن زوجته، وقتلوا آخرين واعترضوا الناس، فاضطر الإمام علي أن يستجيب لرغبة أتباعه، بعد أن حاول إقناع الخوارج بأن يدفعوا إليه القتلة^(٢) ويبين لهم بأنه وإياهم في الحقيقة غير مختلفين، وإنما يريد أن يحمل السيف حكماً بينه وبين أهل الشام إعدائه وأعدائهم، فأجابوه:

«لو بايعناكم اليوم حكمتكم غداً»، وكان قصدهم أن الإمام علياً عليه السلام

(١) فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ص ٧٨، ٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٩.

وشيعته سيفعلون ما فعلوه في صفين من قبول التحكيم، ولم يقبل الخوارج بأي شيء وتهيأوا للقتال، فتنادوا: الرواح الرواح إلى الجنة^(١).

وينقل فلهوزن رواية أبي مخنف التي يحدد فيها تاريخ موقعة النهروان في عام ٣٧هـ، ويذكر أيضاً إن قادة الخوارج الثلاث الذين أشار إليهم آنفاً قد تركوا أتباعهم، ولم يكن الخوارج في الكثرة التي كانوا عليها في حروراء، ولم يبق منهم سوى أربعة آلاف، رجعت طائفة منهم متفرقين، فنزلت الكوفة، وقتل الباقون باستثناء ثمانية أشخاص تمكنوا من الهرب^(٢).

ويُثبت فلهوزن بعد الرجوع إلى اليعقوبي وابن الأثير والدينوري عدم ثقة كلام أبي مخنف فيما يتعلق بتاريخ معركة النهروان، ويذكر وبالاعتماد على كتاب أنساب الأشراف للبلاذري أن التاريخ الأكثر دقة هو يوم (٩ صفر) سنة ٣٨هـ الموافق (١٧ حزيران ٦٥٨م)^(٣).

ومما تجدر الإشارة إليه أن فلهوزن قد فصل كثيراً في الحروب التي خاضها الإمام علي ضد الناكثين والقاسطين والمارقين، مما دفع الباحث إلى اختصار ما ذكره ما أمكن اختصاره كون الأحداث التي ذكرها موجوده في مصادرنا التاريخية، ولكن تقييماً لما ذكره فلهوزن هو أنه كان محلاً أكثر منه ناقلاً للأحداث وقارن بين عدة مصادر في إيراده للحوادث التاريخية.

وخصص المستشرق فلهوزن كتاباً أفرده لدراسة أحوال الخوارج والأسباب التي دعتهم للخروج على الإمام علي عليه السلام، إذ قال عنهم:

(١) فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ص ٨٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٣) فلهوزن، تاريخ، ص ٨٦؛ وانظر، البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/٢٥٥؛ بينما يذكر اليعقوبي في تاريخه، ٢/٩٣، بأن معركة النهروان قد حدثت في سنة (٣٩هـ)، لكن ابن الأثير في كامله، ٣/٢٤٢، يتفق مع البلاذري في السنة التي حدثت فيها المعركة وهي سنة (٣٨هـ). ويختلف معه فقط في الشهر، إذ يذكر بأنها حدثت في شهر رمضان.

«وقد يرى المرء من العار أن يأخذ الخوارج على علي هذا الموقف لأنهم هم الذين دفعوه إلى اتّخاذهم ثم طلبوا من بعده بالنكوص عنه، وهو أمر لم يكن له وهو الحاكم أن يفعله فيتنكر لما سبق إن وافق عليه. لكن ذلك لم يكن من الناحية المنطقية تناقضاً ذلك أن علياً - إن طوعاً وإن كرهاً - قد عقد ميثاقاً مع الشيطان «أعني مع معاوية» ولم يشأ نقض هذا الميثاق»^(١).

ويصف فلهوزن الخوارج إنهم كانوا حزباً ثورياً صريحاً يعتصم بالتقوى، وعارض الرأي الذي يقول بأنهم نشأوا نتيجة العصبية القبلية وإنما كانت نشأتهم إسلامية، وإنهم كانوا يجاهدون في سبيل الله وحده سبحانه وتعالى^(٢). والأكثر من ذلك فقد رفعهم فلهوزن إلى أعلى درجات التقوى، وأنهم وقفوا في صف الدين بكل قوة، وفي فهمهم لمضمون الدين يختلفون عن سائر الناس، ويتميزون عن غيرهم بشدتهم في تقديم الدين على أي اعتبار آخر، فلا دولة على حساب الدين في رأيهم، وهم لا يحسبون أنهم بهذا يمزقون شمل الجماعة، ويفتخرون بقتل الخليفة عثمان، ويرون أن الإقرار بهذا العمل هو بمثابة شهادة، ويمتحنون كل من يشكون فيه من أنصارهم في هذه المسألة امتحاناً عسيراً، ويستحلون دماء خصومهم المسلمين، ولم يعد جهادهم ضد الكفار، بل ضد أهل السنة والجماعة من عامة المسلمين، إذ كانوا يرون في هؤلاء كفاراً، بل أشدّ كفراً من اليهود والنصارى والمجوس^(٣).

ويضيف فلهوزن القول إن مذهب الخوارج مذهب سياسي، غايته تقرير الأمور العامة على وفق أوامر الله ونواهيها، بيد أن سياستهم ليست موجهة نحو أهداف يمكن تحقيقها، فضلاً عن أنها منافية للمدنية^(٤).

(١) الخوارج والشيعه، ص ٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٢ - ٤٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٥.

ويبدو موقف فلهوزن من الخوارج أكثر وضوحاً من خلال قوله عنهم:

«فالواقع إذن أن الخوارج ذوو نزعة فردية مغالية من نوع خاص تماماً. بالرغم من أن العلامة المميزة لهم كل التمييز هي الترجمة عن إيمانهم بالأفعال وامتشاق السيف في سبيل إقرارها كلما اجتمع اثنان من رأي واحد، فإنهم مع ذلك قد شاركوا في وضع الزندقة النظرية أعني علم الكلام. فقد كانوا يسألون عن مسائل تتجاوز نطاق الموروث من العقائد ويجادلون خصومهم بشأنها، فلم يتنكروا أبداً لأصلهم وهم القراء. ولاشك في أن الطبقة الأولى من علماء الكلام في الإسلام قد تأثروا بالخوارج»^(١).

ولم يغفل المستشرق (ميور) حرب الإمام علي عليه السلام ضد الخوارج، فيشير إلى أن الإمام علياً عليه السلام حاول تجديد الحرب ضد معاوية بعد معركة صفين وإجراء التحكيم، ولكن قبل ذلك كان ينتظره عمل آخر يجب أن يؤديه قبل التعامل مع عدوه فمنذ انصرفهم من حروراء وبدلاً أن يهدأوا وينخرطوا في الطاعة والسلام مع الإمام علي عليه السلام، ازداد الخوارج عدوانية وتمرداً، وكان شعارهم عدم مبايعة أحد غير الله الجبار المجيد، والمبايعة للإمام علي عليه السلام أو معاوية هما إساءة إلى الاسم العظيم، وعبروا عن عقيدتهم تلك بعبارة قصيرة هي (لا حكم إلا لله)، وعبثاً جادلهم الإمام علي عليه السلام من أن التحكيم قد أجبروه هم عليه بأنفسهم، ولكنهم أجابوه وقالوا:

«حقاً، لكننا تبرأنا من تلك الزلّة، وعليك أنت أن تتبرأ أو سنقاتل ضدك وحتى لو قتلنا فيسرنا أن نلاقي ربنا»^(٢).

ويضيف (ميور)، أن الإمام علياً عليه السلام كان حريصاً على كسبهم

(١) الخوارج والشيعه، ص ٤٦ - ٤٧.

Muir, the Caliphate, P. 287.

(٢)

وأصغى إلى حديثهم بأناة، وتحلى بالصبر عند التعامل معهم، وأشار إلى أنهم أحرار بدخول المساجد للصلاة، وسيأخذون حصتهم من الغنائم في حالة دخولهم الحرب إلى جانبه، وأن لا يستعمل ضدهم القوة في حالة إحجامهم عن المشاركة في أي عمل مُعلن، وبدلاً من أن يؤدي هذا العرض إلى اعتدال الخوارج ورجوعهم إلى الطريق السوي، زادهم تطرفاً وقرروا فوراً أن يرفعوا «الراية الإلهية»، وكانوا ينظرون إلى تدخل سماوي حتى وإن هلكوا فإن قضيتهم الصالحة يجب أن تنتصر في النهاية، وبعد شهرين من التحكيم بدؤوا بالاتفاق مع متعاطفين معهم من البصرة وأمروهم بمغادرة منازلهم خلسة، وبلغ عدد المتآمرين من البصرة خمسمائة متطرف تمكنوا من الهرب رغم مطاردة عامل البصرة لهم، والتحقوا بجماعتهم الذين غادروا الكوفة، وأقنعوا أحدهم أن يتولى قيادتهم وتجمعوا في النهروان، وبلغ عددهم أربعة آلاف متطرف، ولم يدرك الإمام علي عليه السلام المغزى الخطر لهذه الحركة، وكان يأمل منهم الانخراط مع إخوانهم الزاحفين إلى قتال جماعة معاوية^(١).

ويذكر (ميور) بعد ذلك أن الإمام علياً عليه السلام قد خطب في أهل الكوفة وأدان التحكيم والحكمين ووصفها بأنهما قد جعلتا كتاب الله وسنة نبيه خلف ظهورهم، وحثهم على العودة إلى النصر الذي أجبروا على تركه، وعليهم الاستعداد مجدداً للزحف باتجاه سوريا، ثم كتب رسالة إلى الخياليين (الخوارج) في النهروان دعاهم فيها إلى الالتحاق بجيشه الزاحف ضد عدوهم المشترك وعليهم العودة إلى زمان صفين حيث كانوا يقاتلون إلى جانبه، لكنهم ردوا عليه برسالة يطلبون منه الإقرار بأنه كان مرتدداً وعليه التوبة، وعند ذلك سوف ينظرون في الأمر فيما بينهم^(٢)، ويضيف (ميور)، إن الإمام علياً عليه السلام حاول أن يتركهم وشأنهم لحين

Ibid, P. 288.

(١)

Ibid, P. 288 - 289.

(٢)

العودة من قتال معاوية، وجمع جيشاً يقدر بـ (ستين ألفاً) من البصرة والتحق بهم ثلاثة آلاف من مناطق أخرى، وبهذه القوة الجبّارة كان الإمام علي عليه السلام مستعداً للزحف إلى سوريا، إلا أن هناك أنباءً قد وصلته تفيد بأن الخوارج قد عاثوا في الأرض فساداً خارج مخيمه، فطلب جيشه منه مقاتلتهم، ولا يمكن ترك هؤلاء المجرمين خلفهم خوفاً أن تبقى بيوتهم عرضة لوحشيتهم، فاقتنع الإمام علي عليه السلام بذلك وغير مسار جيشه وعبر دجلة، وتحرك صوب الخوارج، وعند وصوله قرب النهروان، أرسل لهم رسولاً يطلب منهم تسليم المسؤولين عن الخراب والقتل الذي أحدثوه لينالوا جزاءهم العادل، فقال لهم:

«سلمونا هؤلاء للعدالة وسوف تتركون حتى يكتب الله لنا النصر في سوريا وبعدها عسى أن يميل قلوبكم لنا من جديد»، فأجابوه بأنهم مسؤولون جميعاً عن ما مضى، وإن سفك دماء الضالين الكافرين عدل^(١).

حاول الإمام علي عليه السلام مجادلتهم عارضاً عليهم الرحمة لمن التحق بصفوف جيشه، أو عاد إلى بيته بسلام، فاستجاب بعضهم للنداء، وتفرقت جماعة منهم إلى بلاد فارس المجاورة، وبقي ألف وثمانمائة في الميدان، ويقول (ميور) بصدهم: «وبصرخة قتال وحشية «إلى الجنة» اندفعوا على رماح جيش علي وقتلوا. لقد كان أفضل لسلام الإسلام ألا ينجو من الأربعة آلاف أحد، فقد جرح الأفعى ولكن لم تُقتل، وروح الخيالية (الخوارج) انتشرت بالعدوى وقضية الثيوقراطية استمرت بالاتساع بنشاط في الكوفة والبصرة رغم سربتها، وفي السنين اللاحقة أخذت عصابات من الخوارج المتمردين يظهرون بين الفينة والأخرى فجأة في الميدان مدينين علماً ومعلنين إن ملك الله قريب، فيقتل الواحد بعد الآخر أو يهرب»^(٢).

Muir, the Caliphate, P. 289 - 290.

(١)

Ibid, P. 290.

(٢)

وينهي (ميور) كلامه عن الخوارج بقوله:

«استمرت هذه التعرضات تزعج علياً وقوته الذي أخذ يجني ثمار ضعف تسويته مع أعداء عثمان وإهماله في تقديمهم للعدالة، وكان الخياليون (الخوارج) مخلصين بعقيدتهم إلى درجة أنهم لم يتصلوا بأي حزب آخر ولم يتركوا أي هدف لعقيدتهم وراء ظهورهم ونحن نجدهم الآن ولاحقاً [في وقت المعركة التي يتحدث عنها ميور وعن من تبقى من الخوارج في العصور اللاحقة] يهاجمون الإمبراطورية بعنف خطير إلا أنهم غالباً ما يُهزمون»^(١).

وخلاصة الآراء بشأن معتقدات الخوارج وعوامل تمردهم على الإمام علي عليه السلام فقد اختلف المؤرخون عربياً أو غربيين اختلافاً واضحاً بهذا الشأن، فتعددت الأسباب عند بعضهم ما بين الجوانب السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية إضافة إلى السبب الرئيس في المشكلة المتمثل بحادثة التحكيم.

ويفسر بعض الدارسين ظهور الخوارج على أساس قبلي بحت، وحنة هؤلاء الدارسين أن الخوارج كانوا من البدو الذين تعريهم العصبية القبيلة وعشق الحرية ورفض السلطة السياسية، ومن ثم فإن لديهم رغبة في العودة إلى تقاليدهم الأولى القائمة على الفطرة بعد أن فقدوا الثقة في الخلافة القرشية^(٢).

Ibid, P. 290, 291.

(١)

Lewis, some observation on the significance of heresy in the history of Islam, (٢) Studia Islamic, vol. 1, p. 47.

نقلاً عن بحث للدكتور محمود إسماعيل بعنوان (علي بن أبي طالب والخوارج) في كتاب علي بن أبي طالب نظرة عصرية جديدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت - ١٩٧٤م) ص ١٣٣؛ أبو زهرة، محمد أحمد، المذاهب الإسلامية، المطبعة النموذجية، (القاهرة - دزت)، ص ١٠٣، ١٠٤؛ أبو النصر، عمر، الخوارج في الإسلام، منشورات مكتبة المعارف، (بيروت - ١٩٥٦م)، ص ١٨.

ويذكر باحث آخر بأن أول موقف خطير تجلت فيه العصبية الجاهلية وأسهم في تعزيز أمر الخوارج فيما بعد، كان موقف الأشعث بن قيس، إذ اعترض على ترشيح الإمام علي عليه السلام لعبد الله بن عباس ليكون ممثله في التحكيم^(١)، فقال الأشعث:

«لا والله، لا يحكم فيها مُضريان حتى تقوم الساعة»^(٢).

ويصف باحث آخر موقف الخوارج على أنهم لم يرفضوا نظام الدولة السياسي قط وإنما كان هدفهم إقامة دولة على أساس ديمقراطي، وبذلك كانوا (جمهوريو الإسلام) بلا مدافع على حدّ تعبير هذا الباحث^(٣).

إن الاعجاب بالخوارج لم يقتصر على المستشرقين فحسب بل إن بعض المؤرخين العرب قد تأثر بأفكارهم أو أن اعجابهم كان تلقائياً لما رأوه في ظاهر شعارات ومعتقدات الخوارج.

فالباحث حسن إبراهيم حسن يرى أنهم يمثلون الديمقراطية الإسلامية^(٤).

وحاول الدكتور محسن باقر القزويني الرد على ما ذهب إليه حسن إبراهيم حسن وكل من يشاطره هذا الرأي، بقوله:

«لا ندري سبب انبهارهم بالخوارج إلا أنهم يشكلون فئة معارضة أم لأنهم عارضوا الإمام علياً؟، من جانب آخر نسأل الأستاذ حسن هل وجد في التاريخ ما يشير ولو بقدر أظفر إن الخوارج ديمقراطيون، فهل كان

(١) معروف، الخوارج، ص ٥٩.

(٢) المتقري، وقعة صفين، ص ٥٠٠؛ المسعودي، مروج الذهب، ٤٠٢/٢.

(٣) Smith K the Ibadites. Moslem World, Vol, 12, P. 284,

نقلاً عن كتاب علي بن أبي طالب نظرة عصرية جديدة، ص ١٣٣.

(٤) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ٣٠٧/١.

جوابهم لعبد الله بن خباب عندما قتلوه هو وزوجته وقتلوا جنينها في رحمها عندما شموا منه رائحة الولاء لعلي، هل كان عملهم هذا ديمقراطياً^(١).

إن فكرة الدولة عند الخوارج على رأي أحد الباحثين لم تتأثر بالنمط البدوي في الديمقراطية بقدر ارتكازها بالدرجة الأولى على مفهوم العدالة في الإسلام، وإنهم يمثلون «الفئة المؤمنة» الحريصة على الالتزام بالكتاب والسنة دون تأويل أو موارد^(٢).

وباعتقادنا أن صفة الإيمان التي أطلقها هذا الباحث على الخوارج لا تنطبق عليهم لأنهم قد أحلوا دماء المسلمين قبل الكفار، من دون أن يرتكب ضحاياهم إثماً سوى ولائهم للحق أو قولهم كلاماً منصفاً بحق الإمام علي عليه السلام. وقد حرّم الرسول الكريم ﷺ على المسلمين دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

(١) علي بن أبي طالب رجل المعارضة والدولة، دار العلوم، (بيروت . ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م)، ص ٣٤٢.

(٢) إسماعيل، محمود (الدكتور)، علي بن أبي طالب والخوارج، بحث ضمن كتاب علي بن أبي طالب نظرة عصرية جديدة، ص ١٣٣.

الخاتمة

بعد إتمام البحث بعون الله سبحانه وتعالى تمكن الباحث من الخروج بنتائج عدة نذكر منها الآتي:

اتّسمت أغلب الدراسات الاستشراقية التي تناولت السيرة النبوية الشريفة بالتحامل المبني على أسس مخطوءة، بعضها مستمد من الخلفيات الفكرية لأصحابها فتكون بذلك أحكامها متحاملة وقاسية، والبعض الآخر ناتجة عن جهل بالحقائق التاريخية فتعتمد على كل ما تردد من شبهات في بعض المصادر الإسلامية التي تجانب الحقائق، فتُصدر أحكاماً غير منصفة ومتحاملة.

كان أغلب المستشرقين المتحاملين أحاديي النظرة والسبب في ذلك اعتمادهم على منهل واحد في إيرادهم للأحداث التاريخية المتعلقة بطرف معين دون الأخذ بما ورد من أخبار في مؤلفات الطرف الآخر المعني بهذه الحادثة، أو استعمال المنهج النقلي وليس العقلي.

لم تتوقف حملة التشويه عند الرسول محمد ﷺ بل استمرت حتى مع أهل بيته ﷺ.

استطاع بعض المستشرقين وهم كُثُر من الظهور بمظهر المنصفين أو العادلين لاتباعهم منهج البحث العلمي في دراستهم للتاريخ الإسلامي.

على الرغم من حرص بعض المستشرقين على الظهور بمظهر الإنصاف للإمام علي عليه السلام، نجد أن ظاهرة الشك هي السائدة في كتاباتهم

حول الإمام علي عليه السلام ولا سيما فيما يتعلق بموقفه من مقتل الخليفة عثمان بن عفان.

اقتفى أغلب المستشرقين أثر بعض المؤرخين المسلمين بالتأكيد على أن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله لم يستخلف أحداً قبل وفاته.

شخص بعض من المستشرقين الباحثين الأسباب الحقيقية التي أدت إلى استبعاد الإمام علي عليه السلام عن الخلافة بعد الرسول مباشرة وكذلك بعد وفاة الخليفين أبي بكر وعمر.

تعامل أغلب المستشرقين مع الأسباب الظاهرة في حرب الإمام علي عليه السلام ضد السيدة عائشة وطلحة والزبير في معركة الجمل دون تشخيص للأسباب الحقيقية.

يكاد يتفق المستشرقون ويتبعهم بعض المؤرخين العرب على أن الإمام علياً عليه السلام لم يستعمل في إدارته للدولة المرونة السياسية التي كان عليها معاوية بن أبي سفيان لذلك يرون أن ذلك هو السبب في عدم نجاحه في الصراع مع معاوية. في حين أن الذي كان عليه معاوية هو ليس مرونة سياسية وإنما المكر والخداع وشراء الذمم مقابل الحصول على كرسي الخلافة.

يعتقد أغلب المستشرقين أن الإمام علياً عليه السلام هو ثاني من أسلم بعد زوج الرسول محمد صلى الله عليه وآله السيدة خديجة اعتماداً على ما تناقله المؤرخون المسلمون.

أشاد المستشرقون بشجاعة الإمام علي عليه السلام في المعارك التي خاضها سواء كانت في بداية نشر الإسلام وخاصة إلى جانب الرسول محمد صلى الله عليه وآله أو في أثناء حروبه ضد الناكثين والقاسطين والمارقين في خلافته.

وأهم نتيجة باعتقاد الباحث حول مواقف المستشرقين من الإمام علي عليه السلام أنهم لم يضيفوا إليه شيئاً ولم يستطيعوا أن ينالوا منه بشيء، فهو رمز التدين والبطولة والوقوف بوجه دعاة الباطل.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر الأولية:

- خير ما يُبتدأ به هو القرآن الكريم.
- نهج البلاغة، من كلام لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.
- ابن الأثير، عز الدين (٦٣٠هـ/١٢٣٢م).
- الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، ط٤ (بيروت - ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
- ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار (١٥١هـ/٧٦٨م).
- سيرة ابن إسحاق، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، (بيروت - ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م).
- الأمدي، أبو الحسن علي بن محمد بن سالم التغلبي (ت ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م).
- غاية المرام في علم الكلام، تحقيق مزيد المزيدي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م).
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م).
- صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، (بيروت - ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).
- البلاذري، أبو جعفر أحمد بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م).

- أنساب الأشراف، تحقيق محمود الفردوس العظم، دار اليقظة العربية، (دمشق - ١٩٩٧م).
- كتاب جمل من أنساب الأشراف، تحقيق الدكتور سهيل زكار والدكتور رياض زركلي، دار الفكر، (بيروت - ١٤١٧هـ/١٩٩٦م).
- البلخي، سليمان بن إبراهيم الحسيني القندوزي (ت ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م).
- ينابيع المودة، تحقيق علاء الدين الأعلمي، (بيروت - ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م).
- السنن الكبرى، دائرة المعارف النظامية، (الهند - ١٣٤٤هـ).
- التبريزي، محمد بن عبد الله الخطيب (ت ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م).
- شرح مشكاة المصابيح، تحقيق الشيخ جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٤٢٢هـ).
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (ت ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م).
- سنن الترمذي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت - ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م).
- صفة الصفوة، تحقيق إبراهيم رمضان وسعيد اللحام، دار الكتب العلمية ط ٤ (بيروت - ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).
- ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد بن هبة الله محمد بن محمد المدائني (ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م).
- شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، (بيروت - ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).
- الحاكم الحسكاني، عبد الله بن عبد الله بن أحمد (من أعلام القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي).

- شواهد التنزيل بقواعد التفضيل، تحقيق محمد باقر المحمودي، مؤسسة الأعلمي، (بيروت - ١٩٩٣م).
- الحراني، أبو محمد الحسن بن علي (ت القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي).
- تحف العقول عن آل الرسول، تحقيق حسين الأعلمي، منشورات مؤسسة الشريف الرضي، مطبعة شريعت (قم - ١٤٢١هـ).
- الحلبي، علي بن برهان (ت ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م).
- السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمأمون، دار المعرفة، (بيروت - ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).
- ابن حنبل، أحمد (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م).
- فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، تحقيق حسن حميد السنيد، المجمع العالمي لأهل البيت، مطبعة ليلي، (قم - ١٤٢٥هـ).
- المسند، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م).
- المقدمة، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٤١٣هـ).
- ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م).
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور علي طويل، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٤١٦هـ).
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م).
- سير أعلام النبلاء، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م).

- المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة للطباعة، (بيروت - د. ت).
- سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر بن فرغلي (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م).
- تذكرة الخواص، منشورات مؤسسة الشريف الرضي، (قم - ١٤١٨هـ).
- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠هـ/ ٩٤١م).
- الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، (بيروت - ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).
- السيوطي، جلال الدين (٩١١هـ/ ١٥٠٥م).
- الدر المنثور في التفسير المأثور، دار الفكر، (بيروت - ١٤٠٣هـ).
- ابن أبي شيبه، أبو بكر عبد الله (٢٣٥هـ/ ٨٤٩م).
- المصنف في الأحاديث والأخبار، الدار السلفية، بومباي، (الهند - ١٤٠٢هـ).
- الشيخ المفيد، محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م).
- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، مؤسسة أهل البيت، (قم - ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م).
- الإفصاح في إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام، دار المنتظر، ط ٢ (بيروت - ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).
- الأمالي، المطبعة الحيدرية (النجف - ١٣٨٠هـ/ ١٩١٦م).
- الجمل - النصر لسيد العترة في حرب البصرة - ، تحقيق علي مير، ط ٢ (قم - ١٤١٦هـ).
- ابن الصباغ، علي بن محمد بن أحمد المالكي (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م).
- الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة عليهم السلام، المطبعة الحيدرية، ط ٣ (النجف - ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م).

- الصدوق، أبو جعفر محمد علي بن الحسين (ت ٣٨١هـ/ ٩٩١م).
- عيون أخبار الرضا، تحقيق الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي (بيروت - ١٩٨٤م).
- معاني الأخبار، تحقيق علي أكبر الغفاري، دار المعرفة للطباعة، (بيروت - ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).
- طاش كبري زاده، أحمد بن مصطفى (ت ٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م).
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار الكتب العلمية، ط ٢ (بيروت - ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م).
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م).
- المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد، ط ٢ (الموصل - ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).
- الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م).
- أعلام الوري بأعلام الهدى، المكتبة الحيدرية، ط ٣ (النجف - ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م).
- الطبري، محب الدين (ت ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م).
- الرياض النضرة في مناقب العشرة المبشرين بالجنة، (القاهرة - ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م).
- الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م).
- تأريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد بو الفضل إبراهيم، دار المعارف، (مصر - د. ت).
- الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسين (ت ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م).
- التبيان في تفسير القرآن، تصحيح وترتيب أحمد شوقي الأمين، المطبعة العلمية، (النجف - ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م).
- تلخيص الشافي، مراجعة السيد حسين بحر العلوم، مطبعة الآداب، (النجف - ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م).

- الرسائل العشرة، مؤسسة النشر الإسلامي، جامعة المدرسين (قم - ١٤٠٣هـ).
- ابن العربي، أبو بكر (ت ٤٥٣هـ / ١٠٦١م).
- العواصم من القواسم في تحقيق مواقف الصحابة بعد النبي ﷺ، تحقيق محب الدين الخطيب، المكتبة العلمية، (بيروت - ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م).
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين الشافعي (٥٧٣هـ / ١١٧٧م).
- ترجمة الإمام علي من تاريخ دمشق، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي، ط ٢ (بيروت - ١٣١٨هـ).
- العسقلاني، الحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م).
- الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتاب العربي، (بيروت - د. ت).
- تهذيب التهذيب، تحقيق صدقي جميل العطار، دار الفكر، (بيروت - ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م).
- الغزالي، أبو حامد (ت ٥٠٥هـ / ١١١١م).
- الاقتصاد في الاعتقاد، تحقيق الدكتور علي بو ملح، دار الهلال، (بيروت - ٢٠٠٢م).
- الفخر الرازي، أبو عبد محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م).
- التفسير الكبير، (طهران - د. ت).
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ / ٧٩١م).
- العَيْن، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي، مؤسسة دار الهجرة، مطبعة الصدر، (قم - ١٤١٠هـ).
- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م).

- القاموس المحيط، دار الجيل، (بيروت - د. ت).
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م).
- الإمامة والسياسة، تحقيق علي شري، (بيروت - ١٩٩٠م).
- القشيري النيسابوري، أبو الحسن مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م).
- صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، (بيروت - ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).
- القمي، أبو الحسن علي بن إبراهيم (من اعلام القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي).
- تفسير القمي، (بيروت - ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م).
- ابن كثير، إسماعيل، (٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م).
- البداية والنهاية، تحقيق الدكتور أحمد بو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، (بيروت - د. ت).
- تفسير القرآن الكريم، دار المعرفة، (بيروت - ١٤٠٦هـ).
- الكنجي، أبو عبد الله محمد بن يوسف (قتل ٦٥٨هـ/ ١٢٥٨م).
- كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام، ط ٣ (بيروت - ١٤٠٣هـ).
- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م).
- سنن ابن ماجه، دار إحياء التراث العربي، (بيروت - ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م).
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، (بيروت - د. ت).

- المتقي الهندي، علي بن حسام الدين (ت ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م).
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية، ط ٢ (بيروت - ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م).
- المجلسي، محمد باقر (ت ١١١١هـ/ ١٦٩٩م).
- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء (بيروت - ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).
- أبو مخنف، لوط بن يحيى الأزدي الكوفي (ت ١٥٨هـ/ ٧٧٤م).
- وقعة الطف، تحقيق الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي، مؤسسة النشر الإسلامي، ط ٣ (قم - ١٤١٧هـ).
- المرتضى، الشريف، أبو طالب علي بن الحسين (ت ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م).
- الشافي في الإمامة، مؤسسة الصادق، (طهران د. ت).
- ابن مزاحم المنقري، نصر (ت ٢١٢هـ/ ٨٢٧م).
- وقعة صفين، تحقيق عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة، ط ٣ (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).
- المزي، جمال الدين أبو الحجاج يوسف.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف (بيروت - ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م).
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م).
- التنبيه والأشراف، مراجعة عبد الله الصاوي، دار الصاوي للطبع والنشر، (القاهرة - د. ت).
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق يوسف البقاعي، (بيروت - د. ت).
- المغازلي، أبو الحسن علي بن محمد الشافعي (ت ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م).

- مناقب الإمام علي بن أبي طالب، دار الأضواء، ط ٣ (بيروت - ١٤٠٣هـ).
- المقرم، عبد الرزاق الموسوي.
- مقتل الحسين عليه السلام، مطبعة الآداب، ط ٤ (النجف - ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).
- المقريري، تقي الدين بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م).
- إمتاع الأسماع بما للنبي صلى الله عليه وآله من الأموال والأحوال والحفدة والمتاع، تحقيق محمد عبد الحسين النميسي، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٠م).
- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م).
- لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، (بيروت - ٢٠٠٥م).
- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ/ ٩١٥م).
- تهذيب خصائص أمير المؤمنين عليه السلام، دار الكتب العلمية، (بيروت - د. ت).
- أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م).
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط ٣ (بيروت - ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).
- النووي، أبو زكريا محيي الدين (ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م).
- تهذيب الأسماء واللغات، دار الكتب العلمية، (بيروت - د. ت).
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م).
- نهاية الأرب في فنون العرب، تحقيق عبد المجيد ترميني، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٤٢٤هـ).
- النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م).
- المستدرک علی الصحیحین، تحقيق الدكتور محمد مطرجي، دار الفكر للطباعة والنشر، (بيروت - ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م).

- ابن هشام، عبد الملك (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م).
- السيرة النبوية، تحقيق رضوان جامع رضوان، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، (القاهرة - ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).
- الهيثمي، ابن حجر (ت ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م).
- الصواعق المحرقة، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).
- الهيثمي، الحافظ علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م).
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق عبد الله محمد الدروشي، (بيروت - ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).
- الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م).
- المغازي، تحقيق مارسدن جونسون، ط ٢ (قم - ١٤١٨هـ).
- اليعقوبي، أحمد بن يعقوب (ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م).
- تأريخ اليعقوبي، دار صادر، (بيروت - د. ت).
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م).
- معجم البلدان، تحقيق مزيد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، (بيروت - د. ت).

قائمة المراجع الحديثة:

- إسماعيل، محمود.
- علي بن أبي طالب والخوارج، علي بن أبي طالب نظرة عصرية جديدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت - ١٩٧٤م).
- الأميني، عبد الحسين أحمد.
- الغدير في الكتاب والسنة والأدب، مؤسسة الأعلمي، (بيروت - ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).
- بدوي، عبد الرحمن (الدكتور)،

- موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، ط ٣ (بيروت - ١٩٩٣م).
- البهي، محمد (الدكتور).
- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر، (بيروت - ١٩٧٣م).
- بيضون، إبراهيم.
- الإمام علي في رؤية النهج ورواية التاريخ، مؤسسة بيسان، (بيروت - ١٩٩٩م).
- بيضون، لبيب (الدكتور).
- الإعجاز العددي في القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، (بيروت - ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م).
- الترمميني، عبد السلام.
- الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام، (الكويت - ١٩٨٤م).
- جرداق، جورج.
- الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، (البحرين - ١٤٢٣/٢٠٠٣م).
- حسن، حسن إبراهيم (الدكتور).
- تأريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، ط ١٥ (بيروت - ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
- حسين، طه.
- الفتنة الكبرى، دار المعارف، (مصر - د. ت).
- المجموعة الكاملة - الخلفاء الراشدون، الشركة العامة للكتاب، ط ٥ (بيروت - ١٩٩٦م).
- الحسيني، إدريس هاني.
- الخلافة المغتصبة أزمة تأريخ أم أزمة مؤرخ، (د. م - د. ت).
- الحكيم، حسن عيسى (الدكتور).

- الشيخ الطوسي، مطبعة الآداب، (النجف - ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م).
- المستشرقون ودراساتهم للسيرة النبوية، مطبعة القضاء، (النجف - د. ت).
- الحكيم، رياض.
- علوم القرآن دروس منهجية، المركز الإسلامي المعاصر للدراسات والترجمة والنشر، (بيروت - ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م).
- الحوّا، محمد سليم.
- في النظام السياسي للدولة الإسلامية، المكتب المصري الحديث، (القاهرة - ١٩٨٣م).
- الخزاعي، عبد الحسين.
- إمام وخليفة، مكتبة الألفين، (لندن - ٤٢١هـ / ٢٠٠١م).
- الخطيب، عبد الكريم.
- علي بن أبي طالب بقية النبوة وخاتم الخلافة، (بيروت - د. ت).
- الدسوقي، محمد.
- الفكر الاستشراقي تأريخه وتقويمه، مؤسسة التوحيد للنشر، (قم - ١٩٩٦م).
- أبو رية، محمد (الشيخ).
- أضواء على السنة المحمدية، مؤسسة الأعلمي، (بيروت - د. ت).
- شيخ المضيرة أبو هريرة، دار المعارف، (مصر - ١٩٦٩م).
- الزركلي، خير الدين (ت ١٣٩٦هـ).
- الأعلام، دار العلم للملايين، ط ١٦ (بيروت - ٢٠٠٥م).
- أبو زهرة، محمد أحمد.
- المذاهب الإسلامية، المطبعة النموذجية، (القاهرة - د. ت).
- الساعدي، نعمه هادي.

- الإمام علي ومدرسة القرآن، مطبعة الآداب، (النجف - د. ت).
- السماوي، محمد التيجاني (الدكتور).
- الشيعة هم أهل السنة، مؤسسة الفجر، (لندن - ١٩٩٣م).
- أبو الشباب، أحمد عوض (الدكتور).
- الخوارج تاريخهم، مواقفهم، عقائدهم، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).
- الشمري، عباس وهب.
- الإسراء والمعراج بين العقل والوحي، دار القارئ، (بيروت - ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م).
- الصراف، محمد محمود،
- زوجات النبي الطاهرات وحكمة تعددهن، ط ٣ (القاهرة - ١٩٧٩م).
- الصغير، محمد حسين (الدكتور).
- تأريخ القرآن، دار المؤرخ العربي، (بيروت - ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
- العاملي، محسن الأمين.
- أعيان الشيعة، (بيروت - ١٩٦٠م).
- العاملي، مصطفى قصير.
- الشورى والبيعة ودورهما في انعقاد الإمامة الكبرى، المركز الإسلامي للدراسات، (بيروت - ١٤١٤هـ/١٩٩٦م).
- العباسي، محفوظ.
- الغرب نحو الدرب بأقلام مفكره، (بغداد - ١٩٩٠م).
- عبد الحميد، صائب.
- تأريخ الإسلام السياسي والثقافي، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، (بيروت - ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
- عبد الحميد، عرفان.

- المستشرقون والإسلام، (بغداد - د. ت).
- عبده، محمد.
- شرح نهج البلاغة، دار المعرفة، (بيروت - د. ت).
- العسكري، مرتضى.
- الاسطورة السبئية كما تخيلها أو اختلقها سيف بن عمر، (بيروت - ١٤٢٤هـ).
- عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى، منشورات كلية أصول الدين، (بغداد - ١٩٦٨م).
- العقاد، عباس محمود.
- عبقرية الإمام علي، (بيروت - د. ت).
- عقيقي، نجيب.
- المستشرقون، دار المعارف، ط ٣ (مصر - ١٩٦٥م).
- علي، جواد.
- تأريخ العرب في الإسلام، مؤسسة الشريف الرضي، (إيران - ١٩٦٣م).
- علي، محمد كرد.
- الإسلام والحضارة العربية، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، ط ٣ (القاهرة - ١٩٦٨م).
- الغزالي، محمد (الشيخ).
- دفاع عن العقيدة والشريعة ضدّ مطاعن المستشرقين، دار الكتب الحديثة، (القاهرة - ١٩٦٣م).
- الغفار، عبد الرسول (الدكتور).
- الخبر اليقين في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام، (النجف - ١٤١٧هـ).
- غلاب، محمد.

- هذا هو الإسلام، مطابع الشعب، (مصر - ١٩٥٩م).
- فضل الله، محمد جواد.
- صلح الإمام الحسن أسبابه ونتائجه، دار المثقف المسلم، (قم - د. ت).
- قاسم، أسعد (الدكتور).
- أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة، مركز الغدير للطباعة والنشر، (بيروت - ١٩٩٧م).
- قانصو، هنادي مشهور.
- الإسراء والمعراج رحلة الرسول ﷺ إلى السماوات والأرض، تحقيق الشيخ محمود قانصو، دار التيار الجديد، (بيروت - ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
- القبانجي، أحمد.
- خلافة الإمام علي بالنص أم بالنصب؟، سلسلة ثقافة إسلامية معاصرة، (د. م - د. ت).
- القزويني، محسن باقر (الدكتور).
- علي بن أبي طالب رجل المعارضة والدولة، دار العلوم، (بيروت - ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).
- كاشف الغطاء، محمد حسين.
- أصل الشيعة وأصولها، المكتبة الحيدرية، ط ٧ (النجف - د. ت).
- مراد، يحيى.
- معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العلمية، (بيروت - ٢٠٠٤م).
- المري، محمد جواد.
- الخلافة في الدستور الإسلامي، مطبعة الاتحاد، (بيروت - ١٩٤٦م).
- المظفر، محمد حسن (الشيخ).

- دلائل الصدق، (قم - ١٣٩٥م).
- معاش، كمال (الشيخ).
- فاطمة بين النبوة والإمامة، (بيروت - ١٤٢٤هـ).
- معروف، ناجي.
- الخوارج في العصر الأموي، نشأتهم وتأريخهم، عقائدهم، أدبهم، دار الطليعة، ط ٤ (بيروت - ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م).
- مغلي، محمد البشير.
- مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، (الرياض - ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م).
- مغنية، محمد جواد.
- إمامة علي والعقل، دار نشر السجدة، (قم - ٢٠٠٣م).
- الشيعة في الميزان، دار التعارف، (بيروت - د. ت).
- مهران، أحمد بيومي (الدكتور).
- الإمامة وأهل البيت، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط ٢ (قم - ١٩٩٥م).
- الموسوي، عبد الحسين شرف الدين.
- الموسوعة (الفصول المهمة - أبو هريرة)، تحقيق مركز العلوم والثقافة الإسلامية، قسم إحياء التراث الإسلامي، دار المؤرخ العربي، (بيروت - ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م).
- أبو النصر، عمر.
- الخوارج في الإسلام، منشورات مكتبة المعارف، (بيروت - ١٩٥٦م).
- النعمة، إبراهيم.

- الإسلام وتعدد الزوجات، (الموصل - ١٩٨٢م).
- نقره، التهامي.
- مناهج المستشرقين، دار العلم للملايين، (بيروت - ١٩٨٥م).
- هاني، إدريس.
- محنة التراث الآخر، مؤسسة الغدير للدراسات والنشر، (بيروت - ١٩٩٨م).
- هيفا، راجي أنور.
- الإسلام والغرب، دار العلوم، (بيروت - ٢٠٠٥م).
- هيكل، محمد حسنين.
- حياة محمد، مكتبة النهضة، ط ٥ (مصر - ١٩٨٢م).
- الواصل، أحمد (الدكتور).
- هوية التشيع، دار الكتب للمطبوعات، (بيروت - ١٩٨٧م).
- ياسين، خليل.
- محمد عند علماء الغرب، مؤسسة الوفاء، ط ٢ (بيروت - ١٩٨٣م).
- يعقوب أحمد حسن.
- النظام السياسي في الإسلام، مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر، (قم - ١٤١٢هـ).

الكتب المترجمة:

- آرنولد، السيرتوماس.
- الخلافة، ترجمة حسن حيدر الشيباني، مطبعة دار التضامن، (بغداد - ١٩٦١م).
- إيرفنج، واشنطن.
- محمد وخلفاؤه، ترجمة الدكتور هاني يحيى، المركز الثقافي العربي، (بيروت - ١٩٩٩م).

- بترسن، إيرلنغ ليدوك.
- علي ومعاوية في الرواية العربية المبكرة، دراسة في نشأة ونمو الكتابة التاريخية حتى نهاية القرن التاسع الميلادي، ترجمة آ. د. عبد الجبار ناجي، مطبعة الاعتماد ط، (قم - ٢٠٠٨م).
- بروا، جان.
- محمد نابليون السماء، ترجمة محمد صالح البنداق، دار الإنصاف للطبع والترجمة والنشر، (بيروت - ١٩٤٧م).
- بروكلمان، كارل.
- تأريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، (بيروت - ١٩٥٣م).
- بودلي، رونالد فكتور.
- حياة محمد الرسول، ترجمة عبد الحميد جودة السحار ومحمد محمد فرج، (القاهرة - ١٩٦٤م).
- بوكاي، موريس.
- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، دار المعارف، ط ٤ (بيروت - ١٩٧٧م).
- جعيط، هشام.
- الفتنة جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الطليعة، (بيروت - د. ت).
- جورجيو، كونستانس.
- نظرة جديدة في سيرة رسول الله، ترجمة الدكتور محمد التونجي، الدار العربية للموسوعات، (بيروت - ١٩٦٦م).
- جولد تسيهر، أجنس.
- مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحلیم النجار، مكتبة الخانجي، (القاهرة - ١٣٥٤هـ/ ١٩٥٥م).

- جيوم، الفريد.
- الإسلام، ترجمة محمد مصطفى، (القاهرة - ١٩٥٨م).
- حتي، فلب خوري.
- تأريخ العرب، نقله إلى العربية، محمد مبروك نافع، مطبعة دار العالم العربي، ط٣ (القاهرة - ١٩٥٢م).
- خودا بخش، صلاح الدين.
- الحضارة الإسلامية، ترجمة علي حسني الخربوطلي، (بيروت - ١٩٧١م).
- دانتي، الجيري.
- الكوميديا الإلهية، ترجمة حسن عثمان، دار المعارف، (مصر - ١٩٥٥).
- درمنغم، آميل.
- حياة محمد، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة إحياء الكتب العربية، (القاهرة - ١٣٦٨هـ/١٩٤٩).
- دونلدسن، دوايت. م
- عقيدة الشيعة، ترجمة، ع. م، مكتبة السعادة، (مصر - د. ت).
- دينيه، آتين.
- محمد رسول الله، ترجمة عبد الحلیم محمود، مطبعة دار الكتاب، ط٣ (مصر - ١٩٥٩م).
- رسلر، ج. س.
- الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبد عون، مراجعة الدكتور أحمد فؤاد، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (القاهرة - د. ت).
- روي لبككر وآخرون.
- دراسات إسلامية، ترجمة الدكتور نقولا زيادة، دار الأندلس، (بيروت - ١٩٦٠م).

- ريشار، يان.
- الإسلام الشيعي، ترجمة حافظ الجمالي، دار عطية، (بيروت - ١٩٩٦م).
- سيديو، ل. أ
- تأريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، (القاهرة - ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م).
- شاخت، جوزف، وكليفورد بوزورث.
- تراث الإسلام، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت - ١٩٩٨م).
- شتروثمان، ف. س.
- دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة محمد ثابت أفندي، (قم - د. ت).
- شتيفسكا، يوجينا غيانة.
- تأريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، منشورات المكتب التجاري للطباعة، (بيروت - ١٩٦٦م).
- فايس، ليوبولد (محمد أسد).
- الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين، ط٤ (بيروت - ١٩٥٥م).
- فلهوزن، يوليوس.
- أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام - الخوارج والشيعية - ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، ط٢ (الكويت - ١٩٧٦م).
- تأريخ الدولة الإسلامية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو ريذة، مراجعة حسين مؤنس، لجنة التأليف والنشر، (القاهرة - ١٩٥٨م).
- كارليل، توماس.

- الأبطال، ترجمة محمد السباعي، ط ٣ (مصر - ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م).
- محمد المثل الأعلى، ترجمة محمد السباعي، المكتبة الأهلية، ط ٢ (بيروت - د. ت).
- كونسلمان، جرهارد.
- سطوع نجم الشيعة، ترجمة محمد أبو رحمة، مكتبة مدبولي، ط ٣ (القاهرة - ٢٠٠٤م).
- لاندو، روم.
- الإسلام والعرب، ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، (بيروت - ١٩٦٢م).
- لوبون، غوستاف.
- حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، ط ٣ (القاهرة - ١٩٥٦م).
- ماسينيون، لويس.
- سلمان الفارسي والبواكير الروحية في إيران، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، (الكويت - ١٩٧٨م).
- ماسيه، هنري.
- الإسلام، ترجمة بهيج شعبان، (بيروت - ١٩٦٠م).
- مجموعة مستشرقين.
- دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة، محمد ثابت أفندي وآخرين، (قم - د. ت).
- مشهدي، جعفر.
- حياة السيدة فاطمة الزهراء، ترجمة رياض الأخرس، (بيروت - ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م).
- مورغان، كينث. و.

- الإسلام الصراط المستقيم، ترجمة محمود عبد الله يعقوب، مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة، (نيويورك - ١٩٥٨م).
- نتج، إنتوني.
- العرب إنتصاراتهم وأمجاد الإسلام، ترجمة الدكتور راشد البراوي، مكتبة الاتحاد المصرية، (القاهرة - ١٩٧٤م).
- هونكة، زيغريد.
- شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضوني وكمال دسوقي، (بيروت - ١٩٦٤م).
- يون، جان ديون.
- الاعتذار محمد والقرآن، ترجمة عباس الخليلي، مطبعة الإقبال، ١٣٧٥هـ.

المصادر الأجنبية

- Andrae,Tor,
- ❖ Mohammed the Man and his Faith,(London-1935).
- Arnold,T. W,
- ❖ the Preaching of Aslam,(London-1913).
- Binder,Leonard,
- ❖ the Ideological Revolution in the middle east,Department of political science University of Chicago-w. d.
- Edward Brown,
- ❖ Encyclopedia of Religion and Ethics,vo,11,subject: BAB. BABIS.
- Emel Esin,
- ❖ Mecca The Blessed Madina the Radian Pual Eleck Productions,)(Italy-1963).
- Graham,Samuel Wilson,
- ❖ Modern Movements among Moslems,(London and Edinburgh-1916).
- Hastings,James,
- ❖ Encyclopedia of Religion,v. x1.

- Monsfeld, Peter,
- ❖ The great Arab Explosion, (London-1973).
- Morgoliouth, D. S,
- ❖ Encyclopedia of Religion and Ethics, printed in Great Britain 1957. v. 11 subject: Khawarij.
- Muir, Sir William,
- ❖ The caliphate, its Rise, Decline and Fall, (Beirut-1963).
- ❖ Mohomet and Aslam, The Religious Tract Society, 56 Patteenoster, 63 Sr, Paul Cruecryasd.
- Noldeke, theodor,
- ❖ sketches from Estern History, Khyats oriental Reprints, 1963.
- Patton, Walter. M,
- ❖ Encyclopedia of Religion and Ethics, subject: Shiahs.
- Rodinson, M,
- ❖ Mohammad, London, 1962.
- Soderblom, N,
- ❖ Encyclopedia of Religion and Ethics, vo, v11 subject: Incarnation Inroductory.
- Southern, R. W,
- ❖ Western views of Aslam in the middle Ages. (Cambridge, Mas-1962).
- Spuler, von Bartold,
- ❖ Geschiht Der Islamiciton, (London, Leidon, E. J. Brill-1952).

الكتب باللغة الألمانية:

- Stern, Gertrude,
- ❖ Marriage in Early of Islam, (London-1934).
- Sykes. Sir. Percy,
- ❖ History of Percia, Macmillan, third Edition, (London-1958).
- Tritton, A. S,
- ❖ Aslam Belef and Practieces Hutchinson, University Library, (London-W. D).
- Vaglieri. L. Veccia,
- ❖ The Encyclopedia of Aslam new Edition, Leiden, E. J. (Brill-1979). vol. 1 subject: Ali Bin Abi Talib.

- Wallaston, Arthur,
- ❖ Half Hours with Mohammed, (London-1982).
- Wat, Montygomery,
- ❖ Aslam and Integration of Society, Routledge and Kegan Paul, (London-w. d)
- www-http. ALshia. com

باللغة الفارسية:

المجلسي، محمد باقر، حياة القلوب، تحقيق سيد علي إماميان،
انتشارات مؤسسة سرور، (قم - ١٣٨٤هـ).

البحوث والدوريات

- الصباح، رشا حمود.
- التصورات الأوروبية للإسلام في العصور الوسطى وتأثيرها في الكوميديا الإلهية، مجلة عالم الفكر، مجلد/١١، عدد/٣، ١٩٨٠م.
- هادي، علي السيد.
- مناهج الكتابة في السيرة النبوية، بحث بعنوان (مشروع إعادة كتابة التاريخ الإسلامي)، مجلة المنهاج، (بيروت - ٢٠٠٤م).

الرسائل الجامعية

- بشير، مشتاق.
- تطور الاستشراق البريطاني في كتابة السيرة النبوية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية ابن راشد، (جامعة بغداد - ٢٠٠١م).

الفهرس

المقدمة ونطاق البحث	٥
الفصل الأول: المستشرقون ودراسة سير الرجال الرسول محمد ﷺ أنموذجاً	١٥
مدخل	١٧
المبحث الأول: الدراسات غير الموضوعية	١٩
لقد فند أحد الباحثين ما زعمه مرجليوث، بالقول	٣٣
«المبحث الثاني»: الدراسات الموضوعية	٤٩
الفصل الثاني: مناهج المستشرقين في دراسة شخصية الإمام علي عليه السلام	٥٩
مدخل	٦١
«المبحث الأول»: أسبقية الإمام علي عليه السلام في الإسلام	٦٣
المبحث الثاني: زواج الإمام علي عليه السلام	٧٧
وعن أبي ذر (ت ٣٢هـ)، قال	٧٩
ثم أضاف الإمام علي عليه السلام بعد ذلك قائلاً	٨٢

- «المبحث الثالث»: الإمام علي عليه السلام وجمع القرآن ٨٧
- وروى المتقي الهندي عن ابن سيرين (ت ١١٠هـ)
- قال ٩٠
- المبحث الرابع: الصفات الشخصية للإمام علي عليه السلام ٩٣
- قال الإمام علي عليه السلام ١٠٢
- المبحث الخامس: شجاعة الإمام علي وفروسيته عليه السلام ١٠٥
- الفصل الثالث: موقف المستشرقين من الخلافة ١٢١
- مدخل ١٢٣
- تمهيد الخلافة مفهوماً وممارسة ١٢٥
- الإمامة والخلافة عند أهل السنة ١٣١
- وللامدي (ت ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م) رأي في ذلك مطابق لرأي
الغزالي، يقول فيه ١٣٢
- الإمامة والخلافة عند الشيعة الإمامية ١٣٣
- المبحث الأول: الدراسات الاستشرقية التي قالت بعدم
استخلاف النبي صلى الله عليه وآله وسلم من بعده ١٣٧
- فنجد عند الطبري ما يشير إلى ذلك بوصفه للبيعة
قائلاً ١٥٥
- المبحث الثاني: الدراسات الاستشرقية التي قالت باستخلاف
الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للإمام علي عليه السلام ١٦٥
- وقد عقب (دونلدسن) على هذه الرواية بالقول ١٧٠

المبحث الثالث: الرد على الدراسات الاستشراقية التي تؤيد	
عدم استخلاف النبي محمد ﷺ لأحد	١٨٧
في ضوء مواقف الشيعة الإمامية	١٨٧
الفصل الرابع: الحروب التي خاضها الإمام علي ؑ ضد	
الخارجيين على السلطة [الضالّين] في الدراسات	
الاستشراقية	١٩٩
مدخل	٢٠١
المبحث الأول: حرب الإمام علي ؑ ضد الناكثين في معركة	
الجمل	٢٠٣
المبحث الثاني: حرب الإمام علي ضد القاسطين في معركة	
صفين	٢٣٥
المبحث الثالث: حرب الإمام علي ضد المارقين (الخوارج)	
في معركة النهروان	٢٧١
وينتهي (ميور) كلامه عن الخوارج بقوله	٢٨٥
الخاتمة	٢٨٩
قائمة المصادر والمراجع	٢٩١
المصادر الأولية	٢٩١
قائمة المراجع الحديثة	٣٠٠
الكتب المترجمة	٣٠٧
المصادر الأجنبية	٣١٢
الكتب باللغة الألمانية	٣١٣

٣١٤ باللغة الفارسية
٣١٤ البحوث والدوريات
٣١٤ الرسائل الجامعية
٣١٥ الفهرس



موقع العتبة العلوية المقدسة : www.imamali-a.com

موقع مكتبة الروضة الحيدرية : www.haydarya.com

رقم الاصدار (٦٧)